2020
2.1.2020

ميودراك بولاتوفيتش

الإصبع الخامس

ترجمة: د. وليد السباعي

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

ميودراك بولاتوفيتش

الإصبع الخامس

عن الذين تركوا دفء بيوتهم،
وهجروا أوطانهم، وعاشوا نازحين
على تراب غريب.

ترجمة: د. وليد السباعي

عنوان الكتـاب: الإصبع الخامس
اسـم المؤلـف: ميودراك بولاتوفيتش
اسـم المترجـم: د. وليد السباعي
المـوضـــوع: روايـة
عدد الصفحات: 288 ص
القيـــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ
ISBN: 978-9933-580-96-4

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

MIODRAG BULATOVIĆ

PETI PRST

ميودراك بولاتوفيتش

الإصبع الخامس

«عن أولئك الذين لم يدخلوا في رواية رجال بأربع أصابع»

ملاحظة:

تجري أحداث هذه الرواية في أوروبا الغربية، خصوصاً في ألمانيا الغربية سابقاً، قبل توحيد شطريها، بين الغرباء من لاجئين سياسيين، وجيوش مهزومة، ومهاجرين، وهاربين مجرمين، وعمالة رخيصة. خصوصاً بين اليوغسلافيين منهم. وقد تألفت جمهورية يوغسلافيا الفدرالية آنذاك من ست جمهوريات هي: كرواتيا. البوسنا. الجبل الأسود. مكدونيا. سلوفينيا. وصربيا وفيها مقاطعتان بحكم ذاتي هما فويفودينا وكوسوفو، التي انفصلت هي الأخرى بعد حرب دامية كجمهورية مستقلة. وهناك كراهية شديدة بين الصرب الأرثوذوكس والكروات الكاثوليك. السارد هنا صربي. وكل ذلك قبل انفصال تلك الجمهوريات إلى كيانات مستقلة. حينما كمنت النار تحت الرماد: شعوب متناحرة في وطن واحد. ويمكن اعتبارها رواية مستقلة، أو ذات علاقة برواية رجال بأربع أصابع الشهيرة للمؤلف عينه. وتترجم لأول مرة، وعن اللغة الأم مباشرة.

المترجم

المحتويات

I اللقاء على «بونتي روسي» بين فيد زاكوراتس وجيكا بتروفيتش. السنيور بالموس يرمي لأسماك القرش. الرسالة للقنصل. الوداع!.....١٣

II إنهم يرغبون بالشتائم. وتعظيم المصيبة. «منذ متى تحمل الناس إلى ميونخ يا بن جلدتي؟» ٢٧

III عجائب التهريب. عمالقة حليقو الرؤوس. مدفع صغير سويسري لاينتر. كم هو شاسع وطن للا أحد؟. الكتائب.....٣٢

IV قاطع الطريق. اقذفه للجنوب أو بعه! كم اسماً لديك؟.....٤٤

V من دون رأس، وبقلب ملتاع يوافق النازح بسهولة على أي شيء... ويطول الانتظار للحصول على هذا اللجوء السياسي. كيف يبدو رفيقي في السفر من دون توماشكو؟.....٥٨

VI «أوروبا وعبيدها الحداثيون...». الأرواح المهانة. لماذا شوهت الأغنية الأكرانية: سردينكو يا حبيب القلب،.....٦٩

VII لا توجد أية كلمة في رسائل بافلوفيتش حول لقائه بالأكراني. الأسطورة الثالثة تكيل اللوم على صوفيا، من براتي سلافا، المرأة المدمرة!.....٧٥

VIII يوغسلاف سابقون بالكيلو! من بلّوبوليه إلى كوريا. لماذا يلد أطفاله خرساناً؟.....٨٥

IX خمس قطع بولندية لقاء خمسة رؤوس مجرية! ٩٢

X أذن ستالين في حقيبة حقيرة ملوثة بالغائط مليئة بالدود. متى شوهدت جوزفينا، خنزيرة العنف لآخر مرة؟.....٩٦

XI سأقتلك برجلي التشيكي! ١٠٢

XII الأوروبيون النيجيريون. المستبدلة دماؤهم البشرية بدماء خنزيرية؟.... ١٠٦
XIII حصار قنصلية يوغسلافية. صرعة المهاجرين. الأنبياء والقدماء تكلموا اللغة الصربية..... ١٠٩
XIV عيّنات من المهاجرين. أو براد فولاريتش الشاطر من بلدة جاجاك، يلاحقه الأمريكيون. قال أوبراد إن المأساة اليونانية ستستمر في ميونخ... ١٢٠
XV يؤكد إلمار فينك، أن كافرو بيرونوف بافلوفيتش، وسيكولي جوركوف رادوفيتش، وجورو أندرين بيجوريتسا، قد أطلقوا النار في بونس آيرس، يوم ٩ أبريل ١٩٧٥!..... ١٢٧
XVI إيليا راونيتش، صاعقة من البوسنا. من قتل يانكو بوبوفيتش كورسولا؟..... ١٣١
XVII كيف انطلق توميتسا باكراش، قاذف القنابل، ثانية إلى سلافونيا..... ١٣٤
XVIII بوكوليوب - بوجا بيريتش، مبتزّ ومتوحش يغش ذوي الأربع أصابع..... ١٣٧
XIX الفتوة من فوجا. في ذلك اليوم أوردت الصحف البلجيكية خبراً قصيراً جداً: عثر على جثة رجل خمسيني هزيل وطويل في شارع هادئ في بروكسل..... ١٤٦
XX البافاريون ينظرون أمامهم..... ١٦٥
XXI كل الطرق تقود إلى «شيلر». لا نعرف أين هي هونولولو لكننا نعرف جيداً أين تقع جابلين.! ما كل ما كان يعرضه آنته براسكالو المخادع..... ١٧٠
XXII السيانيد في ذات اللترين..... ١٨٣
XXIII العرابون. الأخ الأسود الكبير..... ١٨٥
XXIV عبيد من تركيا. «كلب.. كلب.. وحش بلقاني أشمط»..... ١٩٢
XXV يسمى العراب باللغة اليونانية العرابوس. بابا ندريو يتشمم العديد من البارفانات. هيلادو.. يا أمي.. يا أمي الوحيدة..... ٢٠٠

XXVI العائدون من دون صيادي الحيّات السامة. بعض بلدياتنا يتسكعون في مجاهل الغابات، يصطادون القرود الأفريقية الخطيرة، والوحوش اللعينة الأخرى... النهاية سعيدة الخاتمة!..... ٢٠٥
الإصبع الخامس السلوفيني..... ٢١١
ديلا إيست، المغرية الساحرة واللعينة..... ٢١٣
هل ينتظرون الخلاص يا ترى.؟. كلا إنهم ينتظرون لا أحد ٢١٦
من يشتري هندياً ما دام لديه تركيون؟! ٢١٨
كيف تذابح العرب..... ٢١٩
العراب الأكثر اكتمالاً تحت سماوات العالم وفي جميع الأوقات والأزمنة. ٢٢٠
أحد السلافينيين خرج من الجحيم لحظة. وأعطى، شاء أم أبى، حواره الأول. ٢٢٣
شاهد يهوه الكاذب. الموسوعة الحية للنازحين..... ٢٢٦
لم أعد رجلاً منذ أن ابتعدت عن الفيلق الأبيض. ٢٢٨
من قتل الدكتور مارك ناتلاجن، والدكتور إيرلينج، وإيفو برشوخ.. يا سيدي؟..... ٢٣٢
«الثوار الشيوعيون..» ٢٣٤
كيف تقول للخائن إنه ليس خائناً؟ طردوه دون أن يعلموا مدى اهتمامه «بأشياء مقدسة» الحقيقة الموازية..... ٢٣٨
رجل من شكرينيا السوداء، كتائبي مرتزق..... ٢٤٠
وآخرون يملكون المقاطع... وأية مقاطع!..... ٢٤٢
«قتلتم، قتلتم أخوتكم بالدم، قتلتم الإنسان بالخزعبلات!»..... ٢٤٦
«ألبا دي لابيرتا سلوفينيا»: الظلام والخفافيش الأرجنتينية... ..... ٢٤٩
«تقبيل المسيح» إنما كيف؟ هل بالقتل؟!..... ٢٥٠
كو - كلوكس - كلان منظمة رائعة ٢٥٢

«الحرب من أجل الحرية. سلوفينيا المسيحية...» ٢٥٤
كيف يوجد تفسير للهزيمة. كلٌّ خطّاء ذاته. بالنسبة للبعض المذنب
الرئيس هو أدولف هتلر «دولفي» لأنه خسر ٢٥٥
من اشترى من؟ من هم ضحايا السياسة الدولية؟ «ومن هم الذين
خانوكم؟» ٢٥٨
«لا يمكننا أبداً الاستهانة بقوة الشر!» هذا ما قاله الأب بيا الحادي عشر
في الصفحة ٧٩ من كتابه، الذي يتبناه محدثي.. «النار والماء!» ٢٦١
الشعب يغتصب السلطة من رجال السلطة الروحية المقدسة! أية خسارة؟.. ٢٦٥
هذا الرجل من الأرجنتين؟... من الأرجنتين يا سيدي! المجلس الحركي
الانقلابي يشجع الثأر؟ الشروط الأخرى للمصالحة ٢٦٩
شهود يهوه هذه المرة من السود. «عزيزي السيد جورج..» ٢٧١
السلوفينيون - أفضل مربي الخراف الأرجنتينية! الدمامل القيحية.
كارديناالان يعدان بفجر جديد. ٢٧٤
الكتائبي الأبيض من الأرجنتين ليس بوضع يؤهله لمشاهدة ذوي الأربع
أصابع الراغبين بإهدائه مشروب الشنابس الألماني ٢٧٨
في نهاية شهر مايو تنتهي ست وثلاثون سنة منذ أن جاءَ القتلة
المأجورون ٢٨٠
«... ونتنظر لحظة هبوب الريح، التي اقتلعتنا في ١٩٤٥ وقذفتنا خارج
يوغسلافيا إلى العالم، أن تهب الآن وتعيدنا نحو الشرق...» ٢٨٣
شهود يهوه يجرّون السفن للكونغرس العالمي في ميونخ! ذوو الأربع
أصابع يصلون في ورديات. الفراق مع محدثي، في الفجر! ٢٨٦
من كتب المؤلف ٢٨٨

ميودراك بولاتوفيتش: بريشة حسن فازليتش

خبر موته أعلنته الصحف التي تطبع ليلاً، فتصطدم مع صباح المدينة الضبابي المبكر. وقد نعتته بالشرير - كما هو حقيقة - ونعتت كل شيء بالمستقيم العادل - كما هو حقيقة - فالذي ينبش في ما ليس له، يستحق الموت.

كان اسمه مجهولاً، فأوراقه الثبوتية مزورة. ولم يكن يعرفه أحد، لأن الذين على شاكلته ليس لهم معارف.

لقد قتل في حادثة سرقة. قتله من هو أقوى منه - والأقوى لهم الحق -. أطلق عليه أحد الذين يخدمون القوة ويمتازون بدقة القنص.

بعضهم يموت في فراشه بصمت بين أهله. آخرون في المشافي أو دور العبادة، أو في أي قناة من أقنية الأعمال الخيرية، وبعضهم في مجالات شهرة مشبوهة. ومن النادر أن تجد من يموت مثله، مقبوضاً عليه في حادثة سطو، ومقتولاً برصاصة مثل كلب على سقيفة غريبة مظلمة، ونادراً بكل هذا القدر من العيب.

لقد اقتحم بيتاً غريباً، من دون خريطة، أو سلاح، أو تجسس. واثقاً من عينيه ويديه. بينما يقتحم الآخرون دولاً! - فقط ليحصل على ضرورات عيشه - بينما يسرق الآخرون للرفاهية.

بعضهم يحارب لامتلاك أراض شاسعة، وآخرون لامتلاك الملايين، وثالث للحصول على وسام من ذهب مزيف. أما هو فقد حارب من أجل حياة عارية، خطّاءً ومتألماً مثل غيره، خانه الحظ، فدخل في مجابهة غير

متكافئة، فقتله على سقيفة غريبة مظلمة ذلك الذي كان أقوى ودافع عن ممتلكاته.

أنت تكتب: هذا عدل.

نعم. لكن لو أن هذا العدل نفسه قارب كل واحد منكم، بعدما تحرش به آخر في غربة ما، فإنني أخشى أن عُدد السلطات كلها لن يوجد بها رصاص كاف لكل هذه الزمرة من المهاجمين الشرفاء.

من الخطأ أن تنكأ العدالة.

كل الناس يرتكبون الأخطاء الصعبة دائماً، لكن الله يغفر للفقراء دائماً.

شهقة الموت جاءته على سقيفة، ولن يوجد من يبكيه. وأخفى جثته صحفي خائن.

لم يستحق قبراً مجهولاً، موشوماً بالعيب، ولم يستحق حقارة الجبان. بل آهات الناس الطيبين ورحمتهم، وأبيات شعر. فليس من السهل أن يخفي التعيس شبابه نهاراً، في عشوائية متطرفة، في وكر، وأن ينطلق ليلاً إلى مهنته المعيبة.

وفي قبر مظلم ومجهول رقد الشرير المجهول، وذلك أفضل، فهو لم يكن حياً أصلاً. تشتعل من أجله قصائدي بكل المرارة والرأفة.

إيفو اندريتش[1]. الصخب ١٩٢٠

---

١ - إيفو أندريتش كاتب بوسني حاز على جائزة نوبل للآداب ١٩٥٦. - المترجم -

I

اللقاء على «بونتي روسي» بين فيد زاكوراتس وجيكا بتروفيتش. السنيور بالموس يرمي لأسماك القرش. الرسالة للقنصل. الوداع!

فيد زاكوراتس أتعس مهاجر في الدنيا. قابلته في سوق الخضار بونتي روسي بمدينة تريستا الإيطالية. كان يوماً عاصفاً وجليدياً من عام ١٩٧٥، فارع الطول، محني الكتفين، بوجنتين غزتهما الأخاديد والالتهابات، وعينين باكيتين ومهجورتين. لقد سار هذا الرجل غير العادي وراء اليوغسلافيين الحائمين حول الواجهات المليئة ببضائع مستعملة. وهو يهمس:

«انتهى. كل شيء انتهى بالنسبة لفيد زاكوراتس الأسود..».

كانت هيئة لفتّها الأسمال التي كانت ذات يوم ثياب بحارة، وحذاء قضقضته ملوحة البحر، وخرق وهبت شكله كلّه هيئة متسول. كان هائج القسمات، فخيل إليّ أنه قد وصل لتوه من سفر بحري، من أحد البحار الجنوبية البعيدة.

سرت من خلفه كما كان هو يسير من خلف اليوغسلافيين. كان يمدّ يديه الطويلتين المليئتين بدمامل متحجرة وقروحاً، المرتجفتين، تجاه الناس، كأنه يريد أن يعانق احدهم وهو يرتجف: «أمن المعقول أنني أراك ثانية يا شعبي المبجل الرائع؟..».

وبما أن الشعب دائماً مشغول بنفسه وكبير، فلم يكن يعير انتباهه ليدين طويلتين مرتجفتين تطلبان العناق. الشعب كان يشتري ويجادل. لكن أعين التجار الإيطاليين كانت على تلك اليدين اللتين تريدان سلب كل شيء قبل الانكفاء. أما الشعب فلم يرَ، ولم يسمع برجل متميز في كل شيء، خصوصاً بالقهر والعذاب، تعبّر عنهما كل حركة من حركاته، وكل نظرة وهو يبكي:

«يا شعبي الذهبي... اعذرني لأنني خنتك بوضاعة وذبحتك.. اعذرني أو ارمني في البحر..».

الشعب كان يفاصل ويجادل. وكان الإيطاليون يلوون ألسنتهم في محاولة التحدث باليوغسلافية وبجميع اللهجات والأشكال. وكان الشعب مختالاً لأنهم يعرفون لغته وأرقامه، وخصوصاً شتائمه.

«يا شعبي اليوغسلافي ارمني في البحر، حررني، حرر زاكوراتس التعيس...».

أمسكت زاكوراتس التعيس من تحت إبطه، وقدته باتجاه أول مطعم متواضع. وحصل التفاهم بيننا بسرعة. ولقد دعاني نشيج بكائه ورعدة جسده الهادئة إلى اليقين أنه كان محروماً حتى من الندب والبكاء في أسره. لقد سار بجانبي متعثراً كمن يسير على ظهر سفينة مرتجفاً وهامساً:

«سيدي.. أمن الممكن بعد كل سني الأسر تلك والعذاب أن أُعامل كإنسان؟..».

«أمامك يا زاكوراتس قدر مليء بالمعكرونة الإيطالية» قلت له، وأنا واثق أنني أشاهد أمامي بطلاً روائياً من الصف الأول. وأضفت: وهاك النبيذ.

«منذ متى لم أشتم رائحة النبيذ!». فقط أكمل حديثك أيها القادم من بعيد. لقد أهملت من حكايته أماكن كثيرة، وأمثلة غير مفهومة، وتعابير بحارة. كان يتلعثم بتعاريف إسبانية، وشتائم برتغالية، وهو يكمل اعترافاته بحركات قرصان بحري. وفي لحظة ما اكتسبت هيئته الهائجة المستثارة معالم هلاك وتعب حيوان مذبوح. ونجح ذلك الرجل المحطم المهدود أن يرسم أمامي عذابات أسره بخطوط واضحة، وشقاء تسكعه، وهو يكرر ذلك مرات ومرات.

«سيدي.. لقد وقعت في الأسر أول مرة في ١٠ مايو ١٩٤٢. في كنيسة كرواتية بمدينة زغرب. كنت أصلي للرب. قبض علي اثنان واقتاداني إلى الفناء. كنت أصيح «ما أزال أرغب بالصلاة للرب» فقاما بعفسي وضربي، وقالا إنه ما زال هناك متسع وقت للعبادة. وفي الفناء أدخلوني في بزة عسكرية ألمانية واسعة متهرئة مدماة نزعت من جثة. وقالا «الآن أصبحت «مدافع وطني»[١] وهما يسحباني إلى البراكة. ولقد استمر تدريبنا نحن المقبوض علينا في الشوارع والكنائس يوماً ونصف اليوم. وفي العشرين من شهر مايو اقتادونا مثل حيوانات فقدت أذنابها إلى هضبة بترو، هناك حيث تواجد المنشقون من الثوار والجيش الوطني. والتي غصّت بالكثير من الناس من شعوب مختلفة، بالحيوانات، والجرحى. يدفعوننا نحن المجندين حديثاً، المرعوبين، أمامهم بغلظة وهم ينبحون: أطلق. اغسل يديك بالدم يا بن الكلبة الحمراء[٢].. في لحظة ما أطلقت في الهواء، ثم في شعاب الهضبة. فاقترب مني يوزو ماروشيتش وصفعني بشدة غارساً فوهة المسدس في صدغي، وقال: إذا لم تتمكن من الإطلاق على البشر فاطلق على الحيوانات.

---

١ - إحدى الميليشيات الكرواتية العاملة ضد الجيش الوطني والثوار بقيادة نيتو. - المترجم -

٢ - الشيوعية.

أطلقت وأنا أشاهد كيف تتقصف أغصان الأشجار، وتتجندل الماعز وصغار العجول. أطلقت، خجلت، وانتظرت أن تصيبني رصاصة عقاباً.

«تابع يا فيد زاكوراتس..».

«وفي وقت من خريف ١٩٤٣ بعد استسلام إيطاليا جاء إلى براكتنا العائدة للدفاع الوطني ضابط طويل العنق والياقات من الأوستاشي[١]. قام بعدّنا، وأخذ مقاساتنا، وجسّ أجسامنا فرداً فرداً، ثم قال: أنتم منذ اليوم حيوانات دفاع وطني، وتحت أمرتي، كضابط أوستاشي. وحينما قلت «متى تسمحون لي بالذهاب إلى بيتي لزيارة أهلي؟» صفعني، وبصق في وجهي، وصاح. وأحالني هذا الوحش، كعقاب، إلى الناريين الحارقين. وكنا على الحدود. حملت النار. أطلقت، لكنني كنت أصيح: اهرب. يا شعبي البريء المسكين! ورغبت أن تطالني الشظية. لكن أحداً لا يجيد العقاب كالإله. أحرقت بيوتاً كثيرة في البوسنا، وليكا، ودلماتسيا، وهناك حيثما كانوا يرسلونني. لكنني كنت أصيح: «اهرب أيها الفقير». وفي إحدى تلك الحرائق تفاجئني نهاية الحرب في بانيا. صلّبتُ ورغبت بالعودة إلى بيتي. لكنهم لم يسمحوا لي. لم يطلقوني. ولقد عاصرت بناء الجسر الحجري وبقيت حياً يا سيدي، أعبر فوق جثث القتلى وأدوسها، ولم يرغبني الرصاص. كنت قوياً وشاباً بعمر اثنين وعشرين سنة. تبرعوا بي إلى إحدى الكتائب. ولقد تجندل جميعهم من حولي وبقيت حياً. وأصابت رصاصة طائشة أعزّ زميل لي إيفان بولزا وسط جبينه، في النمسا. ووقع فيد زاكوراتس في أبشع أسر وأشده سواداً...».

---

١ - أفراد الجيش الكرواتي المناهض للثوار والشيوعية. حاربهم الثوار. وبعد انتصار الثورة تمت ملاحقتهم بصفتهم خونة. لكن بعد حوالي خمسين سنة وانهيار الجمهوريات اليوغسلافية وانفصالها وتكوين جمهورية كرواتيا أعيد لهم اعتبارهم. - المترجم -

«أي أسر تقصد؟» سألت الرجل الذي نشفت وجنتاه. «أي أسر هذا بعد الحرب في يونيو ١٩٤٥؟».

«كنا مهدودين، مشعثين، في أسمالنا، نجرّ جراحنا وهزيمتنا حينما فاجأنا وجمّعنا دازلينا. أخبرنا أنه كان اليد اليمنى لـ لوبوريتش[١]، وأنه الوحيد العارف بما كان يحصل في مخيم التعذيب ياسينوفاتس[٢]، فسيطر علينا رعب مستطير. فقال إننا أفراد جيشه وعبيده وأسراه. وحينما حاول اثنان منا الهرب منه ذبحهما أمامنا، ولعق السكين وقبّلها. ولقد عبرنا نحن الخمسة الباقون مع دازلينا إلى النمسا وألمانيا، خلال الغابات والقرى، ونحن نعيث فساداً: سرقة وخطفاً واغتصاباً. وقد عرض أمامنا كيف كانوا يعذبون الأسرى في ياسينوفاتس، بعد أن فجروا بهم، واضطرنا إلى ذلك الفعل مثلهم. أعتقد أنكم فهمتم. لكن كتيبتنا، نحن الخمسة، وقعت في قبضة ضابط آخر، رهيب الخلقة، بعينين مشكولتين، وأذنين مشنفتين جداً، وعنق غليظ، أنكر اسمه أمامنا، فأصبحنا نناديه، بناء على طلبه: السلافي. ولم يكن دازلينا قد تحمل الأسر في ياسينوفاتس والضيق، فخطط للهرب من الأسر الذي كان قد وقع به هناك، والآن ينحني السلافي من فوقه، ويعتصره، عند مدخل مدينة بريمن، في الشمال، ويمطره رصاصاً حوّل جثته إلى مصفاة تصفر فيها الريح من رشاش شمايسر، ثم ذبحه أمامنا بطرق عديدة. ولمدة شهر تسكعنا حول مدينة بريمن، وقد تحول الميناء إلى حطام، وندرت السفن جداً، وذبح السلافي رجلاً آخر، لكن بطريقة فنيّة، وهو يردد أمامنا نحن الباقين إن هذا ما ينتظرنا إذا عصينا أوامره. بكيتُ يا سيدي وانتحبتُ أنشج

---

١ - مجرم كبير ارتكب الفظائع ونكّل بالآمنين.

٢ - أكبر مخيم تعذيب في الحرب العالمية الثانية. - المترجم -

مثل ذلك اليوم الذي أجبروني فيه على الصعود إلى هضبة بترو. ولقد حاولت الهرب، والعودة من حيث أتيت وللعجب العجاب سامحني السلافي وأهداني حياتي، وكان هذا عقابه. ثم حشرني مع الباقين، وكنا حوالي عشرة، على سفينة ما...».

«أية سفينة يا فيد زاكوراتس؟».

«لا أعلم يا سيدي. لا أعلم!» وهزّ رأساً ضائعاً ومستثاراً، ذلك الرجل الذي كان يذوب في اعترافاته: «على السفينة كنا حوالي عشرين رجلاً، جميعنا، ما عدا الهاربين من الشرق، كانوا من أكرانيا، المجر، بولندا، رومانيا، روسيا، بل وواحد من ألبانيا. وكان بيننا نحن البلقانيين مقدونيون وصربيون ودلماتينيون، وبوسنيون. وكان ربان السفينة ألمانياً أو هولندياً، لا أعلم. وقد تموّه السلافي بلباس بحار. ومن حينها ابتدأنا نخافه جداً. ماذا فعلنا؟.

أبحرنا في الموانئ الألمانية الشمالية، والتي كانت قد رست بها سفن إنجليزية وأمريكية. هاجمنا تلك السفن، سرقناها، واختطفنا ممن عليها الطعام والسلاح والذخيرة والأدوية. وقد اختبأ الألماني والسلافي في مكان ما. بعدئذ صرنا نختطف الناس، سكارى ومتسكعين في الميناء.. كل من بدا لنا شخصاً ضائعاً وتعيساً. وقد أحضر السلافي والألماني إلى السفينة بعض ضباط المرتزقة الأجانب أو ما يسمونهم سرايا الغرباء، فقاموا يفحصوننا، يجسّون أجسامنا، يعاينوننا ويقيسوننا. وصدرت الأوامر أن لا نسأل عن اسم الميناء الذي نرسو به أو نقيم. ولقد أسكرونا، عفسونا، وجاؤوا بعاهرات الميناء. وهيئ إليّ أن ذلك استغرق دهراً بأكمله.. وهكذا.. حتى اشترانا، على ما أظن، بعض اليونانيين أو المالطيين.

«لمن باعوكم يا فيد زاكوراتس؟».

«من كل قبيلة النازحين المهاجرين تلك، التي بدأ أفرادها يتذابحون بين بعضهم البعض، تمَّ تكوين رتل جيد. كنا ثلاثين رجلاً. أخذنا الأمريكي، وكنا نناديه جوني. والذي لم يرغب حتى بسماع اسم السلافي، ذلك الذي اختفى من كتيبتنا بطريقة ما لها تفسير فظننا أنهم قتلوه. ولقد عشق الأمريكي أحد المجريين أكثر، والذي كان يفوق السلافي بفنون القيادة، والذي كان قد وصل كل شيء لديه إلى الضجر. هكذا.. وجدنا أنفسنا، ذات صباح عاصف جداً، على شواطئ كوريا. كانت الحرب مشتعلة هناك. فسلّمنا جوني للجيش الأمريكي، الذي غسلنا، وألبسنا، وأحذانا، وزج بنا مع الملونين السود في الصفوف الأولى. وكان الأمريكيون مشدوهين من شجاعتنا وفروسيتنا. هاجمنا، وذبحنا ذوي العرق الأصفر. بقرنا بطونهم، واقتلعنا قلوبهم. وكنت دائم البكاء. وكلما كنت أحمل النار من براكة إلى براكة أهمس، كما كنت أفعل في البلقان: اهرب أيها الشعب المسكين. اهرب. لم يفهمني أحد بالطبع. وخلال سنة أو سنتين قُتل الجميع ببسالة، فأخبروا ذويهم، وأرسلوا لهم الشيكات بالدولار، أو هكذا ادعوا، لكن فيد زاكوراتس التعيس الأسود لم يرغب الرصاص به!».

«وما الذي جرى لكم بعد انتهاء الحرب الكورية؟».

«جاء الأمريكي جوني، أحصانا، وشكرنا. وعزل المعطوبين وسلّمهم لشخص لا نعرفه. وباعنا نحن الأصحاء الباقين لأناس فيليبينيين أو يابانيين، لا أعلم. فحشرنا ذلك الرجل الأصفر على قاربه المعدّ للصيد. وأبحرنا، ولم نصطد الأسماك بل قمنا ننهب أرزاق الصيادين ونختطفها، ونسوق الغنائم إلى جهات مختلفة. كنا نختطف الناس، نوثقهم، وننقلهم ونبيعهم. لكن الرجل الأصفر باعنا جميعاً، نحن والقارب والعبيد، وكان

معظمهم كوريين ويابانيين، إلى رجل آخر أصفر أيضاً، صيني، كان يبحر باتجاه اندونيسيا. ولم يلبث الصيني أن باعنا إلى رجل أمريكي جنوبي كنا نناديه بالموسى. السنيور بالموسى. والذي كان يزجنا ناقلاً من قارب إلى قارب مرات عديدة. كان كل شيء ملكه!. كان لديه، إذا لم تخني الذاكرة، مئات العبيد، وكان مهرب أسلحة، مما اضطرنا للعودة إلى موانئ أستراليا وإندونيسيا ونحن نكوم ونشحن. وللأمانة لقد كان بالموسى صديقاً، لم يخف حقيقة عمله، وكان يكرع الكحول بشراهة، وأحياناً يشاركنا الشراب. لكنه كان يعاقب عدم الانصياع بغلظة. ويطلق على الرجل بنفسه، ما أثار حفيظتنا أكثر! ولكم كان أولئك الذين قتلوا بكرات خردقه سعداء..».

«وماذا حدث مع الباقين يا فيد زاكوراتس؟».

«كان يرميهم أمام أعيننا في البحر، تملّخ أجسادهم أسماك القرش، التي بدت سعيدة جداً بذلك وقد تلّون البحر بالأحمر يا سيدي! ولكم كان هو، السنيور بالموسى، سعيداً وهو يراقب نهش الوحوش لأجساد العاقين منا. ولكي يتحاشى أي ثورة منا تقوم على ظهر القارب فقد زرع الخوف في عظامنا، وبواسطة كلاب البحر ثانية! حيث كنا نوثق الرجل بحبل، نثبته جيداً، ثم نزلقه ببطء عن ظهر القارب للماء، فتملّخه أسماك القرش، التي هيّجنا أنفها المدبب بتحريك الرجل أمامها نغريها به، فتراها تثور مهتاجة مستثارة تلطم بأذنابها بقوة، وتهاجم.. وكان السنيور بالموسى عاشقاً لأسماك القرش، يقتلها، ويطلق عليها أسماء إسبانية. وحينما كان يكرع الويسكي حتى يسكر يصدر أوامره: تلطفوا بتلك المخلوقات الجميلة. وكنا نرتجف وهو يعلّق العبد بسنارة صيد قوية وينزله للماء. فترى سمكة القرش «آنا ماريا» تختطف الطعم وتشطره إلى قسمين، ويتلون البحر بلون وردي

أحمر! عندئذ يحتفل السنيور بالموسى صائحاً: هيا اذهبي الآن يا جميلتي «آنا ماريا» يكفيك ما حصلت عليه! ثم يسحب السنارة ويلقي بالطعم الآدمي إلى الجهة الأخرى من القارب، حيث تنتظر أسماك قرش أخرى: «لويزا، وروزالينا» يعطيها السنيور بالموسى ما تبقى من جسد العبد! ثم يكرع الويسكي ويهمس لنفسه، وليس لنا، بأننا أصبحنا على مقربة من سنغافورة، حيث سينزل بمفرده فقط، بحثاً عن طعام، وشراب، ونساء، وعبيد جدد بطبيعة الحال، والأهم، أولئك الذين لا يمكن أن يخطر ببالهم، التعساء والمشطوبون من سجل العائشين، ماذا يحمل ذلك القارب في جوفه...».

«متى شاهدت السنيور بالموسى آخر مرة يا فيد زاكوراتس؟».

«من حوالي ثلاث سنوات يا سيدي!» أجابني، بينما كانت يداه بدمامله المتحجرة ترتجف فوق المنضدة في الحانة، وأضاف: «وفي الممرات حول جوهانسبورغ كان يمعن في رمينا لأسماك القرش، ثم يولم. لكنه في أحد الأيام قدم «لآنا ماريا» رجلاً بولندياً اسمه تادوش. نظفنا القارب، وتأنقنا وأكلنا وشربنا، واستقبل رجلاً مطلوساً كلّه بالأبيض ولباس الأدميرال، بدا لنا إنجليزياً أو نرويجياً. تبادلا التحية، ثم سلّمنا له. ثم حيانا عن بعد ملوحاً بقفازيه الأبيضين، وقال: أديوس[1]. وابتعد مبحراً بالقارب الصغير. ولم نره بعدئذ أبداً. أعتقد أن القارب الذي أبحرنا عليه عشر سنوات بات صغيراً بالنسبة له.. وكنا ننادي المالك الجديد باسم تشارلز، الذي لم يشرب الكحول، وكان جدياً حدّ الموت. فأبحرنا معه حول إفريقيا، وأصبحت أعرف رأس الرجاء الصالح أكثر من مسقط رأسي ليكا، ولا تفارقني صور

---

١ - وداعاً.

تانجر ومضيق طارق أبداً يا سيدي. وكانت جيبوتي تشتعل بالمحاربين المرتزقة الغرباء. فنشحن لها الأسلحة، ونهرب المخدرات، والسجائر، والكحول. لم نترك شيئاً مشيناً إلّا وفعلناه. ومرة ناداني تشارلز لأمثل أمامه، وقال بلغة ما، هيئ إلي أنني أعرفها وأحبها، بأنني أصبحت مهزوزاً ولن يطول بقائي. وافقته، وقلت إنني انتهيت فعلاً. هزّ رأسه وكنت أدرك معنى ذلك: بحار أقل، عبد أقل، وأين ستجد بديلاً يا مستر تشارلز!. وبكيت. «اقذفني أمام «آنا ماريا» يا مستر تشارلز. ولم يدرك بالطبع أن هذا اسم سمكة قرش كبيرة، فضحك طويلاً من خلال غليونه: «أو اقتلني بالطريقة التي تحبها وتجيدها. لم أعد أقوى على فعل شيء. إنها النهاية» عندها سألني هذا المالك الشمالي للسفينة عن رغبتي الأخيرة. فقلت: الموت هو رغبتي الأخيرة يا مستر تشارلز. كنت أنتحب: الموت هو خلاصي، حريتي! فضحك ساخراً مني ومن أسماء أسماك القرش. وأذكر أن ذلك حدث حينما كنت أكثر رغبة بالموت، باحثاً عنه في ليلة عاصفة قرب الجزر الخضراء «لا تستعجل الموت أيها اليوغسلافي» وابتسم، حينما اقتربنا من صقيلية. هناك حيث حمّلنا بعض الأشياء، وكنا نستعد لسفر طويل. لكن الأقدار شاءت أن نبحر في البحر الأدرياتيكي الأسبوع التالي. «لم أعد أحتمل يا مسيو تشارلز» وانفجرت أبكي: «لم يعد بمقدوري الاستمرار، فإضافة لليأس يحتلني العيب أيضاً!» لكن المالك هذا لم يفهم المعنى وطلب مني أن أفسره له. كررت كلمة خيانة بكل اللغات التي أعرفها. عندئذ قال بأن النهاية ستكون جيدة. وقال إنه يعرف يوغسلافياً منذ أيام تهريب البنسلين والديناميت. وأمر أن يرموا بنا، نحن، أنا وجيكا بتروفيتش، على رصيف ميناء تريستا.

وتابع القارب إبحاره. فوقفنا أنا وجيكا بتروفيتش نلوّح لهم. وبكينا نحن الاثنان، ولهذا لم يعد بمقدورنا أن نلاحظ هل كانوا يلوّحون لنا..».

«ومتى حصل ذلك يا فيد زاكوراتس؟».

«قبل عدة ساعات يا سيدي. فقط قبل عدة ساعات».

«وأين جيكا بتروفيتش؟».

«هذا ما أسأله أنا أيضاً يا سيدي. أين رفيقي، صديقي من جيبوتي. الصربي ابن جلدتي؟!».

«وهل ما يزال مسقط الرأس جاذباً لذلك الصربي من مدينة نيش، الجندي السابق في سرايا المرتزقة الغرباء، ذلك العبد على السفينة؟».

«أجل مثلي يا سيدي!».

«وكيف ستتمكن في مدينة تريستا الكبيرة أن تجد شخصاً اسمه جيكا بتروفيتش؟».

«جيكا بتروفيتش هو المخلوق الأطول عنقاً، والأكبر رأساً من كل هؤلاء الذين يدبّون على أرض تريستا!» وضحك فيد زاكوراتس بمحبة، وأضاف بينما كانت الدموع تنفر من عينيه ورموشه ثانية: «وما يزال حبيبي جيكا يحمل في جسده عشرات الجراح منذ الحرب الكورية. هناك أضاع عينه! ولم يكن في كتائب المرتزقة الغرباء من هو أكثر منه دموية، أو أشجع، أو محباً للثأر. لقد ذبح رئيسه الفرنسي بأسنانه. حدث ذلك في دين بيان فو! ولا تنسى أن جيكا مشوه ومسالم، ولديه كماً فارغاً حتى الكتف. لقد كان السنيور بالموسى يهيّج به «آنا ماريا» حينما يربطه من قدميه وينزله برأسه في الماء. وكان جيكا يمدّ كلتا يديه كأنه يريد معانقة «آنا ماريا» التي استطاعت

قضم يده اليمنى، ورغبت بقضم رأسه. لكن السنيور بالموسى الرائع سحب الخيط في آخر لحظة! هكذا ستتعرف على جيكا حبيبي الصربي، أخي من السفينة، برؤيته وهو يشحذ باليسرى...».

عثرنا على جيكا بتروفيتش، الكوري والمرتزق على الرصيف، أمام الكنيسة الصربية الأرثوذوكسية للمبجل سبيريدون صانع المعجزات. لم يكن يشحذ، ولا يبكي، بل وقف بهدوء يتأمل الشعب اليوغسلافي المستعجل أبداً. وبدا كأنه بين أهله، وكان يلبس مثل فيد زاكوراتس وعلى طريقته وهيئته. كان حقيقة المارد ذا العين الواحدة.

«وهل يرغب جيكا بتروفيتش بذات ما يرغبه فيد زاكوراتس؟». سألتهما، وكانا الواحد بجانب الآخر.

«أرغب بما يرغبه فيد أخي من السفينة» قالها بهدوء، ذلك المهدود العملاق الأشيب فاقد اليد. «وبالطريقة التي قالها ورغب بها فيد زاكوراتس..».

عندئذ استخرجت الورق والقلم، مؤمناً أن الكاتب والأدب باستطاعتهما مساعدة المخلوقات التعيسة، وكتبت للقنصل اليوغسلافي في تريستا رسالة ما أزال أذكر سطورها بكل وضوح وحيوية: «الرفيق القنصل» بدأتها، وتابعت «أتوجه إليكم بصفتي كاتباً، ومواطناً، سيضع هذه الرسالة في النهاية، ويوقعها، ويسجل جميع أرقام وثائقه.. لقد قابلت اليوم اثنين من أفراد شعبنا: فيد زاكوراتس وجيكا بتروفيتش. سجل حياتهما رعب وفظاعة. ومهما بدت قصة حياتهما مختلفة فهي في حقيقتها ذات القصة. لقد وُجدا وأوغلا في طريق الخطأ، في الجحيم. أرجو استقبالهما، وسوف يقصان عليك، كما قصا عليّ ضياعهما لسنين طويلة، التسكع، الأسر والعبودية، ولكم يتمنيان الحرية. إنهما روحان راغبتان بالعودة إلى مسقط الرأس، ويصرحان بأنهما لا يرغبان بالموت في أي مكان آخر غريب. ولا بد أن تكون العظام بين أهلها، ويستمران بإهراق الدمع. ولا ينكر زاكوراتس ولا بتروفيتش أنهما مذنبان، غارقان في الإثم طيلة العمر، يا رفيقي القنصل. لكنني لن أدخل في درجة إجرامهما، ولا أن أحميهما من العدالة، بل أحميهما من الشر ونهايته الفاجعة. لهذا أرجوكم أن توفروا لهما إقامة نظامية في وطننا. وسوف يكونان هناك معروفين للجميع. وأنا على يقين أنهما سيجدان من

يلفظ كلمة السماح، وسوف يجدان من يهتم بروحيهما وعظامهما. وبالنسبة للأدب يا عزيزي القنصل فإن جيكا وزاكوراتس متواجدان في أعطافه! مع كل الاحترام، أثق بأننا سنلتقي ونتخاطب. المدعو فلان الفلاني.

التوقيع.

قرأت الرسالة أمامهما. كانا يهزان رأسيهما بالموافقة.. أغلقت المغلف، عنونته، ثم أوقفت سيارة أجرة. لم تكن القنصلية بعيدة. نقدت السائق، ورجوته أن يسلك أقصر طريق. ضحك الإيطالي: كأنه استوعب الحالات الثلاث جميعها!.

تحركت سيارة الأجرة من أمام كنيسة المبجل سبيريدون صانع المعجزات. وقد طوق الجليد قلبي. كنت هادئاً. وقد حياني هذان البلقانيان المشوهان والمهزومان والمهجوران بابتسامات ودموع. لوحت لهما.

وكلما نظرت أو فتحت رواية رجال بأربع أصابع، تلك السيرة الهيتشكوكية[1] عن النازحين والهاربين واللاجئين عموماً، أتذكر مأساة البلقانيين البشعة. وأحزن على جيكا وزاكوراتس لأنهما ليسا مع الباقين، بين درفتي ذلك الكتاب من حوادث الفظاعة والخوف...

---

١ - نسبة إلى هيتشكوك المخرج العالمي الشهير بأفلام الرعب. - المترجم -

II

إنهم يرغبون بالشتائم. وتعظيم المصيبة. «منذ متى تحمل الناس إلى ميونخ يا بن جلدتي؟»

في سنة الأزمة النفطية ١٩٧٤، بدت مدينة ميونخ، في أول يوم من شهر ديسمبر، وكأن جميع الأشباح والرياح القارسة قد هبطت فوق هذه المدينة الرائعة، وجمّدتها. كانت العواصف والثلوج قد غمرت الطرقات بتلال من البياض. ولم تستطع ناقلات السيارات سحب تلك السيارات المركونة خارجاً. وبدت شركة الناقلات التابعة لبلدية ميونخ عاجزة. كانت مرائب السيارات ومحطات الوقود والغسيل غاصة بالجماهير، الذين كانوا يتصايحون من خلال تلال الثلج غاضبين ثائرين، يشتمون بالألمانية، ويوقعون اللوم على بعضهم المذنبين.

كان الألمان يكيلون الملامة بشدة وكأنهم وحدهم، وليس من أحد آخر سواهم، قد وقع في درجة ٢٥ تحت الصفر. فيشتمون كل ما هو إنساني وغير إنساني، محشورين في محطات البنزين، وبالدرجة الأولى أولئك العمال الأجانب اليوغسلاف الذين فقدوا أعمالهم، الذين بكلمات أوضح قُذفوا على الطرقات المتجمدة، بدون إنذار مسبق أو فصل من العمل، أو تحذير حتى. فيجيب عمال المحطة هذا قانون قديم: لا بدّ أن يغادر العامل حينما تتوقف الآلة. حينما لا تنتج، وها هي لا تعمل لانعدام المازوت والبنزين. ومن نافلة القول الحديث عن العواصف. العمال الأجانب لا يفهمون هذه

المعادلة، أو أنهم يدّعون عدم الفهم. إنهم يفضلون الشتائم وتعظيم المصيبة. إنهم يتقبلون، يأخذون ويعطون، إنما ليس من قلوبهم المهانة.

كنت في ساحة شفا بينع بشارع جورجن. سيارتي معطلة. لا مساعدة من أحد. وقال العامل في محطة شل بأنه لا يوجد لديهم فرع للتصليح، وبأنهم قد سرّحوا هذه الأيام ثلاثة عمال ماهرين، يوغسلاف. ويعتقد أن أحدهم ما زال على رأس عمله في محطة داف، على الناصية. وتساءلت من أي مكان يجب أن أعبر الشارع، من أي نفق ثلجي. اقترب مني رجل: «هل تريد أن أقلك يا أخي؟».

«ولماذا تحملني؟» سألت ذلك الشاب الوسيم ذا الأصابع المتجمدة والوجنتين الخضراوين من الصقيع: «كيف ستقلني يا بلدياتي؟».

«كي لا تتبلل أنت ما دمت أنا قد تبللت هكذا. هذا هو السبب» قالها الشاب وكأنه يتحضر لتتعي[1] على كتفيه.

«وكم ستطلب مني لقاء عدة مئات الأمتار تلك؟».

«بصفتك رجلاً من شعبنا سأطلب ماركاً واحداً. لكنك لو كنت ألمانيا فلم أكن لأتحرك بأقل من ماركين اثنين».

«ومن أين تأتي تلك الفوارق في التسعيرة؟» سألته، وتبعته من خلال الشارع باتجاه محطة داف.

«الألمان لا يعرفون قول «صباح الخير»، حتى لأهلهم وأحبتهم، فما بالك لنا الجنوبيين».

«هل حملت أحداً هذا اليوم؟».

«نعم، اثنين» صرح مواطني. «على الأغلب من المطرودين إلى الشارع، من العمال الأجانب» وأشار بيده إلى البانسيون «رنجر» من حيث حمل أو اقتاد.

«ألم تشعر بالعيب؟».

«كلا لأنهما كانا إيطاليين، وهذا مواز تماماً لكونهما يوغسلافيين. أخذت من الأول ذلك المارك اللعين. ولم أرغب أن آخذ من الثاني قرشاً واحداً لأنه حيّاني بطريقة إنسانية وهو يقول سلافو.. سلافو.. سلافو..».

---

١ - حملي. - المترجم -

«ومنذ متى يا بن جلدتي تحمل الناس في ميونخ؟..».

«منذ أن طردونا من العمل. منذ أن أُغلقت في وجوهنا السبل. ولم أشعر بالعيب فالحمل أفضل من مهاجمة الألمان في الشوارع وسرقتهم. بعضهم هكذا يتدبر أمره يا صديقي! يقفزون داخل البيوت، يختطفون ويسرقون، ويغشون، ويسمسرون. يفعلون المشين والمعيب. السجون مكتظة باليوغسلافيين. بينما أحمل أنا وبعض الآخرين دون أن نكترث أبداً. فأي عيب وأي هبل... ففي هكذا زمن، أتعلم، الإنسان اليوم مجرد عبد.

«ماذا تقصد بالعبد يا بلدياتي؟».

«عبد بكل معنى الكلمة الواضحة والصريحة. أنا عبد لأنني أحمل رجلاً ما، وهو المحمول عبد أيضاً. جميعهم اليوم عبيد. هل تعلم أن كلمة عبد مشتقة من كلمة بضاعة[1].. وما دام الأمر كذلك فلا عيب في نقل إنسان من هنا إلى هناك. أليس أفضل من التسكع بين قرى بافاريا والتسلل إلى الاصطبلات والحظائر والخممة[2]، تسرق الدجاج، وتهرب من رجال الإطفاء، وهو ما يفعله المطرودون من أعمالهم وغير المطرودين..».

في محطة داف وجدنا الخبير، يوغسلافياً، عملاقاً بشاربين، عرض كتفيه متر، ولم يكن مطروداً بعد - اعترف لي صاحب المحطة - لأنه كان يعمل بقدر رجلين وبراتب واحد! - وقد وقف بجانبه ثلاثة يوغسلاف من ذات الاختصاص على الأغلب.

---

١ - عبد باليوغسلافية «روب»، وبضاعة «روبا». - المترجم -

٢ - خمّ = قنّ. - المترجم -

«إنهم أصدقاء وأبناء وطن واحد، رجال حقيقيون رائعون وماهرون» قال صاحب المحطة وهو يمسح يديه بخرقة وسخة «وقد سمحت لهم بتقاسم مكان عمل واحد. فالتسريح من الأعمال على أشده. واقترحوا عليّ العمل ثلاثتهم براتب واحد، وقبلت، كي أساعد الماهرين، الذين ليسوا مذنبين في طردهم من العمل، وليس مذنباً كذلك من طردهم...».

وقد عمل هؤلاء الأصدقاء، المواطنون السابقون، في ورديات. وانتظر أولئك الذين لا يعملون دورهم، وهم يتدفؤون ويعبثون بإبرة الراديو..

نقلت ابن جلدتي هذا بالسيارة إلى محطة شل للبنزين عند مدخل مدينة ميونخ من طرف سالزبورغ. كان لديه أصدقاء هناك، من مدينة نيش بيوغسلافيا. ولم يكن الصديق يعرف أنه من نيش، وأنه مطرود من عمله، وسوف يقصّ عليه كل ما سمعه وشاهده في محطة داف، وكأنه يفكر بصوت مسموع، وقد يكون بلدياته، النيشي ذاك، صديقاً مخلصاً، مثل ذاك من محطة داف. وحينما يطرد ابن الوطن من عمله فإن الآخر يخبره أن لا يتسكع، وأن لا يسرق في القطارات كما يفعل بعضهم. ويكشف أمامه اختراعه الفظيع في عتالة البشر، خصوصاً من أمام محطة القطار. هناك حوالي خمسمئة متر ما بين خط السكة الحديدي ومواقف سيارات الأجرة. وسيكون هناك من يرحبون بالحمل من سكة القطار أو من مدخل المحطة حتى أقرب فندق في شارع شيلر الشهير.

III

عجائب التهريب. عمالقة حليقو الرؤوس. مدفع صغير سويسري لا ينتر. كم هو شاسع وطن للا أحد؟. الكتائب..

أضخم واجهة مضاءة بشدة، هي أكبر ممر حدودي بين ألمانيا الغربية والنمسا، التي يطلقون عليها اسم شهرة «وطن لـ لا أحد»، واسماً آخر غدا أكثر شهرة «جنة المهربين» هناك على ذلك «الوطن للا أحد» وبالرغم من كثافة رجال الشرطة، وشدة الإنارة، وكل هذا العدد من رجال الجمارك وحرس الحدود، تحدث أكبر عجائب التهريب. هناك التفتيش الدقيق، الوثائق المزورة وغير النظامية، تأشيرات الدخول المتهية، جوازات السفر المزورة، والدموع. ولم يحدث أن عبرته مرة إلا وشاهدت المعيب والممنوع، وكان أبطاله - على الأغلب - من اليوغسلافيين. وكانت كل شاحنة براد، أو ناقلة ضخمة، تحمل لوحات تركية، أو سورية، أو إيرانية يتم توقيفها وتفتيشها بشكل دقيق ومخصوص. فرجال الشرطة، والمباحث، وخبراء الأنتربول المختصون بالمخدرات ينهالون على كل سيارة تصل من الشرق الأدنى. يشكّون بأي رجل أسمر البشرة. ويستعين هؤلاء الخبراء والمباحث في عملهم بالكلاب المدربة تتشمم السيارات الفارهة التي يأكل أصحابها الفواكه الجنوبية. فمن المعروف أن الرائحة الكريهة التي يطلقها صمغ المخدرات لا يمكن أن تغلبها إلا رائحة الفواكه الجنوبية المفرومة. حيث تذكرّك رائحة صمغ المخدرات برائحة معجون السيارات، أو معجون

الزجاج. ولن يكون مجدياً تغليف المعجون الوسخ بالسلوفان، ولا وضعه داخل الكونسروة، أو غيرها، فرائحة تلك البضاعة تنفر من أجساد المهربين، ويمكن لأي أنف بريء غير معتاد اكتشاف ما يسمى دموع الأفيون، فما بالك بكلاب الشرطة المدربة، التي تتشمم دواليب السيارات، العوادم، صاج الهيكل، المصدات واللبادات، بل والبطاريات. ويكون الأمر أسهل مع الحشيش الذي يتم تهريبه بشاحنات المواد السائلة. وتحمل قطع الحشيش الأفغاني، والباكستاني، والهندي، الأفضل، عادة، الرقم ٩٩٩، علامة لا شفرة لها تعبر عن حشيش من النوع الأول.

على ذلك الوطن للا أحد أو وطن المهربين يتم اكتشاف مواد المخدرات الأولية، غير المصنعة بعد. وليس سراً القول بأنه من مئة كيلو غرام من صمغ المخدرات، التي تطبخ، يمكن الحصول على عشرة كيلو غرامات من الكريستالات المخدرة، البيضاء الناصعة مثل ثلج ناشف، التي يضاف إليها - حسب الطباخ - حمض اللبن والأسيتون، وغيرها، بحيث ينتج من كل مئة كيلو غرام من المخدر النظيف حوالي ١٠ - ١٥ كغ من الهيروين. وكل مئة كيلو غرام من صمغ المخدرات ثمنها تقريباً بالدينار اليوغسلافي القديم ثلاثون مليوناً. بينما خمسة عشر كيلو غراماً من الهيروين، عندما تباع، يكون ثمنها ٥٠٠٠٠٠ دولار أمريكي. بينما يكون سعر الحشيش، الذي يُعتبر مخدرات طبيعية، والذي يصعب على الكلاب اكتشافه أدنى بكثير... وهناك، على ذلك الممر النمساوي الألماني، أُشيع بأن الكلاب المدربة لا تحب الحشيش جداً، وبأنها تفضل حبيبات دموع الأفيون الطرية القادمة من تيتوفو[1] إلى الغرب وبأنها مواد مرتفعة القيمة جداً.

---

١ - مدينة صغيرة في مكدونيا - جنوب يوغسلافيا. - المترجم -

بينما تخضع الناقلات المنطلقة من الغرب إلى البلقان والشرق الأدنى إلى تفتيش من نوع آخر، وعلى الجهة الأخرى من منطقة التفتيش، ولا يصطحب رجال الشرطة كلابهم، فناقلات المواد السائلة، والبرادات، والمقطورات، والكميونات، والسيارات الفارهة، تنقل بضائع تقنية، البضائع التقنية المحملة من بلدة أنت فربن، هامبورغ، أو ميونخ، تكون الأسلحة. ولا نقصد الأسلحة الخفيفة فقط. لقد وجدت بين الحواجز والجدران المزدوجة للناقلات التركية، العراقية، الإيرانية، الأردنية، قاذفات اللهب، مواسير الرشاشات الثقيلة، وجميع أنواع الأسلحة الأوتوماتيكية، والتي ما يزال «العوزي» سريع الطلقات، الإسرئيلي الصنع، أفضلها، والذي يشكل الجزء الأساس من تسليح الحلف الأطلسي، والمدافع السويسرية الصغيرة التي لا تنتر - والتي تم الحديث عنها برواية رجال بأربع أصابع بإسهاب.

إنها باختصار تلك الأسلحة التي تجذب بشدة اهتمام منتجي نبات الأفيون الأناضوليين والكرد، ومصنعي تلك الخلائط ذات الرائحة البشعة والثمن الباهظ، التي لم تعد حضارة الغرب تستطيع العيش من دونها. ولم يعد منتج الأفيون الأناضولي يذهب للتبول، فما بالك للتغوط، من دون رشاش ثقيل، من دون عوزي، من دون المدفع السويسري الصغير. ويحكى أن أناضولياً تركياً جاء إلى ميونخ ليشتري قنبلة ذرية. سألوه ما لزومها لك؟ قال كي أحمي مزارعي الأفيونية. فشرحوا له خطورة القنبلة الذرية وغلاء ثمنها. فقال أعطوني إذاً واحدة صغيرة! وصاح بأعلى صوته، فأنا لا أستطيع العودة إلى الأناضول من دونها، والتي، لن أكذب عليكم، أرسلوني من أجلها». إن المعلومة القائلة بأن الكثير من حقول كرات الأفيون في الأناضول مكللة بسلاسل من الديناميت هي مقولة صحيحة...

إن كل إنسان قرأ خفايا الجريمة وتحليلاتها، وتابع أعمدة الأخبار الشرطية في الصحافة الأوروبية الغربية سيعرف أن قعر سيارة المرسيدس يتسع لمئة مسدس فالتر عيار ٧.٦٥، ومسدس بيرتا، وبراونينغ أو السكوربيون التشيكي، الذي يتفوق في مبيعاته على الجميع، والأكثر طلباً. أجل فقعر المرسيدس يتسع لمئة مسدس أو عشرة آلاف طلقة في صناديقها الصغيرة التي يتسع الواحد منها لعشرين قطعة. ولقد وجد في الجدران المزدوجة لناقلات الأغذية والبرادات عشرات الآلاف من البنادق الذاهبة من دول أوروبا الغربية إلى دول الشرق الأدنى. بنادق متنوعة، أغلبها أوتوماتيكية أمريكية الصنع، تلك التي يسمونها «الفيتنامية» والمعروفة في الصحافة باسم «M - 16». تلك العجيبة من بين الأسلحة التي تطلق في الدقيقة الواحدة عدة مئات من كرات الرصاص. وعثر على مسدسات من

جميع الأنواع والأشكال التي تنتجها اليوم معامل الغرب والشرق، خصوصاً الأوتوماتيكية، أو التي يمكن طيّ مقبضها، مسدسات كولت بماركات عالمية كثيرة ومدى مختلف، والرشاشات، ليس فقط العوزي، إنما الصينية، واليابانية، والكورية الموجودة والمباعة في مدينة بروكسل، أوسلو، وميلانو.. لا يهم. أما الذخيرة فتذهب بالأطنان مخبأة في العسل الهولندي، والمربى الألماني، والجبنة الدنماركية. أما البندقية الروسية الأوتوماتيكية المعروفة في الكاتالوجات نصف السرية باسم كلاشينكوف التي تباع بكميات أقل من الفيتنامية «M - 16» فإن ذخيرتها تصنع في بلجيكا وسويسرا! ولا بد من التذكير أنه في عالم تحت الأرض في أوروبا الغربية تعتبر الأسلحة التشيكوسلوفاكية مطلوبة جداً ومحترمة. خصوصاً مسدس سكوربيون الأوتوماتيكي ونصف الأوتوماتيكي. وتنسج الأساطير حول مسدس ستشكين الروسي الصنع وحول الأسلحة الإسبانية والسويدية كذلك، على الأغلب، بسبب سعرها المتدني. ويذكر البعض أخباراً عن آلات تعذيب إفريقية جنوبية، والتي لا أستطيع ولا أجرؤ على التكلم حولها لسبب بسيط حيث الكلمات لا تسعفني. وتذكر أسماء بعض السكاكين، المشهورة منها، صدقوا أو لا تصدقوا، السكين الفلندية، والتي ذهبت مثلاً حينما يقولون «قضى عليه بالفلندية!». وإضافة إلى الأسلحة تلك، والتي تكلمت عنها في رواية رجال بأربع أصابع، يتم شحن كميات هائلة مذهلة من المتفجرات من الغرب إلى الشرق، من الديناميت، والتري نترول، والألغام، كل ما يبيد ويحطم، فأحدهم مجبر حتماً على تمويل الإرهابيين، زارعي الألغام والعبوات الناسفة، القتلة المأجورين، مفجري الجسور والمنشآت، ناسفي حقول البترول، وناطحات السحاب، والطرق، وقنوات المياه، وأبنية البريد. ولكم

تمَّ اكتشاف القنابل البلاستيكية والألغام وآلات النسف الجهنمية الأحدث والأكثر تخلفاً، صناعة يدوية، مسحوبة من مواعين العسل، من أوعية الأجبان والزبدة، على تلك الجهة الأخرى من وطن لـ لا أحد. عدا عن أجهزة الرادار المكتشفة والمهملة. ولا بدّ من التذكير والتركيز، مع الأسف، بأن الناقلين اليوغسلاف ليسوا بريئين، وأننا نحن أيضاً أبطال حوادث أوروبا السوداء، المقبوض عليهم على حدود أخرى وليس في هذا الممر فقط وإفرادياً، بل بصفتهم يوغسلافاً شديدي الأناقة والمظهر الحسن، وللعجب، المذكورة أسماؤهم وكنياتهم بطريقة متسلسلة، ألف بائية، بجانب أسماء الأتراك واللبنانيين والإيرانيين، المكدسة في مكاتب الأنتربول الأنيقة والدقيقة. حتى إذا احتاجوها يوماً ما سهل عليهم سحبها وعرضها. ولا تغصّ القوائم بأسماء الناقلين اليوغسلاف فقط بل بأسماء سائقي السيارات الخاصة، بل وسائقي السيارات ذات اللوحات الحمراء بسبب هذه الأسلحة المشؤومة والتي تكلّف أحياناً أبهظ الأثمان.

سنتجاوز للحظة ما «وطن لـ لا أحد» تلك البقعة المشؤومة والساحرة من خريطة أوروبا، فاغرة الشدقين المتعطشة لبلزاك، وزولا، وهيتشكوك، ونذهب إلى اليوغسلافيين الذين قابلتهم هناك ذلك اليوم الجليدي من شهر ديسمبر، سنة الأزمة المشؤومة من عام أربعة وسبعين.

كانوا عشرة رجال استلقوا على أغطية خشنة ووسائد ريشية، مصطفين مثل جثث قرب مشعات التدفئة المركزية في محطة شل للبنزين. كانوا نائمين بصورة استطعت فيها التحدث عنهم بصوت مسموع مع عمال مضخات النفط والبنزين. بدوا كالموتى. وكان عامل مضخة البنزين يقفز من فوقهم، يركلهم ويشتمهم مغتاظاً:

«سيرسلني هؤلاء إلى مشفى المجانين. هؤلاء اليوغسلاف الفظيعون، هؤلاء الغيلان الذين يستحيل طردهم..».

سألته «منذ متى هم هنا؟..».

«منذ أسبوع كامل. تصور» قالها متحسراً، وأضاف «وبعضهم من قبل ذلك».

«كأنهم يقيمون هنا؟».

«إنهم يخرجون، يتثاءبون ويتمططون ويسعلون. يتحادثون مع المسافرين المستعجلين نحو الجنوب. يعرضون خدمات لا يستطيعون الوفاء بها، يهرجون، باختصار يتسولون، ثم يعودون بعيون مليئة بالدمع والصقيع، ويرتمون هكذا حيث تشاهدونهم، ويشخرون، بحيث تصل أصوات شخيرهم إلى سالزبورغ...».

«ألم تستنجد بالشرطة؟.. سألته بصوت ينضح مرارة.

«الشرطة دائماً هنا، ليس بالضرورة استدعاؤها» أشاح الألماني بيده، ويجوز أنه نمساوي، لا أعلم. لقد تواجدت جميع أنواع الشرطة هنا، ولم يستطع أحد فعل أي شيء لهم. الشرطة لا تستطيع طردهم من أرضهم، أرض «وطن لـ لا أحد». واليوغسلاف قبيلة عجيبة الذكاء والفطنة: حينما تأتي الشرطة، أية شرطة كانت، يقولون إنهم ينتظرون أحداً ما. وإن هؤلاء الذين ينتظرونهم أناس مهمين جداً. جداً. وحقيقة ينتظر اليوغسلافيون هنا: لكني أتساءل من؟..».

«قد ينتظرون نهاية الشتاء؟».

«إذا كان الأمر هكذا، اعذروني، سأذهب قبل وقتي إلى مشفى المجانين» قال الألماني بأسى وهو يحاسب أحدهم، وأضاف «ويمكن قبل حلول الفجر».

«وهل يحتال هؤلاء اليوغسلاف على أحد؟...».

«بكل أمانة يتم الاحتيال علينا جميعاً» همس عامل المضخة بصدق «وهل يحتال عليهم أحد؟ لا أعلم. ولماذا لا ما المانع؟..».

«وهل يشتريهم أحد ما داموا معروضين بهذا الشكل؟».

«يحصل ذلك أحياناً. اليوغسلافيون أسعارهم رخيصة، مع أنهم بضاعة ممتازة وعملية. فاليوغسلاف لا يملكون أيدٍ وأرجل فقط بل رؤوساً أيضاً. ولقد تأكدنا نحن الألمان أن رأس اليوغسلافي ليس كرأس التشيكي، وعلى الأخص ليس كرأس السلوفاكي!».

وكان المسافرون من آسيا الصغرى، الناقلون، السياح، يتسكعون حول ناقلاتهم وبراداتهم الضخمة وحول أكثر السيارات الأمريكية رفاهية. ينتظرون التفتيش متباعد بعضهم عن بعض، كلما تعلّق الأمر بأشخاص من الشرق الأدنى، الذين يقشرون البرتقال عادة والموز واليوسفي وهم واقفون على ممرات كهذه. وكانوا يحومون ويتبادلون الأماكن حول المراحيض، يتبولون حيث لا يفعل ذلك أحد، فيثيرون حفيظة عمال مضخات الوقود «الرجال البيض» العاجزين تماماً أمام تخلف حضارة ثأرية أو مجموعة أناس منهم وهبوا أنفسهم للتهريب، لعبور المخدرات والأسلحة، وهم يصرخون يا رجال الشرطة.. يا رجال الشرطة.. يا رجال الـ.. ش..ر..ط..ة! لكن هؤلاء الشرقيين المربوعين، قصار الأعناق كانوا ينظرون مرعوبين إلى اليوغسلافيين المستلقين مثل جثث حية بجباه مستنفرة، وأرجل متصالبة،

وأيد ملقاة كيفما اتفق. ولا أحد يعلم أية فائدة يمكن جنيها من تلك الأجسام الضخمة العائشة بصعوبة، ذات الروائح التنة الملقاة على الأرض. كان الشرقيون يحومون ويتدافعون حول المرحاض مليئين بقشور الفواكه الجنوبية، والأسمال، والحقائب التي لا يريدون عرضها على ممر كهذا، المليئة ببضاعة يدّعي مالكها أنه لا يعرفها، تلك البضاعة التي سيأتي رجل آخر، يصل لتوه من سالزبورغ، كسائح بريء، والذي بمقتضى اتفاق مسبق سيحملها من المكان المتفق عليه. وهنا تبدو الشرطة عاجزة: ففي المكان الذي كانت الحقيبة به، التي حملها رجل الأمن منذ ساعة أو ساعتين سيجدون لفّة تفوح منها روائح نتنة، حقيبة السائح المدهونة حوافها بالغائط كي لا يتمكن الكلاب من تشممها أو سحبها. فلا يبقى أمام الشرطة إلا طرح السؤال: هل لديك شيء.. أو ما شابه. وأن ترتجف وتتجمد، أن تشتم في دواخلها، وتبتهل لدمار هكذا عمل على وطنٍ لـ لا أحد». سألت عامل المضخة الذي كرر أكثر من مرة أن هؤلاء اليوغسلاف هم أرخص بضاعة وأكثرها ضرورة واستعمالاً، إنما الأكثر عرضة للعطب. سألته بشكل أكثر من مباشر:

«وأية فائدة من هؤلاء اليوغسلاف تجنيها؟».

«في التجارة كل شيء مفيد!» ابتسم، وأضاف «ما يتسولونه من العابرين، وهم يوغسلاف على الأغلب، ذاهبون للشمال صوبنا، أو للجنوب صوبكم، وكل ما يسرقونه، أو يختطفونه على ظهورهم، يدعونه هنا عندي. يسحبون من آلاتي الأوتوماتيكية السندويش الذي أعددته، يشربون قهوتي، والشاي، وجميع المشروبات التي هي ملكي. ويستعملون آلات الغناء الأوتوماتيكية العائدة لي أيضاً، وآلات اللهو، بمعنى أدق حتى

اليوغسلافيين أنفسهم هم ملكي. ولو لم يكن الأمر كذلك لكنتُ منذ زمن بعيد في مشفى الأعصاب..».

«ولماذا ربطتم لهم تلك الخرق البرتقالية؟ ما داموا ليسوا غاسلي الطرقات ولا جامعي القمامة، وإنهم، كما صرحتم بوضوح: قبيلة ذكية وفطنة..».

«يخرج اليوغسلافيون طائشين من غير حرص، فيتعثرون، ويقعون حيثما اتفق» قال محدثي متنمراً «يحب اليوغسلاف إشعال المصائب! والمسافرون منهم متعبون، يغالبهم النعاس، أضف إلى ذلك هذا التجمد اللعين. ولقد التهم الموت بعضاً منهم تحت العجلات. لهذا لا بد لليوغسلافي أن يضيء! ونحن كما ترى نفكر بيوغسلافييكم ويوغسلافيينا!. واعلم أنني أقنعتهم بصعوبة بالغة كي يتواجدوا على ذلك الشريط المضاء، وبتلك الخوذات البرتقالية. ولم يقتنعوا. تصور!. وقالوا: هذه ليست حرباً ولا استعماراً! وضحكوا بتهكم وهم يقولون لي: لستم أنتم بعد اليوم عندنا بل نحن عندكم. وواضح ماذا يعني ذلك. ولمعلوماتك فقد بدأت أفهم..».

تمطى أول يوغسلافي استيقظ لتوه، وخرج كسولاً، ووقف يعاين عجلات ناقلة براد ذات الثلاثين طناً من آسيا الصغرى. كان من زغرب. يقيس بعينيه سفينة الطرقات تلك، والتي لا يعلم إلا الله نوع حمولتها. وقال بعفوية لي:

«لاحق ما تيّسر أمامك. هذا عمل أيضاً. كيف لا..».

«فرصة العمر، إذا لم يقبضوا عليك».

كنت على يقين أنه عامل صحية سابق أو ميكانيكي سيارات. قام هذا الزغربي يقدم لي الرجال الباقين: كان الرجل الذي رقد بجانبه من بلدة بانات، من المسقط الأم. وأخذ يعانق العملاق الذي كان يستفيق بصعوبة.

وكان الرجل الراقد بقرب الباناتي ذاك، الذي لم يحلق ذقنه منذ شهر، ولم يغتسل يعلم الله منذ متى، وبالحكم على لهجته يمكن أن يكون من الهرتسك، أو من الجزء الشمالي من الجبل الأسود، يهذي قائلاً بأنه سيجد الرجل البوسني الذي أوقع به، وغشّه. فلا طريق آخر للجنوب غير هذا الطريق، واعداً أن «علياً» الذي سرق منه كل شيء، ثم وشى به، لن يحمل رأسه، رأس عامل البناء، على كتفيه بعد اليوم. كان يرتجف، وعيناه زجاجيتان كمرضى الشيزوفرنيا. ترى كيف بدت عينا عليّ؟.

استيقظ اليوغسلافي الآخر بجانبه، عملاق، حليق الرأس الضخم والعنق الطويل، بهيئة سجين سابق، لكن صوته ونظرته كانا رقيقين كرجل مرهف، ينبئني حدسي بأنه كان من الحدود البلغارية اليوغسلافية. سألني:

«أيها الأخ. لعلك تشتري؟».

«ماذا. أشتري ماذا؟» واتجهت صوبه: «الرجال؟».

«إكسه، واحذه، واطعمه، ثم قُدْهُ» قال الحليق وأضاف «كن عَرَّابَنَا! وستَتْبَعُكَ نحن صبيانك بالمعمودية»

«ألكي نشكل سرايا؟» واستدرت إلى العملاق طويل العنق.

«باتوا يطلقون على ذلك منذ زمن بعيد اسماً آخر» صحح لي، وأضاف «اسمها كتائب. ولن نكون لصوصاً أو خاطفين أو قاطعي طرق، بل أولادك بالمعمودية يا عرابنا، عناصرك الوفية..»

«وهل سنهجم على البنوك أولاً أم على مكاتب البريد في أطراف المدن؟ أم على المولات والبراكات؟ أم على محطات البنزين الشبيهة بهذه؟..».

«أنت خطط ونحن ننفذ» قال الزغربي.

«وإلى متى سيستمر ذلك أيها اليوغسلاف؟».

لم يفهموني، ولهذا لم يجبني أحد. وددت لو أقول لهم، بأنني أعرف رجالاً آخرين باتوا من دون عمل، فلا ييئسوا ولا يخططوا للسرقات والخطف، بل والقتل. كيف يمكن عرض ذلك كله في منتصف ليل يوم قارس البرودة. وكيف سأكون مقنعاً وأنت تعلم أنني بمجرد إصلاح السيارة سأنهب الطريق باتجاه الجنوب... إلى الأخوة والأصدقاء الذين ستحزنهم تجربتي وقصتي المريرة هذه. شرب كل منا كأس شاي من ماكينة الألماني، وقضم سندويشاً، ثم افترقنا كأناس عرفوا بعضهم منذ زمن طويل.

كان الرجال ذوي الأربع أصابع واقفون على أقدامهم، وجاءت الريح بثلج ناشف، بجانب ناقلة براد تركية. كان أبطالي الروائيون يضيئون. يشبهون قشرة برتقال ضخمة. ثم حجبتهم الثلوج.

IV

قاطع الطريق. اقذفه للجنوب أو بعه!
كم اسماً لديك؟

لاحقتني الأمطار التي يسمونها «أطلسية» حتى دسلدورف. تخترق سيارتي التعيسة بيجو ٣٠٤ الطريق خلال حبائل الأمطار، التي لا أجد كلمات مناسبة لوصفها. لقد وجدت المياه طريقها لداخل كابينة السيارة حتى تبللت يداي والمقود، وتجمدتا. وعندما مررت بجانب مدينة فرانكفورت، شاهدت بعض السيارات المدمرة، المدعوكة جداً مثل أكرديون. كان الممرضون يسحبون الجثث والجرحى وقد تحولت حبائل الأمطار إلى سحب خطرة لم تمكنني من قراءة اللافتة التي أشارت أنني وصلت إلى الطريق الدولي باتجاه ميونخ. وهناك تواجد العديد من الرجال بصدارات تمريض مدماة في مواضع عدة من الطريق. وقد صرح المذيع في الراديو بأنهم لم يشاهدوا طقساً سيئاً كهذا في هذا الجزء من ألمانيا أبداً، وحذر السائقين بوجوب التوقف وانتظار تحسن الطقس. وقد اختلط صوت المذيع المرعوب بماء المطر الواصل إلى الأبواب، حتى سرسبة الظهر، بل حتى الأفكار السوداء أحياناً، تمازجه أصوات رجال عسكريين من الجيش السابع الأمريكي، الذين لم تعقهم هذه العاصفة، والذين لم يكونوا يتكلمون عن الدماء والجثث، بل كانوا، مثل المذيع، يذيعون سكتشات حربية، ويضحكون. وسمع صوت موسيقى جاز.

عندئذ لمحت في المرآة الخلفية سيارة قوية بيضاء تتبعني بإصرار. ولم تتوقف الأمطار الخفيفة بالرغم من انتشار الضباب الذي غطى الأشياء

وسوّدها. فأيقنت أن المرسيدس تحمل لوحات مدينة فرانكفورت. أعليت من السرعة حتى ١٤٠. لكن المرسيدس ٢٥٠ أضاءت أنوارها القوية، وأعطتني إشارات سمعية جعلتني أقترب من الطرش. وابتدأت تعبرني وتفرمل أمامي. ومن خلال الستارة المطرية الكثيفة ظهرت أمامي يد تأمرني بالتوقف عند أول موقف متاح. لم أستجب، عندها ابتدأ الرجل وراء مقوده، والذي لم أستطع تبين ملامحه يلعب لعبة الموت. لقد سارت المرسيدس للحظة من خلفي، وللحظة بموازاتي، وأكثرت من تعرجها الخطر حينما كانت تسير أمامي. تجمدت خوفاً. خففت السرعة وتوقفت في موقف عريض أمام محطة بنزين شل. بجانب ناقلات البرادات التركية واليونانية، التي وقف من خلفها بعض الرجال.

توقفت المرسيدس ٢٥٠ بالضبط عند بطن سيارتي البيجو. وخرج منها، من البابين، رجال سمر أشداء شابهوا المختطفين. وتسحّب الرجل الأخير بصعوبة طويلاً.

«لماذا لم تتوقف يا لشمسك الحقيرة» صاح الأول، ذلك الذي حسبت أنه كان وراء المقود.

«ألا ترى الموت ماثلاً للعيان؟!».

«توقفت» قلت بهدوء، مراقباً كيف يتراكض أولئك المشوربون بأرجل معوّجة أمام ناقلة البراد التركية: «ماذا تريدون مني؟».

«أن تقف. أن لا تتحرك» صاح الآخر.

«ماذا تريدون مني؟» كررت غير خائف من صياحهم وعبوسهم.

لم أستطع تحديد هوياتهم من مجرد اللهجة. لكنني ظننت أن الأول يوغسلافي دلماتيني، والآخر كأنه يخطف بلسان درماتوري، أو من مدينة

ليك. وكان الثالث صامتاً كمن يتهيأ لقول شيء مهم، وقد أعاقه عن ذلك الرجلان الآخران، اللذان لم يكن لهياجهما نهاية. كانت الأمطار تنهمر، ومرت لحظات طويلة ومريرة، وأنا أبحث بناظري عن الأتراك. وصلت ناقلة براد ثانية تدوس عجلاتها في برك المياه المتشكلة.

«لحظات وكدت أطلق النار على عجلات سيارتك» هدر الرجل الأول وكأنه لا يصدق أنني توقفت «هل تفهم..؟ هل تعلم ما كان سيحدث لو أنني أطلقت على لوحات سيارتك البلغرادية ثم إلى الأسفل قليلاً؟».

«سأستدعي الشرطة إذا لم تبتعدوا» قلت بهدوء.

«استدع من تريد، لكن استلم الهدية أولاً، والتي لن نتركك بسلام إذا لم تستلمها» تابع الرجل الأول، السائق على ما يبدو. «هدية من تلك التي لا يمكن الحصول عليها كل يوم.. في هذه الألمانيا المفجور بها..»

«شكراً للهدية» قلت، وأضفت «تابعوا!».

استل الرجلان الثاني والثالث جسداً آدمياً صغيراً مدعوكاً. كان ثلاثينياً، سكران، نحيف البنية، عبرت عيناه عن خوف ورعب واضحين، عن فظاعة وجنون. نثر على جسده معطفاً من النايلون، وقبعة، وجزمة. وقد «جعلك» كمّي معطفه وضمهما بشدة حول كيس يملكه. وقد ارتجفت شفتاه، وارتعشت تفاحة آدم في عنقه. وكان خداه محفورين، ووجنتاه متورمتين ومكدومتين.

«هذا المخلوق لم يعد يلزمنا. لهذا نهديك إياه» قال الأول «وافعل به كلّ ما يخطر على بالك شريطة أن لا تراه أعيننا ثانية!».

«اقذفه إلى الجنوب.. ما دمت حزيناً عليه هكذا!».

سألته «من أنتم؟» وكنت أراقب شخصاً آخر لم يكن من ركاب المرسيدس «من أنتم ما دمتم تهدونني إنساناً؟».

«ماذا تظن أنت، من نكون؟».

كان الأمر واضحاً بالنسبة لي من يكونون، وماذا يريدون. ضبطت نفسي وقلت من خلال ابتسامة:

«بلدياتي على كل حال».

«فقط قطع البطاطا هي بنات جلدة واحدة» تبجح الرجل الأول.

«باختصار: يوغسلاف» فردت طولي، وأنا لا أخمن حدود الغضب الذي سأثيره عند الرجلين.

«يوغسلاف سابقون» هدر الرجل الأول، وهو يدفع الرجل السكران باتجاهي.

«سابقون أم غير سابقين.. كله واحد».

«نهديك هذا العبد!» تهكم الرجل الأول.

«يمكنني الذهاب من دون العبد» قلت ممسكاً باب السيارة «هذه السيول..».

«لولا هذه السيول لتوجب عليك أن تدفع لنا ثمن هذا العبد ١٠٠ مارك» قال الرجل الأول، وأضاف «أما والحال على ما هي عليه خذه دون أن تدفع فلساً واحداً، وقده معك»

«أيها الرجال ماذا سأفعل بالعبد؟.. صرخت بأعلى صوتي بينما كانوا يتجهون صوب سيارتهم.

«هذه مشكلتك أيها العجوز» قاطعني الرجل الأول وهو يفتح باب سيارته «لم يعد ملكنا». وتحركت سيارة المرسيدس، وغابت.

«ماذا سأفعله بك؟» سألت هذا الفقير بجانبي بينما كنا نتابع طريقنا باتجاه ميونخ.

«أنا عبدك الآن. فافعل ما يحلو لك» ابتدأ الرجل الذي ملأت رائحة زنخته السيارة.

«أي عبد أنت؟».

«عبد بالمهنة!» قالها بثقة ومن دون خجل: «حتى ليل البارحة كنت ملكهم، والآن تملكني أنت. وسوف يتملكني رجل آخر من بعدك. وهكذا دائماً! مهمتي عدم الاعتراض. الطاعة دائماً، التنفيذ. لا يوجد في قاموسي: لا أريد، ولا أستطيع! وجزاء الأولى والثانية كرة رصاص في الجبين. وهذا عدل!».

«وماذا تنفذ؟».

«مهمتي أن أغش، وأسرق، واختطف. أن أحمل وأُحضر.. فقط أن أُحضر كي تملك أنت أكثر من جميعهم».

«وما هي مهماتك الأخرى؟».

«أعمل من دون أية مكافأة!» تابع «تكفيني قشرة خبز، قدر من الحساء، بعض البطاطا المشوية! والأحبّ إلي الجزر الألماني. وأريد زجاجة نبيذ قبل الانطلاق، قبل الهجوم. أكون أكثر شجاعة وأقل تمحيصاً عندئذ. عندما تتعكر أفكاري يمكنني اختطاف أبي ذاته!».

«وما هي المدة التي قضيتها عند هؤلاء الثلاثة؟».

«عدة أشهر».

«لماذا لم تستمر؟» سألته.

«لقد استُهلكت. قالوا لي: لقد وجدنا من هو أكثر طزاجة. وأنا أصدقهم».

«وما الذي فعلته عندهم؟».

«أنا في الحقيقة قاطع طريق» قالها بسرعة وحيوية، وبشكل لم تعد فيه رائحته النتنة تثير إقيائي.

«اختصاصي الحقيقي هي الموتيلات[1]، محطات البنزين، خصوصاً محطات شل. ولا تسألني لماذا، لأنني لا أعرف الجواب. الكراجات، ورشات إصلاح السيارات، مخازن السيارات. لا يوجد أي نوع من أنواع السيارات لا أجيد سرقته أو تشغيله وسياقته، أفعل ذلك في ثوان. أستخرج من السيارة الراديو بينما تشرب أنت السيجارة...».

«وماذا فعلت أيضاً؟».

«أقتحم البيوت، الفيلات، المكاتب. أعرف مكان النقود غريزياً، ومكان دفاتر الشيكات، الوثائق المهمة، الأوراق. بعدئذ يتصل مالكي ويعرض الأشياء، شيئاً بعد شيء، ويبتزّ بالطبع. إذا لم أعثر على تلك الكنوز الصغيرة، استخرج اللوحات وأنزع الصور العائلية من الجدران، كل ما هو مؤطر ومذهب. آخذ التلفاز، والراديو، والترانزستور، البرادات، أواني المطبخ، الخرق!. حينما تقتحم بيتاً لا بدّ أن تنظّفه تماماً، تأخذ كل ما فيه، وباحترام، وإلّا تكون لا شيء ولا أحد. ولن يعودوا يرغبون بك في العصابة. ولقد كنت مطلوباً دائماً، يختلفون من أجل الحصول عليّ، حتى وقت قريب، حينما ابتدأت يداي بالرجفان. كنت آخذ مفروشات الأسرّة، الثياب، الأحذية،

---

١ - الفنادق الصغيرة على الطرقات. - المترجم -

الأقفاص، الهررة والكلاب، النظارات، الصحف القديمة. كل ما يمكن بيعه أو رميه على المزابل، ملك يدي!».

«أهذا كل شيء؟».

«كنت لمصلحة أولئك الثلاثة، ولعدة أشهر أهاجم بيوت العمال الأجانب وبراكاتهم. ذهبت إلى كل مكان يعمل به ويقيم عمالنا، وأسرقهم، وأختطف أولادهم، خصوصاً الأطفال، أطفالهم. لماذا لا تفهم؟! تختطف ابنه، ثم تبتزه. تنتظر أن يحضر لك ما جناه في نصف عام. وأرهبتهم بطرق أخرى أيضاً. مثلاً جمع تبرعات للكنيسة، وفي حياتك لا تذكر أيها. تبرعات لصندوق المساعدات. من غير أن تذكر أيها ولمن تتبع، للاشتراكات في صحف لن تصدر أبداً. تبرعات لإنشاء نوادٍ للموسيقى، للرياضة، لكرة القدم. وكل من لا يدفع يُطرق باب بيته بعنف عدة مرات، فيدفع. يتراجع ويدفع. تسمع البكاء، فتعلم أنهم يسحبون القرش من أفواههم ليعطوك. ولن يكون الأمر سهلاً بالنسبة لك. لكنك مجبر. فإذا لم تحضر ما هو مطلوب منك فسوف يبصقونك ويبيعونك لمن هم أعنف منهم!»

«ألم يخططوا لهجوم ما على القنصل؟».

«كيف لا.. كيف لا..» ثار مرافقي. وغزت خديه المحفورين حمرة حياء. نظر في عيني بحدة كمن يبحث عن شيء. ولا أعلم ما الذي يمكن إيجاده بهما في تلك اللحظة. ثم عاد للتعداد والبوح: «لقد دربوني مع شخص آخر على لفّ الأسلاك وفردها، جربنا الديناميت، تسلقنا بعض المشبهات باعتبارها جدراناً حقيقية، أطلقنا، وكنتُ الأسوأ. ادعيت كذباً بأنني لا أفهم، بأنني لست في وضع يؤهلني لطعن القنصل بالسكين. كان الدم

يضرب برأسي دائماً. لاحظوا ذلك، وكما رأيت بنفسك اقتادوني إلى الطريق الدولي، وتبرعوا بي لأول من صادفوه.. وقلت لهم..».

«ماذا قلت لهم؟».

«بأنني سأرمي القنبلة على نفسي قبل رميها على القنصل!».

«وبماذا أجابوك على ذلك؟».

«عفسوني بالنعال. أحصوا أضلاعي. شتموا أمي اليوغسلافية» تابع مرافقي وهو يبكي بصمت: «لماذا أمي. ولماذا اليوغسلافية؟. سألتهم. فعادوا إلى ضربي وركلي.. خذ.. خذ.. خذ.. ما دمت لن تهجم على القنصل! كانوا يقفزون من فوقي، ويبصقونني، ويشتمون كل حي وكل ميت يخصني. سنرميك للخنازير! كانوا يصرخون، ولم أكن أفهمهم. كنت مغموراً بالدم. ألا ترى الثقوب في وجهي؟ كانت الكدمات تملأ جسدي والذل... لكنني لم أمتثل!».

«من أين أنت وما هو اسمك؟».

«من حوالي نيكشيتش، لكننا انتقلنا إلى فويفودينا بعد الحرب مهاجرين. واسمي بوديمير دوشان».

«كم اسماً لديك؟».

«بعدد الكنيات!» ابتسم مفترّاً عن أسنانه الثرمة خلال الدمع، مقتنعاً أنه بصحبة رجل يفهم حقيقة المسافرين.

«أرني الإثبات يا دوشان!».

«إليك.. إثباتات عديدة» وتابع بكاءه.

فعلى إحدى الأوراق الصادرة في النمسا عن أحد مجمعات النازحين الهاربين في ترايسن كيرشن[1] كان اسم دوشان بوديمير، بيرو أنجليتش. وعلى وثيقة أخرى صادرة عن أكبر مخيم للنازحين الهاربين من أوروبا الشرقية والبلقان في زرندورف قرب نينبرغ كان اسمه أوبرن كرستيتش. أما ثالث اسم لهذا الرجل الذي يبكي بجاني فلم يكن مقروءاً. كل ما كان مسجلاً هو أنه يوغسلافي وأنه لاجئ. يطلب اللجوء السياسي بالطبع..

«وأي ملجأ سياسي كنت تطلب؟».

«عليك أن تقول شيئاً ما وإلا لن يكون لك فراش، ولا كسرة خبز، ولا دواء إذا اعتلّت رئتاك. ولكي يقبلونك ويضعونك على سجلاتهم لا بد أن تصرح بأنك ملاحق سياسياً في بلدك. بأنك مخنوق ومعفوس ومحجور عليك. بأنك، كما يقولون هم، ترغب بحرية الغرب».

«صارحني من الذي أعاب الآخر يا دوشان؟».

«أنا أعبت وطني. أقسم بشرفي الذي فقدته منذ زمن بعيد!» واختنق بدمعه هذا المسكين بجانبي:

«ولم يكن الوطن ليلاحظني حتى لو لم أسرق، وأحطم، وأبصق على كل ما هو مبجل وغال لشعبنا هناك في الجنوب».

«لماذا لا تعود إلى الوطن يا رجل؟».

«هكذا.. أبداً» بكى ومسح الدموع على وجنتيه: «والسبب الآخر أن أهلي نعوني. لقد وصل الخبر إلى سيفاتس بأنني قُتلتُ ورُميتْ جثتي في نهر

---

١ - ترايسن كيرشن المخيم الألماني الأشهر - مركز التجمع للنازحين اللاجئين في النمسا، يوجد العديد مثله في أوروبا الغربية.

الدانوب قرب فيينا. وسمعت أنهم انتظروني طويلاً، وأن نهر الدانوب لم ينقلني إلى فوديفودنيا. حسن إذاً أنا ميت. ولا ضرورة لإزعاجهم ثانية!. لقد سوّدت وجوههم وجلبت لهم الحزن والعذاب..».

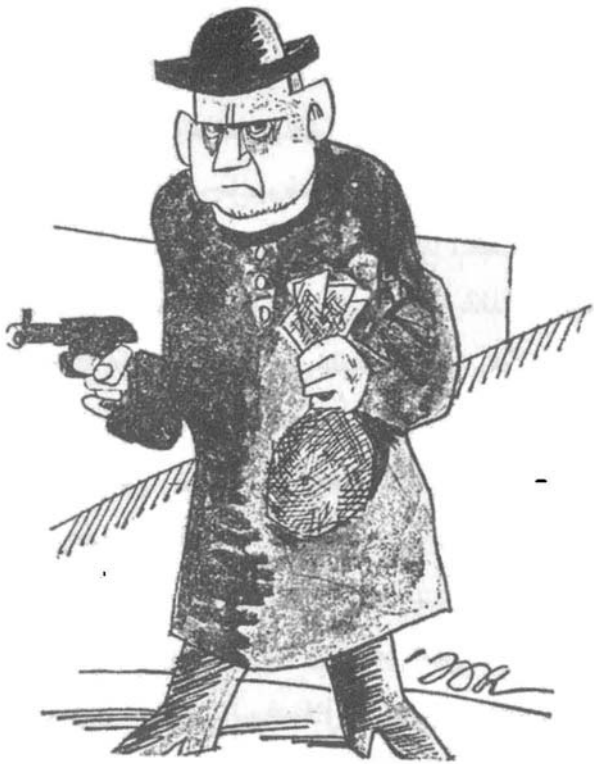

«سواء أكان اسمك دوشان أم أوبرن، بيرو أم يوفان، بالنسبة لي الأمر سيان ولا يهمني اسمك الحقيقي، حدثني عن مدينة زرندورف سيئة السمعة. إنما بصدق عن كل شيء!».

«في زرندورف فهمت لأول مرة معنى أن تكون عبداً» قالها وهو ينشج، ذلك الرجل المتقلص الجالس بجانبي. «قيل لي. يا عبد!. قالها رجل

سلوفاكي، عملاق الجثة، فهمت فوراً أنه يزور مثل تلك المراكز المخصصة للنازحين الهاربين الضائعين كي يتمم عصاباته الإجرامية التي يطلق عليها اسم كتائب. اشتراني من رجل مجري من فويفودنيا[1]. كنا خمسة رجال في العصابة: اثنان يوغسلافيان، ومجري، وتشيكي، وبولندي. هاجمنا القطارات الذاهبة من ميونخ إلى الشمال والغرب، الواصلة إلى حدود هولندا وفرنسا. كان السلوفاكي يسير من خلفنا، وكان يخزّن كل ما نقنصه... بعدئذ، وفي زرندورف نفسها، اشتراني رجل يوغسلافي من المجري، ونقده أمام عيني، متعمداً أن أراه مئة مارك كاملة ثمناً لي. وصدقني لم أبك. لقد بكيت بعد ذلك حينما ابتدأ اليوغسلافي يضربني. كان يمتحننا بذلك، يجلدنا، يحقرنا، ويعفسنا، ويعلقنا على تيار كهربائي خفيف من أيدينا. كان يجسّ ركبنا وظهورنا وخصانا. ويقول: لا أريد عبيداً مرضى. ويصيح. وكنا نسير من خلفه نسرق، وبشكل رئيسي عند المحطة، ومن المولات، ومن رياض الأطفال. يجب عليك أن تحضر له أي شيء، مهما كان: رفشاً، زنبيلاً، خوذة صفراء من ورشات البناء، فقط ليشعر أنك سرقت، أنك تعرضت للخطر. ومن اليوغسلافي نيقولا، وكان على ما أعتقد من نيش، اشتراني رجل مجري. لقد اشترى الكتائب كلها من اليوغسلافي الذي حول اختصاصه إلى وجهة أخرى. كنا نهاجم مراكز البريد على أطراف المدينة، البيوت المعزولة، المدارس. وكنا نشاركه السكر والعربدة. ومن يعلم كم كنا سنمكث عنده لولا أن أغمد رجل مجري آخر اسمه لاسلو السكين في قلبه، أمامنا جميعاً، عند مدخل إحدى البراكات في مجمع زرندورف. ولقد انحرف جميع

---

١ - منطقة حكم ذاتي تتبع جمهورية صربيا معظم سكانها مجريون. - المترجم -

أعضاء الكتائب إلى لاسلو ما عداي أنا وذهبت أنا مع يوغسلافي من البوسنا، ذكّرني بالمجري اشتفان الذي كنا نسرق بقيادته ونختطف، إنما نكرع الكحول أيضاً ونعربد. وكانت نهاية اليوغسلافي البوسني دموية أيضاً. ولم نعرف أبداً مَنْ الذي غَرَس السكين بقلبه. فبقيت وحيداً حزيناً من أجله أسابيع عدة أو «لست عبداً» لكن هذه الحرية المقيتة، هذه الحياة من دون قائد ومعلم، ومن دون رجل يعطيك الطعام يلبسك ويغذيك، قصّرها واختصرها توماشكو الأكرايني. كان بشاربين كثيفين طويلين وجمجمة بيضاوية صلعاء. ذلك المالك لكتائب عديدة. وقد انتسبتُ إلى الكتيبة التي تمرنت في غابات بافاريا حول بحيرة بودنسكا، على احتلال مدينة كييف، وليفوفا، وبلدة أخرى أعتقد أنها هرسونا. فنعبر الأنهار الهائجة حتى غرق اثنان منا في بحيرة بودنسكا..».

عندما وصلنا ميونخ رغب مرافقي أن أذهب معه إلى محطة القطار. ذهبنا، ومررنا بجميع الأماكن المشهورة في المحطة، وهو يشرح لي ويريني الأماكن التي كان يبدع في السرقة بها وهو يصيح «الصرعة»[1]!: دكاكين الحلاقين، باعة الورود. براكات بيع الصحف المحلية والأجنبية وصحف اللاجئين النازحين. كان الشباب الظلاميون الذين ينتظرون شخصاً ما حاضرين دائماً، رجال شرطة، عمال أجانب من الأتراك واليونانيين غالباً، شهود الزور والمزورون بوجوههم وسمعتهم، الذين تشك حينما تشاهدهم أنها اللحظات الأخيرة قبل يوم الحشر والطوفان الفظيع. تسكعنا في الشوارع الرئيسة: شارع شيلر، شارع غوته.. حتى شارع شفتالر. وفي

---

١ - يصيح النشال: الصرعة، ويرتجف فيسارع البعض إلى نجدته، فيقلّب جيوبهم. - المترجم -

مقاهي تلك الشوارع التي دخلت منذ وقت طويل دهاليز الجريمة وأدبياتها، في ألمانيا هذه بعد الحرب. لم نجد من نعرفه. لقد أمل زميلي في السفر أن يجد العديد ممن يعرفهم، لكنه لم يصادف سوى رجل قرباطي، ليس بلقانياً، إنما من غاليتسيا، ووجب على حوارهما البادئ قبل سنوات عديدة في مخيمات زرندورف للاجئين، أن يُستأنف الآن، وينتهي بسرعة بالألمانية. ولم نشاهد في أي مقهى المدعو بوغدان توماشك، ولا أي واحد من مالكي العبيد الذين يمكن اتباعهم والعيش في فيء صحبتهم. حتى الليل لم يستطع أن يكون مثيراً لمرافقي، الليل الغني جداً والخيالي بالنسبة لكاتب هذه الحوادث.

وفي مطعم المحطة التهم مرافقي دوشان - أوبرن، بيرو - يوفان، سيان ما كان، الجزر، والبطاطا المسلوقة، والنقانق، وسقى ذلك كله بالبيرة البافارية التي بعثت الدماء في عنقه المحفر، وامتلأت عيناه بالتماع غريب، بل ولن أكون على خطأ إذا قلت إنه التماع مرض الصرعة. وبقبضة مشدودة كان ينقر الطاولة من خشب الجوز ويزحك سطحها. واقتربت لحظة فراقنا باقتراب موعد انطلاق القطار الذاهب إلى نيرنبرغ:

«أحب-أكثر أن أكون عبدك وليس عبدهم» قال محشرجاً. ولوى عنقه، وجعّد جلد الوجنتين: «خذني معك. سأغسل سيارتك وأحرسها، سأقبّل قدميك، سأنام إذا اضطر الأمر في الإصطبل، فقط لأتأكد أنني أصبحت ملكك وليس ملكهم. سأطيعك، وأخدمك، وأكون عبداً حقيقياً!. سأبقي يدي على السكين هكذا.. انظر، فإذا ما حدجك شخص ما بازدراء، سأذبحه وأشرب من دمه النتن. قدني إذا شئت مربوطاً بجنزير، كما كان يفعل بنا المجري المجنون اشتفان الذي عشنا معه العبودية، والبكاء،

والحياة.. لن أكلفك الكثير لأنني سأسرق وأحضر، وسيكون ذلك لنا نحن الاثنان. وإذا لم يكفك ذلك كله سنرسل مما سرقناه واختطفناه لمن لا يملك أو لقبيلة عامل أجنبي ما من جماعتنا. شريطة أن لا تصل الأخبار إلى فويفودينا بأنني ما زلت حياً، على ألسنة الظلاميين، فقط كي لا أبقى وحيداً... هكذا معفوساً ومشوهاً ومسكيناً. فقط كي لا أتابع طريقي إلى زرندورف».

«اصدقني القول لماذا تذهب إلى زرندورف؟».

«يعود بوغدان توماشكو أسبوعياً إلى المخيم. سأسارع إليه واقعاً تحت قدميه أسأله هل ما زال يذكرني. سيقول أجل أعرفك. فلقد سمعت أنه بحاجة إلى أشقياء مثلي. إنه يجمع الحثالة مكوناً كتائب، يريد من خلالها الهجوم على كييف وأوديسا حياً أو ميتاً. سأذهب مع توماشك يا صديقي، فلقد مللت الحياة، وأفضّل المقتل في مداخل كييف عن أن يشتريني ويبيعني، في هذا العالم النتن، المجرمون وجامعو اللحم الآدمي الحي والميت.

تحرك القطار الذاهب إلى نيرنبرغ وزرندورف، فصعد إليه بصعوبة شديدة رفيقي في السفر دوشان أو ابرن، لا فرق، ولوح لي من الأعلى. فخيل إليّ وأنا أراه منتصباً هكذا وباكياً كأنه أكبر. انطلق القطار.. ولوقت طويل شوهدت يد تعيسة ممدودة.. ثم غاب كل شيء.

V

من دون رأس، وبقلب ملتاع يوافق النازح بسهولة على أي شيء... ويطول الانتظار للحصول على هذا اللجوء السياسي.
كيف يبدو رفيقي في السفر من دون توماشكو؟.

ذهب رفيقي في السفر إلى زرندورف، إلى الجحيم مباشرة!. فمدينة زرندورف هي الوحل، والبشاعة المقطرة، والقعر الحزين الدموي للاجئين. ولنقل إنها المركز الأول لتجمع النازحين... إنها المُحتضن الأول للهاربين من جميع الأجناس، ومن كل زوايا العالم. ولا يمكن مقارنة مخيمات سان سابا الإيطالية سيئة السمعة، أو مخيمات ترايسن كيرشن في النمسا الشهيرة ببشاعتها، بمخيمات زرندورف. التي تبدو كأنها خلقت واتسعت بتوصية من دانتي[1]، لهذا فهي لا مثيل لها. إنها المخيمات الأكبر والأشد وساخة المعروفة في أوروبا اليوم!.

ولا ينزل هذا الفخ النتن، ولسنين طويلة، عن أعمدة الصحف الأوروبية الغربية، خصوصاً صحافة ألمانيا الغربية، ولا يفارق وعي البشر الذين يعيشون في مدينة زرندورف وبافاريا. لقد دخلت زرندورف منذ أمد بعيد في ثبوتيات الجريمة ودهاليزها.

---

١ - مؤلف الكوميديا الإلهية. - المترجم -

ولا يوجد مكان في العالم فيه مؤسسة - وزرندورف مؤسسة - عبره كل هذا الكم الهائل من التعساء، من المتحولين باتالوجياً، من اللاجئين السياسيين الحقيقيين والمدعين الأفاقين، من الضائعين والمجانين الفقراء، القتلة، المهربين من كل الأنواع والجنسيات، الذين يندمون أشد الندم في وقت متأخر، وأولئك الذين يصبحون ضحايا بين ليلة وضحاها، وهم لا ناقة لهم ولا جمل، بسبب دراكولا[1]، وقاطعي الطرق، والمتسكعين. فهل يمكن لأحد كائناً من كان أن يكتب حوادث زرندورف السوداء.؟.

لقد تسابق الصحفيون الألمان لإيجاد الوصف الأدق والاسم الأبشع لهذا المركز الملوث القيحي. وكان المراسل «ف. كنياكا» من صحيفة زود دوتيش تساتيونغ الأمهر والأدق. الذي كتب في جريدته الصادرة في ٢١ نوفمبر ١٩٦١ بأن زرندورف هي: «المرحاض الكبير»!. وحقيقة فقد كان وصف هذا المراسل لتلك الحفرة، لذلك السرير، الذي عبره آلاف اليوغسلافيين، هو الأفضل، والأصدق، والموضوعي. ويضيف كنياكا: تتوقف الروائح النتنة من زرندورف فقط حينما تغلق أبواب المدينة!» لهذا ثار سكان بافاريا واحتجوا، ومعهم حق، وأرسلوا إنذاراتهم للصحف، خصوصاً البافارية منها، وأولها صحيفة زود دوتيش تسايتونغ، والتي تراني ممسكاً وثائقها حول الإجرام والنازحين بيدي وأنا أكتب الآن. وقال الناس ألم يكن بإمكانكم إقامة مخيم النازحين هذا في مكان جنوب زرندورف أو في شمالها. تساءل الناس وقد أرهقتهم روائح النازحين النتنة، أغانيهم، أفراحهم، مشاجراتهم، سهراتهم، واقتتالهم الذي ينتهي عادة بتقطيع الأعضاء، قلع العيون، وسحب الأمعاء، حتوف ضخمة بشعة دائماً.

---

١ - مصاص الدماء المعروف. - المترجم -

ويصف الصحفي كارل هاينز شميث من صحيفة زود دوتيش تسايتونغ في ١٥ مارس ١٩٦١ مدينة زرندورف بدقة متناهية: هي تسعون براكة خشبية، وعدد المتواجدين في ذلك اليوم فقط ٥٠٠٠ شخص من كل دول أوروبا بمن فيهم اليوغسلاف. ويخبرنا عن المشاجرة الضخمة التي حدثت ليلاً ما بين ١٥ و ١٦ مارس. والنتيجة: سبعة قتلى وأعداد كبيرة من الجرحى.

ولقد زار كارل هاينز شميث هذا المعسكر في ١٩ نوفمبر ١٩٦١ وأرسل ريبورتاجه الثاني للصحيفة ذاتها «تتشاجر الأمم هنا وتصفي حساباتها، الاقتتال على أشده مثل حروب حقيقية، تلك التي لا يمكن إيقافها إلا بكتائب من الشرطة المدربة الفعالة!».

نتابع تصفح وثائق الصحفيين الألمان. لقد زار «ف. كنياكا» زرندورف مرات عدة، خصوصاً مجمع شذاذ الآفاق ذاك. وكتب بداية لقرائه أنه منذ انتقال هذا المخيم ما بين نيرنبرغ وزرندورف، وبالضبط منذ عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٣ فقد عبر مخيم ما بعد الحرب هذا والذي يعتبرونه الأحدث، ٦٧٧١ شخصاً بالضبط، من جميع الأمم والشعوب في العالم. بمن فيهم - أكرر - جميع التنويعات اليوغسلافية. وكان النازحون المقيمون في تلك البراكات الخشبية يتجمدون من الصقيع، فوق أسرّة حديدية على طوابق عدة، وأغطية خشنة صوفية عتيقة أكلها العث والوسخ. وأضاف: تُستبدل السرقة بسرقة أخرى.فأثار قوله هذا المشاجرات العنيفة التي طارت بها الرؤوس، وسالت الدماء، خصوصاً السلافية منها كالينابيع.

نعود إلى الرقم ٦٧٧١ من النازحين، كم فيه من الجماعات، كم فيه من السرايا، والكتائب؟ لقد تمعّن الصحفي في سجل المخيم وصرح: لقد عبر مخيم زرندورف منذ عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٣، ٥١٢٥ يوغسلافياً

أطلقوا عليهم اسم يوغوس، و ٦١٢ بولندياً، و١٩٦ تشيكياً وسلوفاكياً. و١٣٤ بلغارياً. و٥٩ روسياً. و٥٤ ألبانياً!».

ولقد زار كارل هاينز شميث زرندورف في ١٢ أغسطس ١٩٦٧. وكتب لصحيفته زي دويتش تسايتونغ مفصلاً عن أحوال المعسكر. لقد عبر هذا المعسكر كما يؤكد شميث ٥٠٠٠٠ شخص من ٤٠ دولة. ويذكر، إضافة للاجئين الهاربين من دول أوروبا الشرقية، الكوبيين. بعض الرياضيين الأمريكيين من رعايا الولايات المتحدة الأمريكية. بعض الكوريين الشماليين والجنوبيين. الأرمن والأتراك، الفرنسيين، الإسبانيين، الإيطاليين، القرباط (من جميع التنويعات في العالم) خصوصاً الرّحل منهم مع عائلاتهم وحيواناتهم، والعرب، والأكراد، واليونانيين. وفي تلك السنة ١٩٦٣ كان المخيم يكتظ باليوغسلافيين النازحين المسالمين الأسرى الذين يحصل واحدهم على ٢٠ ماركاً و٥٠ سنتاً راتباً شهرياً معلوماً.

وكما كان في السابق، وكما كان في ذلك العام، وكما هو اليوم فإن النازح الأسير يحصل على سماح بالعمل، باستطاعته التجوال في الحقول من حوله إن كان فلاحاً، أو في الورشات إن كان بالمصادفة صنّاعاً. وفي الأمكنة التي يمكنه فيها السرقة والقنص إن كانت تلك أفضل هواياته في وطنه السابق. ولقد اشتهرت في ذلك النساء النازحات اللاجئات بصفتهن لصات لا يشق لهن غبار، ومحتالات وغشاشات لم يوجد لهن مثيل في هذه البقعة من العالم. وقد اشتهرت نساء الرجال النازحين اللاجئين، اللواتي أنجزن نسبة عشرة بالمئة من الناتج العام للسرقة، وحتى اليوم. ولقد تم الحديث منذ زمن عن نساء عرضن اكتشافاتهن في الغش والتدليس، وقمن ببيع براءات اختراعها. ويضيف كارل هاينز شميث الذي عمل مطولاً وبحث في هذه التراجيديا

البشرية لشعوب أوروبا بأن تلك النساء كنَّ بأعمار متوسطة «٢٠ - ٣٠ سنة» جاهزات لكل أنواع «الفنون».

في تلك المخيمات يظهر أحياناً ممثلون لمنظمات إنسانية، التي يوجد منها في أوروبا الكثير: الصليب الأحمر مع الأدوية، تلك التي احتج بعض اللاجئين الأسرى بأنها أدوية قديمة، أدوية من المهملات. والمنظمة الكاثوليكية «كاريتاس» التي أظهر بعض أعضائها مهاراتهم في الإجرام والاتجار بالمخدرات والأسلحة والذخائر. ومنظمة جيش المنقذين ببزاتهم المميزة، ببرامجهم ولغتهم الصعبة على الأسوياء، فما بالك على الخائفين المرعوبين الذين أضاعوا رؤوسهم، المنتظرين اللجوء السياسي دون أن يعرفوا ماذا يعني ذلك، المغامرين، وشهود الزور، الأشخاص مشتعلي الخيال، شاحذي العقول والقلوب، الفقراء المعدمين الموعودين إضافة للجوء السياسي المنتظر بالقيامة ونهاية العالم التي ستبدأ لتوها، ومن الضروري معرفة مكان السفينة التي سيبحرون على متنها حتى يظهر المنقذ الوحيد من خلف الجبال.

بعضهم إذاً يقدم العون، وبعضهم يسلبه، متسببين بالجنون لأولئك الذين فارقوا رشدهم منذ زمن. كل يريد جمع أكبر عدد ممكن من التعساء. بعضهم يرغب باستلاب الجسد، وبعضهم باستلاب الروح المعذبة، وبعضهم يرغب باستلاب الاثنين معاً. كما يرغب الجواسيس الكبار بالسيطرة على الجواسيس الصغار، الذين سيقتلون. ويرغب المسلحون الإرهابيون الكبار بامتلاك المشطوبين، المخلوقات الشابة، التي ستوافق على حمل المتفجرات لقاء مال قليل ووعد كبير، واعتراف، إلى ذلك المكان أو هذا المكان. لذلك القطار أو هذا القطار. إن مشغلي الشر والأشرار يعرفون أن اليائسين يشكلون أفضل صيد لهم. لهذا تراهم يأتون أو يرسلون الأمهر من

رجالهم، من ممثليهم أمام الصحافة، غوريلياتهم البشرية وجلاديهم. وتسارع المنظمات الإرهابية الناشطة على أرض أوروبا الغربية، بل وعلى النصف الشمالي من الكرة الأرضية إلى زرندورف النتنة لشراء الرجال، أو صيدهم، أو ضمهم إليها، كما يفعلون مع العبيد أو الثيران أو الخيول. ويوافق الرجل من دون رأس، وبقلب ملتاع، الفاقد وطنه، على كل شيء، وأي شيء، ويحصل على عربون من النقود والكلمات المعسولة الفارغة. وهكذا... الكتائب تكتمل.. مثل كتائب بوندارنكو، كتائب الأشقياء المعذبين من رواية رجال بأربع أصابع. الكتائب الأكرانية الحزينة التي تتمرن حول بحيرة بودنسكا على احتلال مدن كييف، ليفوفو، أودسا، وهرسونا.

ولو أن الراغبين بالهروب، بالهجرة غير الشرعية، عرفوا أنهم لن يتمكنوا من تجاوز زرندورف، أو ترايسن كيرشن، أو سان سابا، والخلاص من أوكارها، وأيقنوا أنه سيتم ضمهم إلى جيش الإنقاذ، كاريتاس، وألوية تحرير وارسو، ولو أنهم عرفوا مصيرهم المحتوم بانتمائهم في ليلة ما إلى تلك الكتائب الشريرة في جيوش المرتزقة، لو أنهم وعوا كل ذلك، لما نسجوا كل تلك الأحلام الوردية الطوباوية حول العوالم الأخرى، الأفضل والأجمل من أوطاننا، ولم يكونوا ليتحملوا كل هذا العناء في طريق العذاب الطويل.

ولا بد من إرسال المقالات المصورة التي ذكرتها إلى أولئك الجهلة الرومانسيين، وبالبريد السريع، إن مقالات الصحفيين الألمان الغربيين، خصوصاً من ميونخ، صادقة، وصحيحة، وليست بحاجة إلى أي تعليق. إنها نصوص منذرة، يشكل بعضها الجواب الشافي لأولئك المشككين بما كتبت عن فظائع النزوح والهجرة في رواية رجال بأربع أصابع، واعتبروها سادية، مستهترة. والآن نعود إلى ما يجري في زرندورف.

إن كل إنسان خارج وطنه، ويطلب اللجوء السياسي، عليه أن يتصرف بشكل سياسي. عليك أن ترمي، ومن خلال طقس مثير، جواز سفرك، إن كنت تملكه أصلاً. أن تتبرأ من وطنك وتشتمه، أن تتبرأ من بلادك وكل ما فيها..، حتى القبور، والأبنية، والملاعب، والمستوصفات، من طيورها، وأنهارها، كل ما فيها أو يعود إليها، أو ما يمكن أن يعود إليها لو واتاها الحظ في هذه الدنيا.

ولا بدّ، لكي تحصل على اللجوء السياسي، أن تعرض أمام الأجهزة في زرندورف ما يثبت أنك ملاحق سياسياً في وطنك، وإلّا أي مهاجر تكون وقد تحملت كل هذه الأهوال؟ أو أنك محروم من أية حرية، مخنوق، سجين، وما شابه. ويمكنك، كما فعل الكثيرون، عرض الكدمات على جسدك، أسنانك المكسورة والضائعة، ساقك الأقصر من الثاني، جبينك المحفور، ومعدتك الهابطة منذ ولادتك، وأن تتهم بكل ذلك وطنك الأم، بلادك التي أتعستك وشوّهتك، ولهذا ترغب بالوصول إلى حافة العالم.

ولا بد من الثبوتيات المكتوبة أو المزورة، أي حكم قضائي من أحد قضاة بلادك السابقة، أية مخالفات، دعوات للمحاكمة، أية ورقة عليها ختم النجمة وتوقيع. توقيع شيوعي، اشتراكي، واعد من الشرق، كما يقول بعض موظفي زرندورف. وكل ما تدعيه يسجل بعد ترجمته. وسوف يكون مرحباً جداً أن تذكر كل ما سمعته في طريقك من ذاك المكان إلى هذا المكان، أن تصف الأحوال على الحدود، أين سيتم بناء المطار الحربي أو المدني الجديد، وهل هو ضروري لتلك المنطقة. وإن كان ضرورياً فلمن ولأية طائرات؟ وأن لا تغفل ذكر الشركات التي يفضل أبناء وطنك السفر على متن طائراتها. هل يفضلون الكوكاكولا، أم الويسكي، أم الفودكا، أم

الفينياك، أم الكونياك. هل يفضلون سيارة الفيات عن الفولفو، أم المرسيدس عن البيجو. وما هي الأسباب برأيك..؟!.

إنهم يعدون كل رجل باللجوء السياسي. ولم أصادف هارباً لم ينتظر ذلك اللجوء. ويطول انتظار ذلك اللجوء الملعون. بعضهم يحصل عليه فوراً، بينما ينتظر الآخرون أكثر من عشر سنوات بطولها. بعضهم، وهو يحلم بالمراعي الكندية والمواشي، أو بعصابات المافيا في شيكاغو والمختطفين، أو بشواطئ أمريكا الجنوبية وحياة القمار الأسهل من أية حياة، لا يبلغون ذلك اللجوء السياسي، ويموتون قبل ذلك في تلك البراكات التنة الخشبية في زرندورف. وليتم قبرهم في قبور الكلاب، أو أية قبور مشينة أخرى بصفتهم هاربين ضحايا من دون عنوان أو إثبات شخصية.

في عام ١٩٦٦ حينما كنت على مفارق زرندورف للمرة الأخيرة، سمعت عن إعدام شخصين أستونيين شنقاً. وكان قد تم إبلاغهما ضرورة انتظار اللجوء إلى أستراليا خمس سنوات أو ستاً أخرى. وليسوا وحدهم الذين يتفسخون هنا منذ ١٩٥٣. ولقد تم التعتيم على حادثة الشنق هذه. لكن شارع شيلر الخطير جداً في ميونخ، النافذ إلى محطة القطار الرئيسة هو السّباق في معرفة كل شيء قبل غيره. وكل ما يعرفه شارع شيلر سيعرفه عالم تحت الأرض كلّه!.

كثير من الرجال سيجدون في وحل زرندورف العميق نصفهم الثاني. النازحات الهاربات، ذوات الأرواح المهانة، فيشكلون عائلات. وينسى البعض في خضم ما يسمى الزواج في الغربة، والحب، مسألة اللجوء السياسي المطلوب، أو يتخلون عنه وعن أحلامهم في الذهاب إلى تكساس وآبار النفط الفائرة هناك - الذين سمعوا أثناء هروبهم - بأنها يمكن أن

تكون عائلية، ملكاً خاصاً، أو للقبيلة كلها في أسوأ الأحوال. ويمكن كسب أحد تلك الآبار باليانصيب، فالحظ دائماً يضحك للنازحين. فينطلقون في هذا العالم الأوروبي الشاسع، لكنهم يحصلون على شيء أكثر عقلانية وعملياً من بئر النفط في تلك البلاد البعيدة: مكنسة وأسمالاً. تراكتوراً أو رفشاً. خرطوم سقاية أو معولاً.

في عالم تحت الأرض يهددونك بزرندورف والقدر الأسود الذي يبدأ من هناك أو ينتهي. يهددون الجواسيس القادمين من كل أصقاع الأرض. الذين يجتمعون هناك أو يقيمون، بين أسرى ما بعد الحرب، في بيئاتهم الحاضنة وجحورهم، الناقلين لرسائل مشبوهة وطروداً، لتقارير وإشارات. هناك يكمن نازحوهم الحقيقيون. الهاربون المدّعون. الرجال المموهون والمدربون والمستعدون لفعل أي شيء، أولئك الذين يبلغون الغايات بعد حصولهم على اللجوء، فيسربونهم إلى مناصب متقدمة في صفوف أعدائهم.

يتفوق هؤلاء النازحون الحقيقيون الممثلون الماهرون في إظهار الثبوتيات ومواد الإدانة لعدم ولائهم لأنظمة الحكم في بلادهم، التي هربوا منها في الدقائق الخمس الأخيرة[1] قبل الساعة الثانية عشرة، وعبروها. وإلّا لكانوا أعدموهم شنقاً أو رمياً بالرصاص علناً في الساحة الفلانية.

ويعرف هؤلاء المشعوذون كتبة زرندورف كل شيء اعتماداً على أقوال عابري كل تلك الأهوال، المشكوك بأمرهم، ويتأكدون أن نسبة كبيرة من هؤلاء النازحين الهاربين لا يلجؤون إلى زرندورف من أجل السياسة أو

---

١ - يقصد في اللحظات الأخيرة. - المترجم -

الأيديولوجيا فقط، إنما ليختبئوا داخل هؤلاء التعساء الأنانيين بصفتهم أخطر القتلة في عالمنا المعاصر. الثأريون على طريقة القرون الوسطى. طلاب ثأر الدم من الملوثين، المهربين، الخاطفين، اللصوص من جميع المستويات، النشالين، مرضى السفلس، الهيبيين وذوي المعتقدات الخاطئة.

ومن هنا، كما يدعي الأسرى السابقون من زرندورف، وبمساعدة الأنتربول، يذهب الكثيرون إلى مدن صغيرة هادئة سعيدة، قائمة على نهر بيبرت شديد التلوث الآن. ولهذا يفضل كتبة زرندورف ظهور رجل ضخم غشاش ومدلس شبيه ببوندارنكو، أو توماشك، أو شاندور كولار، أو كوزنياكوف، من رواية رجال بأربع أصابع. ويقفون يقيسون ذلك المدلس، ويزنونه، ويجسون يديه ورجليه، وينهالون على كتفيه بشدة للتأكد من تحمله وقوته، ويفحصون أسنانه، ويبحلقون في عينيه للتأكد من درجة التعاسة والخواء المسفوحة فيهما، ثم يشكلون الكتائب أو الأرتال، وينطلقون في الهجومات، سواء على قطارات الليل، أو على الحدود في الضباب...

إلى هذا المكان ذهب مرافقي في السفر، ذلك التعيس الذي وصف نفسه بدقة قاطع طريق. وأخبرني أنه سيكون مقهوراً من أجل ذلك الرجل الذي تقوده إليه رغبة لئيمة: توماشكو. أو نحو أي أكراني من ذلك العيار وذات المهنة، يوجد مطعوناً بالسكين على ضفة نهر بيبرت، أو مخردقاً بالرصاص في جثته كلها، وهو ما يشي بانتقام فظيع لا تذكر مثله محاكم بافاريا.

وسوف يتعرض رفيقي في السفر، ذلك التعيس، ذو الأسماء العديدة والكنيات الأكثر عدداً لصدمة أخرى. ففي زرندورف لم يعد يوجد يوغسلاف منذ سنوات وسنوات.. لقد كان آخرهم رجل سلوفيني

بروفسور في جامعة ليوبليانا[1]. عالم رياضيات، وعبقري كما قيل، الذي لا يعرف هو نفسه كيف وقع في هذا العالم الذي لا يليق به، ولحساب من.

ما الذي سيفعله مرافقي في السفر من دون توماشك، الذي كان يفهم لغته، ويشعر بشعوره، ويحبه؟. هل سيكون مجبراً، مثل ماركوفيتش من رجال بأربع أصابع، لاتباع مجري ما، في قطارات الليل، ينهالان على مراكز البريد الصغيرة، المولات، على الأكشاك ضعيفة الإنارة، على محطات القطار المكتظة بالمسافرين، على الحمالين وسائقي سيارات الأجرة، وأخيراً على البيوت والعائلات النائمة بداخلها؟.

والأهم أن لا يقبض عليه رجال المافيا السياسية اليوغسلاف. أولئك الذين يتشكّلون من المهزومين، والمتهالكين، والمحطمين، والإرهابيين، وزارعي الآلات الجهنمية والمتفجرات، ومهاجمي القنصليات والسفارات، وشاتمي ومحطمي كل ما هو يوغسلافي، الخاطفين، أو مَنْ يسمونهم الصليبيين! أن لا يصطادوه، أن لا يجعلوا منه عبداً سياسياً للأبد.

---

١ - عاصمة سلوفينيا. - المترجم -

VI

«أوروبا وعبيدها الحداثيون...». الأرواح المهانة. لماذا شوهت الأغنية الأكرانية: سردينكو يا حبيب القلب،...

أعلنت إحدى المجلات الأمريكية، أعتقد أنها التايم، منذ وقت، عن وجود عبيد في أوروبا. دون أن يبحث ذلك الصحفي في أشكال تلك العبوديات. كان ريبورتاجاً وثائقياً. يذكر فيه كاتب تلك الدراسة السياسية الاجتماعية أسماء الدول المعنية واحدة إثر الأخرى.

كانت فرنسا في المقدمة، وألمانيا الغربية، وهولندا، ولم تذكر الدول الاسكندنافية ويا للعجب. بينما ذكر أن إيطاليا، إضافة للعبيد الغرباء، تحوي على عبيدها الإيطاليين، السود من الجنوب.

وأضافت التايم أن أوروبا منذ وقت طويل تقع في منطقة الضغط السياسي المنحط، في الانكفاء الاقتصادي، أي المالي، المتناوب أبداً مع الانكفاء الأخلاقي الروحي، الباعث على نشوء العبودية. فالعبد بصفته حالة روحية إنسانية، بصفته شخصية قلقة غير مستقرة، ولا واثقة، يكون مؤهلاً في لحظة ما للوقوع في شبكة مالكي العبيد. ويضيف الصحفي الأمريكي أن الدول المصدرة للعبيد هي الدول ذات العلاقة مع زرندورف. وليس هناك أية إشارة تدل على أعداد المهاجرين، ولن تكون. فالنازحون ينهمرون مثل زخ المطر من كل أنحاء أوروبا. فتذكر أعداد مليونية من «الناس المهاجرين»، وأؤكد أنهم أرواح تائهة مهانة نازحة. لهذا ليس مهماً

كم صدرت كل دولة وأهرقت من عظام شعبها في مقابر النازحين تلك، التي لم يذكر، ولم يشاهد لها مثيل أبداً في التاريخ كله.

إن مصطلح «الزلزال السياسي الأوروبي» لم تخترعه مجلة التايم، وكنت قد صادفته أول مرة في المجلة الفرنسية «إكسبريس» التي بحثت في دراما النازحين تلك بطريقة مضحكة تهكمية. لكن الصحفي الفرنسي لم يستطع، ولو من بعيد، إنارة وتمحيص تلك الدراما التي تعيشها بعض دول أوروبا. مضيفاً أنه منذ سنة ١٩٤٥ هجر ملايين الناس أوطانهم ودفء بيوتهم. ولم يغفل الصحفي كلمة «السيرك». وفي تحركات الكتل البشرية غير المنضبطة، العشوائية، في تلك النزوحات لشعوب كاملة، لقبائل، لأفراد، تنبثق المقابر الجديدة وأكوام العظام في الغرب كله. وكم كتبت عن ذلك صحف عالمية، وليس فقط تلك التي ذكرتها. لقد أضحى مصطلح الهجرة المصطلح الأبرز في عقود ما بعد الحرب. وأضحت الهجرة السياسية الغول الأكبر من جميع الغيلان، وأضحى الرجل الهارب، دون النظر إلى الأسباب، الذي وجد نفسه على أرض غريبة، خصوصاً الأوروبية الغربية منها، بطل هذا السكتش الدموي. السكتش الذي سيساهم به الألماني أيضاً والسويدي والفرنسي. ولهذا ابتدأت تنعدم السخرية والاستهزاء في نصوص الصحفيين الأوروبيين الغربيين الباحثين في مسألة الهروب والنزوح..

وحقيقة فقد استجلبت أوروبا العبيد منذ زمن! لقد وصل العبيد إلى إنجلترا والجزر البريطانية عن طريق السفن العابرة للقارات من دول الكومونولث، في المقام الأول من الهند، الباكستان، وماليزيا. ووصل أنصاف العبيد، عوائل أفريقية كاملة وقبائل برمتها. ولهذا تتشابك السجلات الإنجليزية وتختلط بهذا العدد الهائل من الجنسيات، التي بالرغم من حيازتها

على جنسية المملكة المتحدة تراها طامحة لتوصيف أوروبي جديد. هكذا يعيش اللون الأسود تحت سماء لندن!. ومن كل أنواع العبيد، وحدهم العبيد الإنجليز لا يرفعون رؤوسهم. وتراهم يحصلون على إكرامية العبد من الناس المحترمين، ويقبلّون يدّ كل رجل أبيض، ظناً منهم أن كل أبيض هو إنجليزي بالضرورة. ولم يسبق أن حصل احتجاج ولا ثورة. فالأسود في لندن ليس مثل الأسود، المواطن العادي، في باريس أو أمستردام أو واشنطن!.

ومنذ قرون ضخّت باريس العبيد في عروقها. لقد وصل العبيد إلى تلك الجنة من الأماكن الآسيوية البعيدة، من الهند الصينية، وشمال أفريقيا، بل وتشاد، والكونغو، والمارتنيك. من جيبوتي، والصومال، من جزر الباسفيك. ولا نغفل تلك الهجرات الكبيرة من البرتغال وإسبانيا.

وسوف أتكلم بعد قليل عن العبيد الأكثر سواداً ممن شاهدتهم في حياتي، عبيد شواطئ أفريقيا الغربية. أولئك الذين أحضرهم سماسرة سود، بائعون، مشترون، ومروجون لهذا اللحم الآدمي الحي، وأحياناً الميت.

لقد وصل العبيد إلى دول أوروبا الوسطى من أوروبا الشرقية، خصوصاً من الدول السلوفينية حيث وصلت هذه القبائل على شكل موجات. ملاحقة من جبابرة التاريخ وأحداثه المتغيرة التي بدلت مفاهيم الأوروبيين والعالم أجمع. وليس سراً القول إن عشرة ملايين ممن يتكلمون البولندية كلغة أم يعيشون في نصف الكرة الغربي. ولا يدخل في ذلك الرقم أولئك المتسحّبون القادمون مع الجحافل الهتلرية المهزومة في الرايخ الثالث. ولا أولئك الذين اضطروا إلى ترك أوطانهم لأسباب سياسية عام ١٩٥٦ إبان أحداث العنف.

وتعتبر الهجرات الأكرانية في الدرجة الثانية من هجرات النازحين. لقد ابتدأ الأكرانيون يهجرون وطنهم ودفء بيوتهم في الثلاثينيات، أعوام الأزمة

الاقتصادية. كانوا أولئك الأكرانيين العائشين على أرض بولندا حينئذ. والذين أقاموا لفترة ما في أوروبا، ثم عبروا الأطلسي بأعداد غفيرة إلى كندا والولايات المتحدة الأمريكية، بل، وخوفاً من الفقر، استمروا إلى أستراليا.

ولقد انسحب الكثير من الأكرانيين، وبأعداد غير مسبوقة، مع الألمان المهزومين. يقودهم رجل لا تحيط بسيرته الكتب والتحقيقات مهما كانت كبيرة ودقيقة اسمه ستيبان باندر. الذي نسجت حول اسمه الأساطير بصفته زعيم الهجرات السياسية الأكبر من أوروبا الشرقية والمنظم لها. لقد كان باندر قبل الحرب رجلاً ألمانيا عقد عليه القادة الألمان في الرايخ الثالث الآمال الكبار. ولقد جاء رجاله الأكثر إخلاصاً من سنيّ ما قبل الحرب إلى ميونخ، وتدربوا، وتهيؤوا للحظة الحسم. ولقد كانت مدينة ميونخ وما تزال قبلة أفكار النازحين السياسيين السابقين واللاحقين من الأكرانيين.

ولقد أُصيبت أرتال جيش الرايخ الثالث، خصوصاً كتيبة القصاص الهتلرية الشهيرة سيئة السمعة جداً، التي دخلت أخبار فظائعها دهاليز الإجرام العالمي، بالعجب العجاب من شدة قسوة وسادية رجال باندر وتعطشهم للدماء. أولئك الوحوش الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلاً حتى اليوم. ولا يمكن لشرورهم أن تقاس إلا بشرور كتائب لوبوريتش وفرانس وبافلوفيتش. لقد ذبح مجرمو باندر الأطفال وكانوا يذبحون أشقاءهم وجيرانهم ويطعنونهم بالحراب، وهو ما لم يفعله سوى رجال الجتنيك[1]. لقد أحرق رجال باندر الناس أحياء، ثم تركوهم يركضون مشتعلين.

---

١ - رجال الجيش الصربي الملكي ضد جيش الثوار وتيتو. امتازوا باللحى المرسلة والقبعات الباكستانية. - المترجم -

واعتبر جميع من لا يؤيدون دولة أكرانيا الجديدة الحرة المستقلة باندروفيين.لقد كانوا يقطّعون، ويفرمون أجساد الناس ثم يرمون لحمهم أمام كلاب ضباط «إس إس»[1].

ولقد تذابح الشوفينيون الأكرانيون بين بعضهم البعض. لقد قتل رجال باندر رجال ميلينكو، وهؤلاء رجال باندر ورجال بوليو الأشهر في الإجرام والشر. ولقد انسحب جميعهم إلى الغرب الذي أملوا منه الكثير. ومع المجرمين، وكما يحصل عادة، انسحب الكثير من الفقراء الأبرياء، الخائفين. وأضحت مكّة الأكرانيين، ميونخ، صغيرة لهؤلاء الملايين. لقد وصل عدد الأكرانيين المتواجدين على نصف الكرة الغربي، بمن فيهم نازحو الثلاثينيات خمسة ملايين إنسان، وأكثر. ولم يعد باندر يعمل لصالح الرايخ الثالث. وهنا يبرز السؤال الكبير: من هم سادته الجدد؟ فقال منافسوه أتباع بوليو وميلينكو: إنهم الإنجليز. وليس هذا مهماً، والأهم هي المعلومة بأن باندر، القائم اليوم على رأس قبيلة من خمسة ملايين إنسان طردوا من بيوتهم وأوطانهم، لهذا السبب أو ذلك الباعث، قد خطط وأسر وحافظ على مجموعاته تلك، وقتل جميع الأكرانيين الذين ساعدوا معنوياً ومادياً، طيلة مدة الحرب العالمية الثانية، القوى الديمقراطية، أي دول الحلفاء. ويمكن القول بحرية إن أسس الهجرات الأوروبية وأسس تكوين العصابات السياسية قد بدأت مع باندر، تلك التي ينعتونها اليوم باسم الإرهاب. لقد قاد باندر من بيته في ميونخ، من كتيبته، الكثير من العمليات. ولقد خار رجاله، ولصوصه، وخاطفوه، في جنوب بولندا. أحرقوا ونسفوا في الجزء الكارباتي الروسي. قتلوا وذبحوا في مولدافيا، بل ودخلوا إلى

---

١ - فرق الأمنيين النخبة من رجال هتلر.

تشيكوسلوفاكيا طالبين من السلوفاك الانضمام إليهم في أطهر وأشرف وآخر حرب للحرية واستقلال أكرانيا!.

ولم تتوقف عصابات باندر عند الحدود التي نراها على خرائط اليوم، بل اخترقوا عمق أكرانيا. مكونين مجموعات ثلاثية سوداء انتشرت تعيث فساداً. ولم يدخر صليبيو باندر السكان الآمنين. كانوا يقتصدون بالذخائر، ويفضلون إشعال النيران وشحذ السكاكين والذبح، ثم يلعقون الدم الأخوي منها. كانوا يرمون الناس أحياء في الآبار. ولقد تمّ سحب ١٧٨ جثة من أحد آبار مقاطعة جيتومير.

وفي تلك المقاطعة ضمّوا العديد من الكهنة الأرثوذوكسيين، معتقدين أنهم هكذا، بالمسيحية، بالمحبة والربوبية، يستطيعون العيش في هذه الدنيا. وكانوا يشجعون الخلافات وانشقاقات الأخوة عن بعضهم. لقد ذبحوا الأطفال أمام ذويهم، أمام الأطفال الآخرين. واغتصبوا البنات وهم يغنون:

حبيب القلب سردنكو...

تلك الأغنية التي نذكرها من أعمال أشهر الكتاب الروس، تلك الأغنية، التي شوهها رجال باندر لكل الأوقات و الأزمنة، ليست بحاجة إلى ترجمة، لأننا نشعر بدفء تلك اللغة الحبيبة. وليست أفعال رجال باندر الأشرار مصاصي الدماء بحاجة إلى تعليق، الذين سحبوا أفئدة الفتيات من أرحامهن وهن ميتات، عصروها، قبلوها، وهم يقنعون واحدهم الآخر أن القلب الأكراني يصرخ ملتاعاً، ينبض، ويعيش مدة أطول من جميع قلوب السلوفينيين الآخرين خصوصاً الروس.

VII

لا توجد أية كلمة في رسائل بافلوفيتش حول لقائه بالأكراني.
الأسطورة الثالثة تكيل اللوم على صوفيا، من براتي سلافا، المرأة المدمرة!

ولد ستيبان باندر سنة ١٩١٤ الشهيرة حينما اشتعلت الحرب العالمية الأولى. كان والداه مؤمنين أكرانيين، لم يخطر ببالهما أن ولدهما سيصبح النجم الأكبر اللامع في دنيا الإرهاب. وانتظرا اليوم الذي سيحضر فيه ولدهما المدلل ستيبان دبلوم الجامعة التقنية. لكن الابن انطلق في طريق لم يحد عنه طيلة حياته الصاخبة. وفي ١٥ يوليو ١٩٣٤ سنة الاغتيالات السياسية، يقتل ستيبان، الشاب الذي لم يشتد شعر ذقنه بعد ولم يبلغ العشرين، وزير الخارجية البولوني: بان بيراتسكو.

ويتم الحكم على ذلك الرومانسي الشوفيني الأكراني بالأشغال الشاقة المؤبدة. هكذا استلقى أصغر المغتالين وأكثرهم جنوناً في أوروبا ما قبل الحرب في سجن مدينة وارسو. ولم يتحرك بل كان يهدد.

سألوه: «هل يؤنبك ضميرك؟».

قال: «عن أي شيء؟» وابتسم.

«لقد قتلت الوزير بان بيراتسكو».

«يؤنبني ضميري جداً لأنه كان من الواجب نسف ذلك العاهر منذ زمن طويل. لهذا يؤنبني ضميري بل ويعضّني» أجاب باندر غير المكترث بكل لؤم.

«وأي شيء يشغل بالك أكثر وأنت في السجن؟».

«الانتقام» قال الشاب «بينما أعيش الأسر أنسج الانتقام!».

«أي انتقام؟».

«ستشاهدون ذلك، وتسمعون!».

«وممن ستنتقم؟».

«من الأعداء، من السيد الشيطان» قالها الشاب ذو النظرة البلورية من شفاه متشنجة: «ابتعدوا عني!».

في عام ١٩٣٩ تدخل جحافل الرايخ الثالث بولندا. ويسحب رجال الجستابو ستيبان من المنفردة المتجمدة، فيحييهم براحة مرفوعة[١]، ويصرح أنه لا يحتمل ضوء النهار. يصوره رجال الجستابو وهو يقصّ شاخاً طريقة إحلال العدالة، ويحدثهم عن جنون الساسة الأوروبيين، وأخيراً يحدثهم عن المستقبل المشرق الذي ينتظر البشرية. وكان الألمان يسجلون كلمات ذلك المتعصب الجائع وهو يهدر بها: الدم. الانتقام. العقاب، وهو يداري ضوء النهار عن عينيه. ويصرح أنه سيناضل للنهاية. كان عمره خمسة وعشرين عاماً حينما عادت صوره للظهور بقوة على أعمدة الصحف الغربية. ويظهر في إحدى الصحف الألمانية من برلين عمود كامل حول «الغضب البولوني اللا محدود». تحت صورة ستيبان باندر الرجل العادل من وارسو وهو يحمي الخوذات الألمانية، مع جملة «إذا لم يتبق بشر لتحقيق الهدف فسوف استعين بالشيطان» ومن العجيب أن تظهر جملة كهذه على الملأ عام ١٩٣٩!.

---

١ - طريقة السلام الهتلرية: هاي هتلر. - المترجم -

وكان ستيبان بصفته ظاهرة فريدة في الإرهاب يجرّ من خلفه القتلة الملوثين، والمغتصبين المفترين من برلين إلى ميونخ، ومن ميونخ إلى روما، وهو يجاهر بفخر كيف قتل بان بيراتسكو. وكان موسوليني وغيرنغ[1] مبهورين وسعيدين. وتم تقديمه لبافلوفيتش دكتور أنته[2]. الذي كان يحضّر حيثيات انتقامه. ولقد كان ذلك الرئيس المأمول لجمهورية كرواتيا المستقلة مسروراً ومبهوراً بشخصية ستيبان باندر. لكن باندر - كما يقال - لم يكلّف نفسه عناء النظر لذلك اللاجئ اليوغسلافي الفقير، الذي لم يتمكن من إثبات ضلوعه في الاغتيالات أمام بشر. لقد كان الآخرون يغتالون لحساب الدكتور أنته بافليتش. لقد كان ستيبان باندر يحتقره. ولهذا لا توجد أية كلمة في مذكرات الدكتور أنته حول لقائه بالأكراني.

ويبقى بافليتش دكتور أنته يتحرك مقهوراً بين بولونيا وفيرنتسا، وهو يتمرن على اختراق مدينة كارلوفاتس[3] من طرفها الجنوبي، متضرعاً ليل نهار لمريم العذراء كي تساعده بينما كان باندر الحديدي البارد يقف أمام جيشه الخاص الذي اقتحم أكرانيا عام ١٩٤١.

يتسلل بافليتش دكتور أنته إلى وطنه السابق يوغسلافيا، ويأمر رجاله أن يقيموا مذبحة لم يذكر لها مثيل في التاريخ. وسوف يحكم علم الجريمة السياسية يوماً مجيباً عن السؤال الأكبر مَنْ مِنَ الرجلين كان أكثر عنفاً، وأعظم شراً، وأبشع تحولاً باتالوجياً، أهو دكتور أنته أم باندر؟.

---

١ - نائب هتلر ووزير حربه. - المترجم -

٢ - رئيس جمهورية كرواتيا الانفصالية أيام الحرب. قضى عليه تيتو. - المترجم -

٣ - مدينة في كرواتيا - المترجم -

تنسحب جيوش هتلر ، بعد تحطمها في أماكن هامة عديدة، من أكرانيا. ويصف الرجل ذو القبعة السوداء باندر الألمان بالخونة، الجبناء، الرعاع. لكن المحاربين الألمان يستمرون في انسحابهم إلى الغرب لا يهمهم ما يفكر به تافه اسمه ستيبان باندر...

ولكي يخلد ذكره يشرب ستيبان الدم الأكراني الأخوي أمام رجال الصحافة وعدساتهم. ولم يكن لدى الألمان الوقت ليهتموا، بل ليهربوا، بينما يبصق من خلفهم الأكراني الشجاع المجنون وهو يصرخ ناعتهم بالخنازير، الأغبياء، المشركين.

ويبقى باندر لفترة أخرى في أكرانيا وفاءً لأفكار هتلر الانتقامية، وهو ينتقم!. وحينما اكتفى من شرب الدماء والجنون ينسحب هو الآخر. ينسحب ببطء وخبث. يحرق في بولندا وتشيكيا قرى بكاملها، ويصل مع فدائييه إلى النمسا. وكنت قد ذكرتُ في رواية رجال بأربع أصابع مركز تجمع المهاجرين النازحين ترايسن كيرشن، الذي يتم توريد الرجال منه إلى ألمانيا الغربية بالتدرج المعروف: زرندورف، أكبر وأوسخ مركز لتجمع المهاجرين النازحين في أوروبا حينئذ. يذهب إليه ستيبان باندر لكن بصفته ستيفان بولب مع الكثيرين من ذوي الأصابع الأربع طالباً اللجوء السياسي. ويحصل المستر بولب على اللجوء السياسي فوراً وهو يجرّ من خلفه مئات وآلاف المهاجرين الأكرانيين من ميونخ.

كان باندر يكرع البيرة البافارية بشراهة ويقود العمليات. ولقد تذابح هو الآخر مع أعدائه الأكرانيين أيضاً الموجودين بين صفوف رجاله. حارب رجال ميلينكو وبوليو من أجل الغنائم، ولزعامة هذا الشعب الذي أضاع رأسه بعدما وجد نفسه في المكان الذي لا يعود إليه. وإذا ما أخذنا في

الاعتبار الحقيقة القائلة إن باندر تذابح مع المهاجرين الروس، المناصرين للقيصر، ومع الانفصاليين، وغيرهم، لأمكننا القول إن يدي هذا الرجل المتعامل مع الجستابو من قبل الحرب كانتا مشغولتين دائماً ومدماتين.

ولقد نسج مجرمو تحت الأرض في أوروبا الغربية الأساطير حول باندر. لقد اكتسب هذا الإرهابي الأول والأكبر في سني ما بعد الحرب صفات خرافية. قيل إن الرصاص لم يكن يرغب به، ولم يتمكن من إصابته. كان - كما قيل - رجلاً من الفولاذ الخالص، لا يمكن اختراق جسده ما عدا رأسه وعينيه اللتين كانتا تنظران إلى مستقبل أكرانيا بصفتها دولة حرة مستقلة. صار مشهوراً ومحاطاً بمرافقته المدربة التي لبس أفرادها، كما في أيام الحرب، بذات سوداء وما يشبه المسننات المثلثة على القبعات، حينما كانت تذبح وتعيث فساداً. ولقد تعرض باندر أكثر من مرة للاغتيال. ولا يهم من كان المغتالون، فالأهم للأسطورة أن البلطات، وكرات الرصاص، والسكاكين، لم تفضله.

لكن ستيبان باندر، أو الياس ستيفان لولب، قتل أخيراً رشاً بالرصاص. كان ذلك في ميونخ ١٥ نوفمبر ١٩٥٩. بكمين محكم، وليلاً. وكما تقول الأسطورة فإن باندر، ذلك «التاراس بولبا الحديث»[1] لم يتمكنوا من إصابته في جنبه لأنه كان دائم الحركة، يعيش في حزام أمني بين رجاله ومرافقيه، لهذا أصيب في جمجمته، هناك حيث لم يكن محمياً بدرع ألماني فولاذي. أصابه قناص تواجد في الطابق العشرين من عمارة في ميونخ. بينما تورد أسطورة أكرانية نسجها المهاجرون بأن «ستيبان الكبير» قد تمّ قذفه من سطح بناية ذات عشرين أو ثلاثين طابقاً، وبأنه، قبل أن يستلقي ميتاً على أسفلت

---

١ - شجاع ضخم الجثة نسجت حوله الأساطير ويعتقد أنه شخصية خرافية. - المترجم -

ميونخ، قد لبد في الهواء فارداً يديه باتجاه أكرانيا الأسيرة في الشرق، وباتجاه أفراد شعبه من الملايين النازحين في الغرب..».

بينما تكيل الأسطورة الثالثة اللوم على امرأة، امرأة مدمرة من عصابات أوروبا ما بعد الحرب، اسمها صوفيا من براتي سلافا التي ما تزال تنعت نفسها حتى اليوم: بالسلوفاكي. «لأنها ما تزال حية، محبة للانتقام، وخالدة». ولم يستطع «تاراس بولبا الحديث»، المتواجد على أعمدة صحف أوروبا الغربية، مقاومة إغرائها وجمالها. تلك التي اعتقدت نفسها ذكراً. لهذا وقع ستيفان بولب، كما وقع الكثيرون غيره، في غرامها..

تتناوب الأساطير واحدة إثر أخرى. ولا أحد يعلم عدد الأساطير المنسوجة حول الأكراني الأكثر شراهة للدم في عالمنا الحديث، لولا ظهور رجل أمام شرطة مدينة كارلس رو، في الأول من نوفمبر ١٩٦١، طويل القامة، شاحب الوجه، قائلاً:

«أنا بوغدان ستاتينكسي. أكراني...».

«وماذا بعد؟» سأله أحد القضاة.

«أنا قاتل ستيبان باندر!» قالها بثقة مطلقة «أنا قاتل السيد ستيفان بولب!»

«ألم تكن القاتلة صوفيا سلوفاك؟».

«أنا الذي أطلقت على ستيبان باندر سيدي القاضي!» أكمل الرجل بهدوء تام، وهو يضع على المنضدة مسدساً صغيراً: «وإذا لم تصدقوا افحصوا كرات الرصاص التي جعلتُ من جسده مصفاة، إنها تحوي غاز السيانيد. وفي هذه الرصاصات التي أمامكم بجانب المسدس، وأسلمكم إياها بصفة رسمية يوجد غاز السيانيد. قارنوا أرجوكم سيدي القاضي!». هذا إذا لم يكن هذا

الحوار المؤثر في الأول من نوفمبر ١٩٦١ أمام قاضي التحقيق فلان الفلاني جزءاً من أسطورة دموية نسجها المهاجرون النازحون.

مهما يكن الأمر فبعد مقتل باندر لم يعد الإرهاب الأكراني يمتلك تلك القوة السابقة، ولا ذلك التطرف. وتبقى الكتائب والسرايا تتجه إلى مساعدة أكرانيا المبجلة، وهذا طبيعي، أكرانيا النازفة، إنما لا أحد يعرف أين سيصلون، ولا حتى في الأساطير. وإذا صدقنا بعض النازحين من ذوي الأربع أصابع فإن بعض الكتائب وصلت حتى مدينة كييف. وكان على رأس إحدى تلك المجموعات من المعذبين المدعو بوغدان بواندارنكو، الأمير الأكراني محروق الشاربين، ذلك المتاجر باللحم الآدمي الحي والميت من رجال بأربع أصابع...

ولا بدّ من ذكر حقيقة ماثلة أن عدد الأكرانيين خارج بلادهم بلغ حوالي خمسة ملايين. وتوجد جامعتان أكرانيتان، إحداهما في روما، والثانية في ميونخ. وتتم الدراسة باللغة الأكرانية. وباستثناء وجود معهد عالٍ تقني، وكلية للطب، وكلية للبيطرة، توجد جميع الكليات الأخرى. ولم تعد البيوت الأكرانية أعشاشاً للإرهابيين وبيئات حاضنة، كما كان الأمر سابقاً. ولقد أظهر الأكرانيون تفوقهم في الزراعة والصناعة في كندا وأستراليا ونيوزلندا. ولديهم صحف، كما عند الآخرين، ودور للنشر والكتب. ومنذ وقت قريب كان الآباء رجال الدين الأكرانيين يرتقون إلى رتبة كاردينال كاثوليكي، ولم يعد الأمر كذلك اليوم.

وإذا صدقنا منشورات المهاجرين فقد اشترى الأكرانيون قطعة أرض كبيرة وسط مدينة ميونخ لبناء البيت: سنكون جميعاً في مكان واحد، المدارس، السكن الجامعي، الكنائس، بنظام الكولج، إنما على الطريقة الأرثوذوكسية.

نعود إلى الزمن الذي كان فيه الأكرانيون أحط أنواع العبيد في أوروبا الغربية، حينما كان أتباع ميلينكو، وأتباع بوليو، وأتباع باندر، وآخرون كثر يخوضون الحروب السياسية فيما بينهم، بينما كان الآخرون في صالونات لندن وميونخ وبروكسل يفكرون في مستقبل العالم «الذي هو ثانية في ضائقة شديدة» وهم يشترون الصليبيين الأكرانيين بانتظام وحرية. ولا يفارق ذاكرتي ذلك الحوار الذي جرى في طرفة بين الألماني والنمساوي:

النمساوي: كم أكرانياً لديك؟.

الألماني: تقصد كم روحاً؟.

النمساوي: أسألك كم أكرانياً وسخاً تملك في إسطبلك؟

الألماني: بقدر عددهم الذي في عنقي. أيها الجار العزيز.

النمساوي: وكم يكون ذلك؟

الألماني: خمسة.

النمساوي: اعلم أن البولنديين أفضل.

الألماني: لنتبادل إذاً يا جاري العزيز. أعطيك سبع قطع بولنديين سكارى، وتعطيني أنت هذه القطع الخمس الأكرانية.

النمساوي: لا يمكن.

الألماني: وأعطيك «على البيعة» قرباطياً غاليتسياً!. وأهديك منشقاً فلاخياً أيضاً.

النمساوي: يا جاري العزيز. لن يصل البولندي في حياته في سوق النخاسة لمستوى الأكراني أبداً. لا أحد كالأكراني يجيد الحفر، واستخراج

الجزر الألماني، ومن شدة حزنه تراه يمضغ البطاطا النيئة!. ولا يوجد راعي خنازير أمهر من الأكراني! فلا تذكر أمامي القرباطي والفلاخي. لأنني سأبدأ ببناء.. محرقة أجساد موتى صغيرة!.». وحقيقة لم يتمكن المهاجرون النازحون في ألمانيا والنمسا وبلجيكا أو أية دولة أوروبية أخرى من امتلاك حقوق المواطنة كبشر، لهذا جننت الدعاية عدداً كبيراً منهم فاختاروا العودة إلى الوطن الأم، أكرانيا، التي لن تعود أبداً جزءاً لا يتجزأ من روسيا الكبرى. كانت مدينة زرندورف صغيرة لتحتويهم في شباكها التتنة. هكذا انتظروا، وبكوا، في حظائر الخنازير الأوروبية. وإذا صدقنا بعض المنشورات الصادرة عن المهاجرين فإن عدداً من مربي الخنازير الأكرانيين - وليس فقط الأكرانيين - قد أنهوا رحلة حياتهم بين العرق البركشيري[1]، والكثيرون منهم دفنوا هناك.

لقد كتبت في إحدى تلك المنشورات:

«يعتقد مربو الخنازير الذين نذروا حياتهم لذلك أنهم أفضل من أولئك الذين وقفوا ينتظرون اللجوء في تكساس أو في مملكة لوسوتو!».

وذكر في منشور آخر:

«كيف ذلك؟ ومن، بشكل عام، ضد تلك المملكة الصغيرة الأفريقية لوسوتو؟».

يجيب كتّاب المنشور الأول:

---

١ - مربو الخنازير المؤمنون بألوهية الخنزير، وقد اختلطت دماؤهم مع دماء الخنازير، وقاموا بأفظع الأعمال المشينة. - المترجم -

«إحداها أكرانيا!».

وبهذا تغلق قضية الهجرة والنزوح.

VIII

يوغسلاف سابقون بالكيلو! من بلّوبوليه[1] إلى كوريا. لماذا يلد أطفاله خرساناً؟

كل من تلكأ في أوروبا الغربية، في أيام وسني ما بعد الحرب، في امتلاك أكراني تحته، من عساكر ستيبان باندر، أو روسي من جيش فلاسو المتفسخ، أمكنه تعويض ذلك بشباب يوغسلافين.

فعلى أرض أوروبا الغربية وجد عدة آلاف من اليوغسلافيين: من أسرى الحرب الرافضين العودة إلى ديارهم في البلقان، بالناقلات المهترئة، الذين تمّ شراؤهم وسياقتهم إلى ألمانيا لما يسمى «الأعمال الطوعية» من بقايا الجيوش الملكية الذين لم يستطيعوا إظهار صورهم مع أعضاء وقادة «إس إس» وهم يعانقونهم ويقبلونهم مظهرين الولاء، ومع الإيطاليين، وأتباع ناديتش وخورفي، مع الحراس البولنديين وأشباه الحراس، الحثالة بثياب رسمية، والمتطوعين من رجال لويتش، من المثقفين نسبياً، المنظّرين، العلماء الصربيين المؤكدين أفضلية العرق الآري[2]، وكتائب البزات البيضاء السلوفينيين، الذين لا تقل شرورهم وإجرامهم عن الأكرانيين المذكورين، حارقي البيوت والمزارع في دولنسكا، وأولئك المطلوسين بالسواد يقودهم رجال الدين الكاثوليكيين، والجواسيس بأشكالهم، الأوستاشيين الذين لم يفلحوا بتجميع شتاتهم لأن رأسهم المدبر بافيليتش دكتور أنته قد تسلل يختبئ في خمة

---

١ - مدينة صغيرة في يوغسلافيا. - المترجم -

٢ - العرق الآري الذي اعتبره هتلر العرق الأنظف، العرق الألماني. - المترجم -

الدجاج والحظائر في النمسا، وفي الأديرة. ولم يضاه أحد أولئك الكروات في اتهاماتهم للألمان ولومهم على خسارة الحرب، المقدسة كما قالوا. ولقد كال الأوستاشيون اللوم إلى بعضهم البعض أيضاً، تذابحوا واقتتلوا مثل كتائبيي باندر، في حرب من أجل الغنائم، ومن أجل السلطة، من أجل الميداليات وصلبان الرايخ الثالث، تلك الصلبان التي رماها أو خبّأها كل ألماني ذكي أو واقعي «على الأقل ريثما يرحل الحلفاء»، من أجل الذهب والكنوز العائدة لدولة كرواتيا المستقلة، المطمورة إبان الحروب قرب فيلاخ، والتي كانت السبب الأساسي للمهاترات والمناظرات، للاتهام والذبح غيلة أثناء النوم. وسوف نتحدث لاحقاً عن الذهب الذي أخفق الرهبان الكاثوليكيون في العثور عليه لصالح أخيهم في المسيحية والهتلرية الدكتور أنته[1].

ولن أتحدث عن المنحرفين الآخرين السلوفينيين، والألبانيين، والبلغاريين، والتشيكيين، والرومانيين، والمجريين، عن أولئك الدهماء بالملايين، الذين جننوهم، وأعموا بصيرتهم بالأكاذيب السياسية، والدينية والكنسية البعيدة عن الدين، بالعنصرية والشوفينية، المتواجدين في أسواق اللحم الآدمي الحي أو نصف الحي. ولا بد من ذكر الألمان، أولئك الذين تقاسموا المصير الأسود مع ضيوفهم غير المدعوين، المحشورين في الحرب حشراً، الملاحقين في درب اللا عودة، أولئك المتسكعين المساكين التائهين في بلاد مدمرة، يبحثون عن أحبتهم آملين في العثور عليهم. قوافل من المشوهين كانت تتسحّب على تلك الطرقات يقودها العميان والشحاذون، والمتسكعون الكاذبون، المموهون وهم قادة سابقون في الرايخ الثالث. ولقد

---

١ - القائد الكرواتي الذي كان مرشحاً لرئاسة جمهورية كرواتيا الحرة لو تكونت. حليف الألمان. ضد الثوار. - المترجم -

سارع البعض للوصول إلى بيوتهم، والبيوت لم تعد موجودة، وبهذا اتسعت أسواق النخاسة للحم الحي ونصف الحي من المهاجرين والنازحين، وازداد العرض. وبكى الكثيرون من أشقياء أوروبا الشرقية الجدران الألمانية المهدمة، الخنادق، المتاريس والدشم. وفي الوقت الذي فكر به هربرت[1] أنه يشتري إيفان، كان في الحقيقة يشتري كورت. وبالطبع فقد وعيه!.

ولنعد لليوغسلاف.

هكذا كان يتحاور فرانس وأرنست الألمانيان:

فرانس: اشتريت ألف كيلو غرام من اللحم الحي اليوغسلافي: جلد وعظم!

أرنست: وكم رأساً يعدّون؟ خمسة عشر؟.

فرانس: عشرون.

أرنست: لذلك هم حقيقة جلد وعظم!.

فرانس: وكم كيلو غراماً اشتريت أنت من اللحم اليوغسلافي؟.

أرنست: مثلك ألف كيلو غرام، لكنهم بلغوا خمسة وعشرين رأساً.

فرانس: إنهم عمالقة إذاً يا جاري العزيز! أية فظاعة..

أرنست: تمّ علفهم في مخيمات داهاو! وهم لا يريدون العودة إلى بلادهم في الجنوب. تصور.

فرانس: تريد القول إنهم رحّل، فجميعهم قرباط!

---

١ - هربرت وكورت اسمان ألمانيان. إيفان اسم سلوفيني: أي عوضاً عن أن يشتري الألماني سلوفينياً وجد نفسه يشتري ألمانياً، ففقد وعيه. - المترجم -

أرنست: أجل قرباط بعيون زرقاء، أذكياء في أغلب الأحيان. ويمكنني القول إن لديهم بيدكريه[1]. إنهم عجيبون. قرباط محترمون، أنيقون، لا يرغبون بالذهاب إلى أهاليهم.

فرانس: وماذا سنفعل بهم يا صديقي؟

أرنست: سنسمنهم، نلبسهم ونغذيهم، ثم نبيعهم! والذي لا يرغب بشرائه أحد نضعه في الحقول، في الحظائر!. ومن حسن حظي أنهم جميعاً مختونون!

فرانس: من السهل القول: نبيعهم. إنما لمن؟ فالمواد البشرية اليوم لم يعد لها قيمة أبداً.

أرنست: سننتظر يا جاري العزيز، ثم ننتقم منهم، فهم المذنبون لخسارتنا أعدل حرب في تاريخ البشرية وفي كل العصور. تذكر فقط كيف كنا نعلفهم، ونداويهم، ونربيهم! انتظر.

ولقد اشتهرت المواد اليوغسلافية الحية وذاع صيتها. وهجم على شرائها السماسرة من أمريكا الجنوبية، ممثلو شركات النقل البحري، تجار المخدرات. أصحاب مزارع القهوة والفواكه الجنوبية، أصحاب الورشات، تجار البشر عموماً، هجموا على تلك البضاعة المحفور على صدورها علامة «يو»[2] يحمّلونهم على السفن، يتممون بهم كتائبهم، أو ينشئون كتائب جديدة.

ولقد أثبت اليوغسلافيون جدارتهم بسرعة في قارة أمريكا الجنوبية. كثيرون منهم أضحوا رعاة ماشية وملاكين للمراعي الأرجنتينية. وبعضهم فضّلوا تربية العجول والأبقار والخيل والخنازير. وبعضهم مارس المهنة التي

---

١ - الوثيقة المصاحبة للحيوان وفيها اسمه، وفصيلته، وجميع المعلومات عنه. - المترجم -

٢ - يو: علامة مختصرة تشير إلى اليوغسلافي. - المترجم -

كان يمارسها في وطنه سابقاً، أو حينما عمل في خدمة هتلر وموسوليني وهورتي، وغدا شرطياً، أو رجل أمن، أو جلاداً، أو خبير تعذيب. وليس سراً القول إن اليوغسلاف نظموا وأحكموا قبضتهم على شرطة جمهورية الدومينيكان، ما حدا بالديكتاتور تروخيلو اعتبارهم رجالاً لا يمكن الاستغناء عنهم واستبدالهم. وكان هؤلاء الجلادون اليوغسلافيون من ياسينوفاتس مخيم التعذيب الأشهر، ومن رجال بويوفيتس، ولوبوريتش، وفرانكوفيتش، أحباب الدكتور أنته، قد نظّموا ودربوا جميع رجال الداخلية لدول صغيرة أمريكية جنوبية مثل الأورغواي والباراغواي. ولم يستطع الضباط والانقلابيون مجرد تصور تثبيت حكمهم من دون هؤلاء الأوروبيين الاختصاصيين ذوي الخبرة الكبيرة. ويحكى أن بعض الانقلابيين التشيليين قد وظفوا هؤلاء اليوغسلاف السابقين بصفة مستشارين، خصوصاً أولئك الذين اشتهروا في تنظيم وملء مخيم ياسينوفاتس سيئ السمعة.

وكان السماسرة من أجناس أخرى، خصوصاً الأمريكيين من أصول يوغسلافية، يحومون ويشترون اليوغسلاف السابقين بالأطنان، أولئك الذين كانت الحرب تجري في عروقهم ودمائهم. لقد تمّ تحميل السفن برجال تدربوا ولبسوا البزات الأمريكية، وحلقوا شعورهم على طريقة «لاجوني»، وأبحروا، ليس في المحيط الأطلسي، بل الباسيفيكي، باتجاه كوريا حيث كانت الحرب تشتعل.

لقد اشتهر اليوغسلافيون الذين كانوا في الصفوف الأولى، كتفاً إلى كتف مع السود. وكان الجرحى منهم يعالجون كالآخرين، بل وبشكل أفضل أحياناً. كان اليوغسلاف يحرقون بيوت الكوريين، ويفعلون كل ما كانوا يفعلونه في البلقان. يسلخون الأطفال، ويذبحون الآباء، ويكومون جثثهم في تلال، وكل ذلك بناء على اتفاق خطي موقع سابقاً في مكان ما من

النمسا، في ترايسن كيرشن، ذلك المخيم لتجمع النازحين من الشرق، ومن زرندورف، التي تكلمت عنها بإسهاب، ولو أسعفني الوقت والمكان لتحدثت عنها بإسهاب أكثر، إلى بريمن التي تمّ تأهيل مينائها لاستقبال السفن الأكبر، إلى هامبورغ التي انطلقت منها أكثر السفن باتجاه كوريا حاملة اليوغسلافيين من جميع الملل، والأستونيين، واللتوانيين، والكاجوبيين[1] من غدانسكا...

وكان عدد اليوغسلاف العائدين من المذبحة الكورية قليلاً. كانوا شجعاناً، محبين للدم، في الصفوف الأولى وفي «أشرف الأماكن»، لكنهم قتلوا، ليس بصفتهم من العرق الأصفر بل الأبيض، الأبيض المتفوق، وبالاتفاق والقسم المعطى للقادة في اليوم الفلاني والمكان الفلاني، وكلّه باسم «الحرب ضد اللون الأحمر»[2] ضد الكفار، والعهر بصورة عامة. وبقيت العظام اليوغسلافية في الشرق الأقصى، بينما وضعت جثث الجنود الأمريكيين في أكياس أنيقة وأرسلت إلى العالم الجديد، لأهلهم، لعائلاتهم، بينما أرسلت لعائلات اليوغسلاف السابقين رسائل معسولة، وأوراق نقدية من فئة ١٠ أو ٢٠ أو ٥٠ دولاراً أمريكياً، اعتماداً على المبلغ الذي اتفق عليه ووقع ميخائيل سابقاً، والآن مايكل، يوفانوفيتش والآن جونسون. وما زالت بعض العائلات حتى يومنا هذا، من حوالي كولاشين، وبلوبوليه، وكوسبيتش، وكارلفو[3]، والمكان الجديد، تقبض هذه «الخرجية» بالدولار. هذا ثمن أولادهم، الذي اتفق عليه الأخوة في بريمن سابقاً، ويُرسل الآن، بانتظام مع بطاقة تهنئة كل رأس سنة. ولا تعرف هذه العائلات، ولن تعرف أبداً أن

---

١ - جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقاً. - المترجم -

٢ - الشيوعيون. - المترجم -

٣ - قرى يوغسلافية ونواح.

الأحباء والأولاد قد بيعوا وتمّ شراؤهم، بأنهم ذهبوا بالكيلو غرام، وأن أثمانهم قد تسللت إلى جيوب الشاطرين. وما زالت الكثير من العائلات، وهو ما نعلمه جميعاً، تعيش حتى اليوم على أمل عودة الأبناء، والآباء، والأزواج، والأخوة، يوماً ما، وبأنهم سيرقدون جميعاً في المقبرة ذاتها.

أعرف حادثة: لقد انسحب أحد اليوغسلافيين سنة ١٩٤٥ مع جيش الجتنيك[١] رجال بافله جوريشتيش ونجا من المذبحة الشهيرة عند كراديشكا. حينما هاجمهم الأوستاشي[٢] فجأة في نومهم. ونجا من حادثة الجسر الحجري، ووصل إلى النمسا، لكنه وقع هناك في الأسر، وأرسلوه إلى سيبيريا. ولا يعرف هو نفسه كيف نجا هارباً من سيبيريا، واتجه غريزياً نحو الشرق الأقصى. وبعد عدة سنوات من السير مقوداً بغريزة تشبه غريزة الوحش، كالموجهة في المياه نحو المصبّ، وصل إلى ميناء. هناك خطفوه وسرقوه وحملوه على قارب وأرسلوه إلى الجبهة الكورية. ولم تصبه أية شظية رغم شجاعته. وعند انتهاء الحرب يقفز رجلنا هذا على متن سفينة متجهة إلى المتوسط، ومنه إلى المحيط الأطلسي. ويقفز من القارب على أرض إيطالية، تقوده الغريزة ثانية باتجاه الشمس نحو الشرق، ليس الشرق الأقصى، بل الشرق اليوغسلافي. هكذا تواجد بعد ثلاثين سنة من الخوض في العذاب في بلدته بلوبوليه. ويحكى أنه اليوم يعيش كالآخرين، ولا يمكن تمييزه عنهم، عدا فقدانه القدرة على الكلام. صار يكتفي بالنظر، وهو يقرأ على شفاه الآخرين ما يودون قوله، بينما يقرأ الفلاحون من عينيه. وإذا صدقنا حكاية السكان فإن أولاده يولدون دائماً خرساً.

---

١ - رجال الجيش الصربي الملكي ضد الثوار.

٢ - والأوستاشي رجال الجيش الكرواتي الانفصالي ضد الثوار. حاربها الثوار بقيادة تيتو. - المترجم -

IX

خمس قطع بولندية لقاء خمسة رؤوس مجرية!

اشتعلت أحداث الصخب في بولندا عام ١٩٥٦. ولم نكن لنذكر ذلك لولا هجرة آلاف البولنديين الذين تركوا ديارهم منطلقين من ميناء كدانسكا المسمى قبلئذٍ دانسينغ، ووجدوا أنفسهم يحملون صفة لاجئين في نصف الكرة الغربي. بعضهم هرب من خلال تشيكوسلوفاكيا ووصلوا إلى مركز تجمع اللاجئين ترايسن كيرشن، أو زرندورف المصغرة. وهرب الآخرون من خلال جمهورية ألمانيا الشرقية الديمقراطية، ووصلوا إلى بافاريا.. هكذا امتلأت زرندورف ثانية بالبولنديين، وفاضت.

طلب البولنديون اللجوء، كما كانوا قد طلبوه مراراً وتكراراً في تاريخهم. كانت أكثر الطلبات تفضل كندا، أستراليا، ونيوزلندا. لكن ما حدث لهم هو ذات ما حدث للآخرين. لقد تمّ بيعهم وشراؤهم، فيما كانوا ينتظرون ذلك اللجوء، والسمسرة بهم من يد إلى يد. ولا يعلم اللاجئ أنه قد تمَّ شراؤه، أنه لم يعد ملك نفسه، ولا يعرف من اشتراه في اليوم الفلاني وبكم من الدولارات أو الماركات الألمانية.

ولقد تصادق البولنديون مع اليوغسلاف المهاجرين الذين كانوا قد كوّنوا مجموعات متمكنة من اللصوص، المسماة كتائب. وابتدأ البولنديون يشرّحون مع إخوتهم اليوغسلاف مهاجمين قطارات الليل، والمحطات، والأحياء الهادئة. ولم يعد سراً أنهم عام ١٩٥٦ قد سرقوا المحاسبين، والخزائن الحديدية، والمخازن التي تبيع الأسلحة الخفيفة، وبعض المخافر

الأمريكية قرب ميونخ، برفقة أشقائهم اليوغسلاف، يقودهم شاندور كولار الفظيع بطل رواية رجال بأربع أصابع. ولقد تمّ التعتيم على تلك السرقات، لكنهم نعتوا أبطالها في أحد الأمكنة باسم «الكتيبة الشيوعية» السلوفينية وأضف عبارة من الدرجة الأولى!

«اشتريت خمس قطع بولندية!» هكذا تم نعتهم سنة ١٩٥٦ الخطيرة.

مئة قطعة بولندية. عشر قطع بولندية. عموماً كانوا يباعون بالقطعة، ذلك التعبير العائد إلى أواسط القرن التاسع عشر، حينما تدفق البولنديون على الغرب، وحينما كانوا يباعون ويُشترون وينتقلون بالسمسرة من يد إلى يد من دون ثمن.

وليس غريباً أن جزءاً من أولئك البولنديين انتسب إلى الإرهابيين المتشردين الذين تمرنوا وركضوا حول بحيرة بودنسكا، وقفزوا بالمظلات، وهم يتمرنون على احتلال كييف، وأوديسا، وزغرب. وكل ما كانوا يفعلونه إنما فعلوه لتبجيل العذراء أم الرب. عذراء جميع العذارى...

في تلك السنة ١٩٥٦ ذاتها تفرّغت دولة المجر نسبياً من سكانها. لقد هاجر المجريون بأعداد كبيرة إلى الغرب من خلال النمسا وترايسن كيرشن وذاعت الأغنية المجرية القائلة إن نهر الدانوب خرج عن مجراه من شدة حزنه على شعبه. وبأن الناس والرياح أعادوا الدانوب بصعوبة بالغة إلى مجراه.

مهما يكن الأمر فقد تواجد ملايين الناس على أراضي أوروبا الغربية. معظمهم لم يكن يجيد أية لغة أوروبية. لهذا كان تكيّف المجريين، أولئك المهاجرين الجدد، صعباً في الانخراط بتلك الكتائب اللصوصية. ولهذا نشأت فوراً بعض المجموعات المجرية الإجرامية، التي لم تهاجم القطارات

الليلية فقط والمحطات، كما كانت تفعل سرايا المجرمين اليوغسلاف والبولنديين، بل كانوا يهاجمون القرى، الاصطبلات والخممة[1] والحظائر. وذاعت شهرة المجريين اللصوص من عام ١٩٥٦، بصفتهم شديدي الدقة بحيث يمكنهم سحب البيض من تحت الدجاجة دون أن تشعر.

كان المجريون يحلمون بالذهاب إلى بلاد ما وراء البحار، خصوصاً كندا والأرجنتين. إلى حقول أستراليا ودول الاتحاد الأفريقي. لكنهم ظلوا في أوروبا، مسفوحين في دول السوق المشتركة، وبدؤوا بزراعة الفليفلة.

وبالرغم من شهرة المجريين بصفتهم من أفضل مربي الخنازير، والبقر، وتربية الحيوانات، وبأنهم من أفضل جامعي البطاطا والجزر في أوروبا الغربية كلها، إلا أنهم لم يقفزوا للمركز الأول في سوق اللحم الآدمي الحي ونصف الحي للاجئين الهاربين. وبكل أمانة نقول إن المجري لم يكن له سعر أبداً. ففي الوقت الذي كانوا يَزِنون فيه اليوغسلاف بالكيلو غرام، وباعوا واشتروا البولنديين بالقطعة، كان المجريون مجرد رؤوس، فتناقل الناس:

«لقد اشتريت خمسة رؤوس مجرية. ولا يعلم إلا الله ما أنا فاعل بها!».

ولقد هاجرت أعداد ضئيلة من المجريين من القارة العجوز أوروبا. ولقد تفوق الهاربون المجريون بشكل أفضل من كثيرين غيرهم، بمن فيهم اليوغسلاف أنفسهم. وكانت أعداد المجريين المنتسبين إلى المنظمات الإرهابية السرية قليلة، تلك التي كونها المهاجرون الاختصاصيون القادمون من أوروبا الشرقية والبلقان.

---

١ - جمع خمّ أي قنّ. - المترجم -

واشتهر المجريون بصفتهم موسيقيين من الدرجة الأولى، باجتهادهم، وعملهم، وطاعتهم. وبصفتهم سحرة، ولاعبي خفة، ومراوغين ماهرين في كرة القدم، وبصفتهم مزارعين مبتكرين. لقد زرعت الهكتارات الكثيرة بالفليفلة ذات القرون، والأفرنجية، مما أشعل تنافساً خطراً بين الفليفلة المجرية والبطاطا والجزر الألمانيين!.

لقد مهر المجريون بطابعهم الكثير من الأشياء التي تصادفها في كل خطوة بحيث لا يوجد مطعم، بدءاً من مطاعم المحطة، وانتهاء بالمطاعم الفخمة الشهيرة، إلا وعلى قائمة طعامه، بجانب الفاصولياء البيضاء الصربية، والراكيا[1]، يتواجد الكولاش المجري، والسلطة المجرية، والبابريكاش[2] المجري. خصوصاً السلطة المجرية التي يؤكد الألمان أنها مصنوعة من سموم بانونية. لقد كشف المجريون لعالم أوروبا الغربي، الجليدي والمغلق، المتع الكاذبة، الكيف، والجارداش[3]...

---

١ - مشروب كحولي يشبه العرق إنما من دون يانسون يصنع من تقطير الخوخ أو العنب. - المترجم -

٢ - مأكولات مجرية تشبه مسقعة الخضار عندنا. - المترجم -

٣ - الغناء والموسيقى المجرية الرائعة والرقص. - المترجم -

X

أذن ستالين في حقيبة حقيرة ملوثة بالغائط مليئة بالدود. متى شوهدت جوزفينا، خنزيرة العنف لآخر مرة؟

لن أنسى ما حييت رجلاً مجرياً. كان صحفياً هرب من بلاده سنة الأزمة ١٩٥٦ قادماً إلى يوغسلافيا من خلال هركوش. أعتقد كان اسمه ميكلوش.. وفي بودابست كان ينتمي إلى دائرة الفن السياسي الشهيرة «بتفي». وكان يقود الثورة المضادة من هناك. وفي يوغسلافيا أقام في مدينة بلغراد العاصمة في فندق البلقان. وزرته عدة مرات. كان لديه حقيبة ضخمة قديمة سوداء رقدت في داخلها سعادته كلها.

ولقد تمَّ استقبال ميكلوش في أي مكان، وكل مكان، بكل سرور. كان أنيقاً، هادئاً، بل ويمكن القول صريحاً أيضاً. يتكلم الفرنسية والألمانية و«يلطّش» بالروسية. وما أزال أذكر حفل العشاء الذي أقيم على شرفه وكتاباته عن الأزمة العاصفة في بلده في خريف عام ١٩٥٦ بالغ الخطورة. كان يبدأ كل حكاية وينهيها بوصف هدم تمثال ستالين. كان حاضراً حينئذ مع الكثيرين من دائرة الفن السياسي «بتفي» وكانت تصور هدم ذلك التمثال الضخم العملاق أيد كثيرة بكاميرات كثيرة. وكان لدى ميكلوش واحدة بالطبع، التقط بواسطتها ما أسماه صور هواة ظهرت على جميعها قامة جوزيف ستالين محنية.

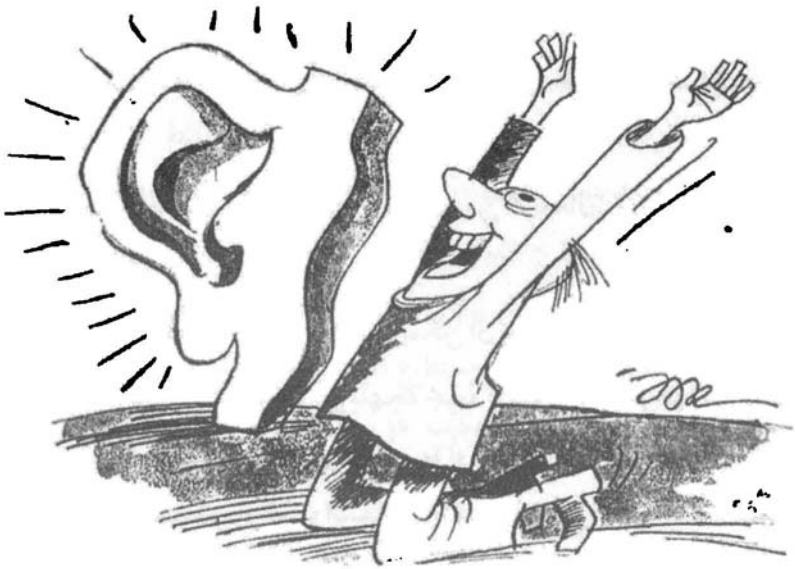

وبالرغم من هدوئه ودمائته كان ميكلوش حريصاً. زرته مرات عدة كما أسلفت. لم يكن يفتح تلك الحقيبة. وكل ما كان يشتريه أو يأخذه يضعه في حقيبة أخرى وكيس أسود. ولقد شابهت حقيبته المغلقة أبداً، السوداء، المسمرة بالأخشاب قبراً لا يلامسه أحد، حتى يظن الناظر إليها أنها ليست ملكه...

سافر ميكلوش من بلغراد إلى باريس، وأقام هناك، وأصبح ما كانه في المجر سابقاً: كاتب كاثوليكي من الدرجة الخامسة. ولقد تقابلنا في باريس عدة مرات. وكان يعاني من الأكزيما الجلدية، وخسر شعر رأسه بسرعة، تفوح منه رائحة بشعة كالتي تفوح من جميع الأيديولوجيين الكنسيين. قال لي مرة:

«شكري إلى يوغسلافيا لا يوصف وماله حدود».

«من الجميل سماع ذلك يا زميل».

«ولعلك يا زميلي العزيز لا تعرف كم أذكر ذلك وأنوه به دائماً؟».

«في الحقيقة كلا» أجبته. وأنا أنظر إلى يديه اللتين قاربتا على عمل حركة التصليب.

«ولم يتم فتح تلك الحقيبة». وأحمّر وجهه من الانفعال: «لا في بلغراد ولا على الحدود».

«لطيف يا زميل» أجبته «وما الذي يمكن أن يوجد بداخلها؟».

«أذن ستالين!» قالها ميكلوش بلهجة مجرية قاسية: «لقد سرقتها من ذلك التمثال البودابستي[1]. فلقد شعرت بنبوءة أو ما شابه بأن أذن جوزيف، أذن بهذا الحجم، ستجلب الحظ والسعادة. ولقد جلبت لي تلك الأذن أشياء أخرى وليس الحظ فقط».

«وما الذي فعلته بأذن جوزيف فيساركموفيتش؟»[2] سألته متذكراً الحقيبة العتيدة التي غطاها الغبار في الغرفة على الطابق الأول.

«ذاع خبر ما أملكه بين المهاجرين اللاجئين» قال شاكر يوغسلافيا للأبد ميلكوش، وأضاف: «جاءني رجل أمريكي حالم، جامع تحف نادرة. عرضت أمامه الوثائق جميعها، والصور المكبرة، وبالألوان، التي أظهرت بوضوح بأن الأمر لا يتعلق بأذن أخرى. قام يقارن، وجاء بخبرائه، وكان لدي خبرائي. وأخذنا نتجادل على السعر، حتى اتفقنا أخيراً على المبلغ الضامن لي معيشة كل العمر: ٢٠٠٠٠ دولار أمريكي».

---

١ - نسبة إلى بودابست عاصمة المجر. - المترجم -

٢ - جوزيف ستالين. - المترجم -

وحينما عكفت على كتابة رواية رجال بأربع أصابع كنت أتذكر ميكلوش، ذلك الكاتب القصير القامة، الكنسي، الذي كان يخجل من لغته الأم. وتذكرت الحقيبة البشعة السوداء الملوثة بالغائط المليئة بالدود المصنوعة في عهد دولة النمسا - المجر، التي اعتبرها ذلك المعتوه الأمريكي جامع التحف النادرة - تعبير ميكلوش - نادرة، ودفع مبلغ ٢٠٠٠٠ دولار، الذي بدا بالنسبة لي وكأنه خلق لروايتي مع ميكلوش مالك هذه الحقيبة الغارقة في القدم. لكنه استطاع التواري عن ناظري آنذاك كما توارى غيره كثيرون، مما يجعلني أعكف على كتابة هذه الأحداث، الذكريات الدونية...

لقد وصفتُ تلك الحقيبة الملوثة بالغائط، المليئة بالدود، بكلمات مناسبة وكراهية شديدة. وفي الرواية كانت عائدية الحقيبة للغول الرئيس، ريتشارد قلب الخنزير، الأشهر بين جميع الدراكولات[1]، السياسيين آنذاك. الأمير الخنزيري الباغانيني[2] البافاري، الشبح الذي لا يمكن تحديد عمره أو شكله. العائش في جبال الألب، في القصر المعروف في الأدب بالخنزيري. هناك حيث يحاك الشر ويُنظّر له، الشر القديم الذي باتوا في العصر الحديث ينعتونه بالإرهاب.

وكان ريتشارد يعيش في قصره مع آلاف البركشيريين، يهيئ الإرهابيين الذين تم عرضهم بوضوح في الكتاب، فينهالون على المطارات، السفارات، القنصليات، وعلى بيوت الناس الآمنين، أولئك الكارهين للون الأسود كما

---

١ - دراكولا: الغول. - المترجم -

٢ - موسيقار إيطالي شهير. - المترجم -

يكرهون المرض، وقد ائتمن ريتشارد، ميكلوش، على تلك الحقيبة التي ينام بداخلها، حتى إذا هبط إلى الأرض خرج منها، وتابع مسيرة العنف وتاريخه. خصوصاً السياسي منه. وكان لدى ريتشارد، إضافة إلى حقيبته عوضاً عن الكلب، خنزيرة سوداء بوردة بيضاء على جبينها، جوزفينا، وهو يطعمها اللحم السلوفيني الجنوبي الحي وأعضاء بشرية من أولئك الذين تم اختطفاهم وتشويههم من العمال الأجانب، والمجرمين، ورجال بأربع أصابع.. لا يهم. وتمضغ خنزيرة العنف... ذلك كلّه، متتشية تمزّز بينما يكون الشبح ريتشارد، شبح الماضي والحاضر، يعزف فوق «لحم السلوفينيين الجنوبيين الكفار» كما يقول.

ولقد جعل ريتشارد من جوزفينا، التي كانت تجبر جميع المخطوفين على حفظ تاريخها عن ظهر قلب، أفظع الخاطفين المثاليين، اللصوص، والقتلة. كان يرسل عن طريقها البريد، تلك الطرود الحاوية على المتفجرات، لتنفجر أمام القنصليات والشركات، وتفتك ألغام دراكولا، والقنابل ثلاثية التفجير التي تطلق رذاذها أولاً، كما يقول، بالآمنين. وكان يهدد بأنه سيرسل في لحظة ما عشرات، بل مئات، الكيلو غرامات من الحشرات السوداء التي لا تموت، وينشرها على كامل تراب أوروبا، خصوصاً يوغسلافيا وتشعباتها. مطعمة بالقمل، والصئبان، والعنكبوت، والبعوض، والكثير من الحشرات صلبة الأجنحة، المنتجة على مزرعته من بذور آسيوية وأخرى غير معروفة. كي يكون مفعول الجائحة معادلاً لزلزال يدمر العالم كله.

وكان ريتشارد قلب الخنزير يصرح بأنه لا يوجد إرهابي ينطلق لتنفيذ شروره إلا ويتمّ تنظيفه أولاً بحليب جوزفينا «حبيبته ومختارته» ويؤكد أنه

مبدع الهجوم على السفارة اليوغسلافية في ستوكهولم في ٧ أبريل ١٩٧١. وبأنه شرح شخصياً لـ برايكوفيتش وباراشيتش[1] والآخرين كيف يطلقون على السفير رولوفيتش. ويذكر أن جميع تلك الأعمال التي يحتج ويحزن بسببها جميع سكان الأرض العقلاء هي من بنات أفكار هذا الأمير من الألب البافاري، ذلك الموسيقار، والكيميائي، والارستقراطي، الذي يخترع نباتات سمية قاتلة جديدة وأمراضاً فتاكة جديدة، وأخيراً كلمات جديدة وأحاسيس...

هذا ما أوحت إلي به حقيبة ميكلوش من عام ١٩٥٦!

---

١ - إرهابيان هاجما سفارة يوغسلافيا في ستوكهولم، السويد، واغتالا السفير وأعضاء السفارة. - المترجم -

XI

سأقتلك برجلي التشيكي!

تؤكد صحف أوروبا الغربية استناداً إلى معطيات وأرقام الأجهزة المعنية بالمهاجرين السياسيين والهاربين بأن مليون شخص قد هاجروا من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨. وذكرت أعداد البهمانيين وأعداد المساراين: أوهام فجة ساقها ألوزيا لاعب الشطرنج الأشهر، اللاجئ، والسياسي الكبير المتوفى منذ زمن بعيد. وكان السماسرة، قناصو الرجال، صيّادو المواد البشرية الطازجة اللاجئة الهاربة من التشيكوسلوفاكيين يتسكعون على طول الحدود التشيكية النمساوية أو التشيكية الألمانية الغربية، وينتظرون.

لقد استسلم التشيكيون والسلوفاكيون ووافقوا على كل شيء، وأولها موافقتهم على تلك اللاصقات الفجة التي أعطيت لهم لوضعها على الأكمام. كانت الحرب في فيتنام على أشدها، فطلب الكثير من الشباب المساراين الهادئين المسالمين الذهاب طوعاً إلى الشرق الأقصى ليشاركوا في الصفوف الأولى من القتال، مصحوبين بالوعود التي لم يتمّ الوفاء بها أبداً، ولن يتم، ليصبحوا من مواطني الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت سرايا الغرباء تتكون بسرعة ممتلئة باللحم التشيكوسلوفاكي الطازج. ولم تجد السرايا الأخرى التي كانت تنبثق تحت الليل من السلوفاكيين والتشيكيين أية صعوبة أو ممانعة. لأن قادة الشعوب المحبة الأفضل لم يشترطوا ولم يضعوا العراقيل. لقد استوعب التشيكيون والسلوفاكيون أسرع من الجميع، أسرع من السلافيين، ومن جميع المهاجرين والهاربين من أوروبا

الشرقية والبلقان، قوانين الجريمة الحديثة. وذاع صيتهم بصفتهم الخاطفين المأجورين، اللصوص الذين لا يشق لهم غبار، القتلة بأرخص الأسعار، وشاركت الفتيات التشيكيات في تحديث صفوف العاهرات في ميونخ وفرانكفورت وباريس وجعلها أكثر طزاجة وشباباً، ووصلت المختارات منهن إلى لندن وقدمن أنفسهن بصفتهن ضحايا الشيوعية العالمية!

وفي صيف عام ١٩٦٨ الحار تمّ تشكيل لجان جمع التبرعات لمساعدة مئات الآلاف من التشيكيين والسلوفاكيين المساكين، وفي جميع مدن أوروبا الغربية. وتمَّ جمع المساعدات نقداً وبالعملات جميعها، بالأشياء العينية القديمة والحديثة، بالأدوية التي فقدت صلاحيتها، بألبسة الجنود وأشباه الجنود من نهاية الحرب العالمية الثانية، بالألعاب التي لم يعد عالم أوروبا الغربية المدلل المتخم يعرف ما هو فاعل بها، بالكتب المهجورة على الأرفف في المستودعات، بالمجلات الحربية التي ضخمت انتصارات هتلر وزحف سراياه الفولاذية المظفرة، بالكتب الدينية وكتب المطالعة، بمطبوعات الدعاية لشهود يهوه الذين رؤوا بالهروب الكبير للتشيكوسلوفاكيين بداية دمار العالم والطوفان الكبير، بالأسلحة والذخائر. ولقد تقبل التشيكوسلوفاكيون كل شيء دون تفريق!.

وتمّ تداول تلك المشاهد المسرحية: جريح مفترض «في أحد مجمعات الهاربين اللاجئين التشيكوسلوفاكيين» في فيينا أو ميونخ أو فرانكفورت يدخل بطريقة رومانسية قادماً من براغ، مخطوف اللون مثل ميت، وضائعاً تماماً. كان التشيكي ينزف. كانت تضمد جراحه وهو يتلوى ألماً، يريد لجم النزيف المتكرر، لكنه لا يتمكن لأنه يبصق اللون الأحمر من الكونسروة! وفي المجمع قس ورجل إطفاء وشرطي يوثقون كل شيء. التشيكوسلوفاكي

يذكر الإله ويرجوه بالألمانية. وبنات الشوارع النشيطات العاملات يقعن بالصرعة. ويبتهل القس من أجل إنقاذ الأرواح التشيكية، رغم أن ذلك ليس من عادته، ويخص الكاثوليكيين فقط، أولئك المقيمين على الجهة الأخرى من الستارة، أي الحدود. بينما يهرب رجال الإطفاء أو يستدعون زملاءهم مع المياه. وكان الشرطي مستثاراً إلى درجة تسمره في مكانه. فيستغل التشيكي الجريح الهرج الألماني: اشتر الجاهز واهرب برأسك، لا فرق، واترك غير المنقول وأجهزة المجمع للمثل، الذي سيصل قريباً جداً...

في تلك السنة وما بعدها بيع التشيكي والسلوفاكي من دون ثمن. جاؤوا محملين على ظهور الشاحنات والناقلات وعربات القطارات، مثل موجات طائشة إلى ألمانيا والنمسا وبلجيكا. كان بإمكان من يريد أن يتملك تشيكياً أو سلوفاكياً. يراهم أي مسافر على سكك القطارات والمحطات، على محطات الوقود، وأمام الكنائس. يحملون على ياقات معاطفهم العلامة ثلاثية الألوان، ويتسولون هكذا. وليس سراً أن أصحاب السفن الأمريكيين الجنوبيين كانوا يفضلون شراء التشيكيين أو السلوفاكيين لأنهم لن يتسببوا لهم بأية مشاكل. ويفضل السماسرة الإفريقيون الجنوبيون شراءهم برغبة كبيرة ويقودونهم للجنوب بصفتهم كتلاً بشرية سلوفينية متعطشة للدماء، لكي يكمل بهم المنتقمون الأوروبيون سراياهم وكتائبهم وحماتهم، وبشكل أخص أجهزتهم الشرطية.

ولقد وثق زعماء القبائل، الذين كانوا يصفون أنفسهم بالأمراء والملوك، أولئك الهمج السود الباحثين عن رجال ضائعين من دون وطن ولا أمل، يتسكعون في بلاد الدنيا، ثقة مطلقة بالتشيكيين والسلوفاكيين دون جميع المهاجرين القادمين من البلقان ودول أوروبا الشرقية. كانوا يقدمون

لعبيدهم البيض اللجوء السياسي، الكرباج والسكين. وكان المهاجرون الهاربون يوافقون على كل شيء، وهم يذرفون الدموع.

ولقد اشتهر السلوفاكيون بصفتهم حطابين وحراثاً ماهرين، واشتهر التشيكيون بصفتهم موسيقيين، طباخين، وخدماً. ولم يكن يوجد أي بار أو استراحة من روتردام حتى ميونخ، ومن كوبنهاجن حتى ميلانو لا يوجد بهما العديد من السحرة التشيكيين، والمطربين، ولاعبي الخفة، وبينما كان السلوفاكيون يصبحون مزارعين وأصحاب مزارع، كان التشيكيون يعملون في محطات القطارات، وخيم السيرك، والدكاكين، عارضين مهاراتهم في الوقوف على الرأس، ورقص الستيب، والبكاء بحناجر صادقة مظهرين العلامات ثلاثية الألوان. وكان يحكى، بل وكتبت بعض الصحف، أن السلوفاكيين هم أول «جيشا»[1] أوروبيين...

وإذا صدقنا فولكلور وأساطير عصابات تحت الأرض الأوروبية الغربية، وذلك العالم الموازي، اللائق لمخيلة الكاتب بوش، فقد كان هؤلاء البكاؤون التشيكيون أفضل المبتزين، والخاطفين، والمقتحمين، واللصوص الكبار، وكانوا أفضل المرافقين الشخصيين، وأكثرهم وفاء، وأدقهم عملاً، غوريلات بشرية تستوعب بسرعة وسهولة اللغات الأجنبية. كانوا أمهر الخاطفين، وأشد الجلادين، وأكثرهم سرية في عالم اليوم. لهذا فقد اشتهرت في عالم تحت الأرض جملة: سأقتلك بعبدي التشيكي!. تلك الجملة التي انبثقت في عام ١٩٦٨ الساخن جداً، وما تزال سارية المفعول، وليس فقط في عوالم تحت الأرض، بل وفوق الأرض أيضاً.

---

١ - يقصد مثل فتيات الجيشا اليابانية. - المترجم -

XII

الأوروبيون النيجيريون. المستبدلة دماؤهم البشرية بدماء خنزيرية؟

لم يتدخل مراسل مجلة التايم في التفاصيل، وهو يكتب عن عشرات آلاف العبيد الذين مورست عليهم طقوس الإبادة الأوروبية. ولم يسعفنا ما كتبه في استجلاء الحقيقة كما هي. لقد نظر الصحفي الأمريكي إلى تلك الظاهرة نظرة عامة. نظرة أمريكية. واكتفى هذا الأمريكي بحقيقة مفادها أن القارة العجوز النبيلة، الجدة أوروبا، المهد القديم للأفكار والرؤى البشرية، لها هي الأخرى عبيدها. عبيدها البيض!. مواطنوها من الدرجة الأخيرة، سكانها غير المتواجدين على سجل العائشين.

ومن الواضح أن الأمريكي لم يسمع بالتعريف الشهير لمجلة دير شبيغل الألمانية بأن تلك الكتل الملونة، العاملة بمعظمها في إجرام تحت الأرض في أوروبا الغربية، في العالم الغربي عموماً، التي وصفتها بكلمات وصور ملونة، ناعتة إياها «بالأوروبيين النيجيريين»[1]. مهما يكن الأمر فقد تطابقت المقاربة الأمريكية والتعريف الأوروبي الغربي تطابقاً تاماً.

وحينما تكتب الصحافة الأمريكية والصحافة غير الأوروبية عموماً، عن أوروبا، تكتب بصفة عامة عن الاقتصاد والمشاكل الأخلاقية والسياسية للعالم القديم. ذاكرة الصحة والعافية لغير الأوربيين، مشددة على التفاؤل الكاذب

---

١ - نسبة إلى النيجر الإفريقية. - المترجم -

والخدود الوردية من وجهة نظرها الغبية. يكتبون عن الإرهاب السياسي الذي يهدد ويشكك بكل الخيرات الأوروبية والأعمال الحميدة، بكل شهرتها، وبكل طريق واعد بمستقبل جيد. وتخدمهم في ذلك عبارة «العبيد البيض» «الأوروبيون النيجيريون» الممثلون لذلك الشعب اللاجئ الجديد.

عن أية تحديات يتمّ الحديث؟ سيتساءل قارئ هذه الأحداث لأبطالها من المهاجرين ذوي الأربع أصابع.

وقبل الانتقال لإظهار أسباب نكبة المهاجرين اليوغسلاف، وذكر تسلسل مصائبهم برمزية، لا بد لنا من التأكيد أنهم المجموعات الأحدث في أوروبا. وفي رواية رجال بأربع أصابع ينعت هذا الشعب الجديد نفسه، باختياره: بالمهاجرين الهاربين، بالسينائيين، بالشرقيين، بالملعونين!

وندعو كارل ماركس للمساعدة، وسوف يقول إنهم البروليتارية الضائعة، أي البروليتاريا غير المنتمية إلى طبقة، بل هي في الغالب الأعم الغيبية، ذات القومية الكاذبة، ذات الشعور الكاذب بالانتماء. ونحن نعلم من التاريخ أن كل بروليتاري ضائع سيتم التلاعب به بنجاح. هذا التلاعب يحدث اليوم أيضاً، وهو ما يظهر بوضوح في الأحداث التي أكتبها...

إن اليمينيين الفقراء هم ذلك الكاريكاتور البشري الباكي أبداً على الأعلام القديمة والرايات، على الممتلكات القديمة، على كل ما هو من البارحة، الـ .. ق.. د.. ي.. م! إنهم غالباً من اللامنتمين، فاقدي العناوين، لا مأوى لهم، بشر من دون مكان ولا أحد، مساكين وعراة، ما زالوا يحلمون بالملكية، والملوك والسلاطين والتيجان، بالبيارق وبنادق الصيد الغريبة، بالكنائس وكرابيج الجلد التي لا تؤلم «لأنها قومية»، الحالمين بسادتهم

يركعون أمامهم على ركبهم، يطيعون ما يسمعونه بأن اللون الأسود سيعيد بالضرورة المجد القديم والشهرة، الفاقدين كل شيء ما عدا رؤوسهم وقلوبهم، التابعين لذلك الذي لا يرى في كل ذلك الحيف ظلماً، ويسوق المفارقات التي تجعل من هذا الشعب المهاجر الجديد شعباً محترماً لائقاً للكتابة الأدبية. وليس الأدبية فقط بل لعلم الاجتماع، وعلم السياسة، وعلم التشريح المرضي! ذلك الشعب المهاجر الجديد الذي كما هو مذكور في رواية رجال بأربع أصابع يستبدل الدم الإنساني بالدم الخنزيري! فالرجل الضائع يتحول بزرقة دسي ليتراً من دم خنزيري في عروقه، وهو المسكين المهاجر الحزين إلى إرهابي طبيعي. إلى وحش يشعر بحاجة عضوية جديدة ليحطم، وينتهك، ويدمر كل ما أبدعته البشرية!. إن جميع مهاجمي السفارات والقنصليات والشركات اليوغسلافية وبراكات العمال الأجانب كانوا قد زرقوا بسيروم الخنزيرة جوزفينا الشهير، «الدواء» السياسي الأخطر، الذي فقدنا عقولنا ونحن نقرأ ما كتبته عنه الكتب والصحافة.

XIII

حصار قنصلية يوغسلافية. صرعة المهاجرين. الأنبياء والقدماء تكلموا اللغة الصربية.

في سنة مضت، ظهر يوم ٢٨ نوفمبر كان الشارع الذي تقع فيه القنصلية اليوغسلافية مزدحماً. كانوا يحتفلون بعيد الجمهورية. كان القنصل محاطاً بوجوه مدنية وعسكرية، والكثير من الحراس!. ولم يكن الشباب الواقفون بأسلحة مهيئة للإطلاق يخفون بأنهم من خلال سياراتهم «مرسيدس نملة»، والسيارات الخضراء للشرطة، يراقبون كل شخص، كل وجه يقترب من المدخل الرئيس. وعند العتبة تواجدت الوجوه المعروفة للمضيفين، ووقف شاب وفتاة وسيمان يتقبلان التهاني ويستلمان معاطف الضيوف. وقمت بإظهار وتسليم كل ما كان بحوزتي ما عدا كتاب «دي داومن لوست» وهو الترجمة لكتاب رجال بأربع أصابع، الذي وقفت أقلّب صفحاته، وأنفضها، لأتأكد من خلوها من المتفجرات بين دفتي الكتاب. كنت مجبراً بعد أن وصلت للقنصل كتب عليها غبار خطير ومواد قادرة على النسف والتحطيم بين أوراقها. صافحت القنصل وباقي الضيوف المهمين. كانت حفلة الكوكتيل ذات مستوى ممتاز. لا يشوبها سوى بعض الحذر على وجوه الضيوف. وجميعنا نعرف التهديدات الإرهابية التي تكررت تلك الأيام. وكنت محشوراً مع القنصل اليوغسلافي بين ضيوف كثر في زاوية الصالون الكبير. لقد شاءت المصادفة أن نقف أمام العديد من الرجال الألمان الجادين

متوسطي العمر يحملون كؤوس الشراب، نتجادل بأحاديث متضاربة. أحدهم، ذلك الذي سأتكلم عنه كان يمعن النظر إلى يدي الحاملتين كتاب رجال بأربع أصابع. قال:

«اعذرني أنا أعرف هذا الكتاب».

«هذا ما يسرني» ابتسمت له ولمحدثيه: «وبمن أتشرف؟».

«نحن شرطة» قال دون أي حرج. ذلك السيد عريض المنكبين، قوي اليدين، بعينين ذكيتين.

هزّ الآخرون رؤوسهم مبتسمين.

وقدم السيد نفسه من خلال الدعوة إلى الكوكتيل، وقرأ عنوان الكتاب بينما أصغى محدثوه باهتمام. كان اسمه فلان الفلاني. وبالنسبة لهذه الأحداث سيكون اسمه د. هربرت كراوت.

وكانت رتبة د. هربرت كراوت على درجة رفيعة، بصفته «مفتشاً عالي المستوى» في قسم محاربة الإرهاب والإجرام السياسي. ولا يمكن لشخصية كهذه أن يكون محتوى كتابي غريباً أو غير معروف لديها. انفصلنا أنا والمفتش إلى طرف فاشتعلت الأسئلة من هذه الجهة وتلك، ولم يكن المفتش كراوت حريصاً جداً أو شكلياً. لهذا كان حوارنا ودياً، وليس ملزماً من الناحية الشكلية.

تصفّح الكتاب وركز على التواريخ التي عنت حوادث الإرهاب الأسود لأوروبا.

«لدي انطباع بأنكم تتحدثون عن اللاجئين بمودة وشفقة».

«أجل سيدي المفتش» قلت بثقة «المهاجر نظير لمأساة. المهاجر هو المأساة!»

«بالنسبة لي كل مهاجر هو مجرم سياسي» قال المفتش كراوت مؤكداً «وإذا لم يكن ذلك اليوم فسوف يكون غداً، أو بعد غد!».

«لا تنس أنني كاتب...».

«أنا لا أشعر بالرأفة ولا بأي تعاطف مع أولئك الذين هم ضد الإنسانية، ضد المجتمعات البشرية، مهما كانت تلك المجتمعات. ليس لدي أي تفهم نحو أولئك العاملين ضدنا في هذا الاحتفال. لقد رأيت بأم عينك حجم الحماية المخصصة لهذه القنصلية!».

«سيدي المفتش هل يمكننا الحديث عما يسمى في عالم تحت الأرض معتقدات المهاجرين الغيبية؟»

«ليس لديهم أية معتقدات إيمانية أو غيبية. ليسوا منطقيين!» قالها المفتش بعصبية. «إنهم على الأغلب قتلة مع سبق الإصرار! يعللون بقتلهم الآخرين أنهم يقتلون أنفسهم. أية وقاحة! أية مسرحة للأحداث، أي عيب! عيب المهاجرين! كل العدالات تتوافق حول القتلة بما في ذلك عدالتنا الألمانية. وأنا لا أتحدث معكم بصفة وظيفية رسمية بل أعبر عن رأيي الخاص.. لأن أمورهم وصلت معي إلى هنا!». مشيراً إلى أنفه.

«وعادة تتستر الهجرات السياسية، تلك المتطرفة والإرهابية خلف أجهزة الأوطان التي تعيش وتعمل على أراضيها. ما رأيك؟».

«إنه السفلس[1] السياسي» قال د. هربرت كراوت بانفعال «إنه تعليل مرضى السفلس. تعليل العلل!».

«اسمح لي سيدي المفتش أن أعلق بأننا نحن الاثنان نستعمل التعبير ذاته «السفلس» لتلك الحالة الإرهابية للنازحين، روحاً وجسداً». وأسرعت باحثاً عن الصفحات المشغولة بأبطال روايتي، الذين كانوا طيلة الرواية، يرفضون أن يكونوا قتلة السفراء والقناصل على أراضي أوروبا الغربية.

«السفلس السياسي يعني تحطيم الأشياء، والمواد البشرية» تابع المفتش بانفعال. «السفلس السياسي يقضقض المجتمع الإنساني، كل المجتمع، أي مجتمع، وحينما يلامس ويتفشى في مجموعة حية واحدة تراه ينتشر إلى مجموعات أخرى!. السفلس السياسي لا يعرف حدود الدول، ولا يعترف بها. إنه يهاجم جميع الأنظمة، بدون فرق، شمالاً أم جنوباً، شرقاً أم غرباً. لا تعيقه أية ستائر، ولا تلك المسماة الحديدية!». إن تحمل السفلس السياسي هو

---

١ - مرض جلدي جهازي مناعي مميت ينتقل بالجنس. - المترجم -

إجرام موصوف ضد الإنسانية! ولا يتهاون تجاهه سوى الناس العميان، منحطي الأخلاق، المتخلفين، والأميين، أولئك الذين يجهلون التاريخ، فتراهم يتراخون أمامه، أمام هذه الجائحة الخطيرة الفصامية السفلسية! ولنتذكر فترة ما قبل الحرب: لقد عمَّ سفلس أدولف هتلر السياسي وسيطر على الأبرياء أيضاً. على الأكثر وطنية ووفاء، وعلى المساحات البعيدة الأوروبية! كانت أوروبا آنئذ متسامحة، طرية، ساذجة، فسيطر عليها مرض رجل مجنون من الألب، وشاعت في مساحات كبيرة!. وجميعنا نعلم ثمن ذلك وضريبته، ونحن الأعلم على هذه الأرض، في هذه المدينة التي منها ابتدأ كل شيء، وانتهى كل شيء، وعلى طريقة مرض آخر.. مرض الصرعة!».

«هل تعرفون يا سيدي المفتش اجتماعات المهاجرين، منشوراتهم، إعلاناتهم؟».

«نعم. وأعرف بعضها معرفة جيدة جداً!» لم ينكر د. كورت «بعض اجتماعاتهم تتم في الخمارات ولا تختلف عن اجتماعات أدولف هتلر قبل الحرب مع نازييه، وكل ما ينقصهم الأعلام ذات الصليب المعقوف! ويمكن أنهم يملكون أعلاماً كهذه ولا بدَّ أنهم يحتفظون بها لبداية الزحف الصليبي على أوطانهم السابقة. وتتمخض تلك الاجتماعات عن خطط كبيرة وهامة، عن وجوب تغيير حدود أوروبا الحالية. وبرأي مرضى السفلس هؤلاء لا يوجد لأوروبا حدود نهائية!. ولكي تتحقق هذه الخرائط الفصامية لابد من حرب عالمية ثالثة تكون أكثر فظاعة بمرات، وأكثر دموية من الحرب العالمية الثانية!».

«وهل يمكن قيام حرب كهذه؟».

«الحرب ممكنة دائماً!» تابع المفتش كورت «لكن الأكثر من المؤكد أنها لن تشتعل بسبب مزاج الانفصاليين الأكرانيين، أو البولنديين، أو اليوغسلافيين، أو أية أمة أخرى بما فيها الألمانية. هي حرب يرغبها المهاجرون الفارون. كل المهاجرين يرغبون أن يقتنع الغرب كلّه بنظرياتهم، أن تدخل جميع الشعوب في حروب، لأنهم، ولا أحد يعرف الأسباب الحقيقية، بعيدون عن أوطانهم. إنهم لا يدركون أن الغرب يعاني من مشاكل عديدة، أكثر تعقيداً وأهمية من مشاكل المهاجرين المتطرفين، التي يضعونها في المرتبة الأولى. وعلى سجلات الاغتيالات لديهم لا تتواجد أسماء السفراء والقناصل فقط بل الكثير من المسالمين العقلاء الغربيين. وعلى وجه الخصوص بعض شخصيات هذه البلاد. تلك الشخصيات الساعية لفتح الحوار مع العالم أجمع، ومع يوغسلافيا، بصفتها جزءاً من العالم.

أعرف ذلك جيداً وأتابعه كرجل غاضب مستثار وليس بصفتي الشرطية فقط».

«سيدي المفتش هل قُيض لكم مقابلة بعض سياسيي عالم تحت الأرض؟».

«بشكل شخصي فقط بالطبع. كما هو حديثنا الآن شخصي محض. لقد تقابلت عشر مرات مع مالك ورئيس تحرير جريدة «الدولة الخرفاتية» الدكتور برانكو يليتش» تابع المفتش كورت «وأعترف أني لم أقابل في حياتي رجلاً أشد مرضاً وجنوناً!. ولم يستطع الدكتور يليتش التحرر أبداً من

كلمات على شاكلة: الدم. «إن دي اش»[1]. القنابل. يوغسلافيا. الثأر. مدينة بلغراد. الحرائق. القنصليات. الجثث. السلوفينيين. الاستروغوثيين. الانفصاليين. البوسنا. الحرب البيولوجية القادمة... وكان الدكتور يليتش من أشدّ المحرضين، وحينما تأكد أن الغرب، المتقدم والجديد. بربوعه الجميلة والإنسانية قائم اختنقت أفكاره وغاياته، وابتدأ ينظّر لأخبار مفادها العداء لأوروبا الشرقية! والتأثير المقيت لمجرد ذكر المبادئ اليسارية والاشتراكية! وإذا لم تصدقني خذ جريدة «العدالة الكرواتية» وسوف ترى المصطلحات والمعلومات التي حدثتك عنها. وبأن الصحيفة المذكورة قد وظفت رجلاً يدعى دافور بوكش[2] بصفته صحفياً معتمداً في إحدى عواصم الكتلة الشرقية..»

«سيدي المفتش كيف تبدو لكم صحف اللاجئين الأخرى؟». سألته.

«بشكل عام هي الفيروس نفسه: السفلس!. حيث تجزم صحيفة «المأساة المكدونية» بأن مكدونيا هي نصف البلقان، أي نصف يوغسلافيا، وثلث بلغاريا، وربع اليونان، بما في ذلك مدينة سالونيك[3] والجبل المقدس. ويؤكد البلغار أن بلغاريا تمتد حتى تريستا بإيطاليا وبولي بونينزا، وحتى حدود المجر.. حتى سكادر، التي هي ملكهم أيضاً! وتجزم الصحف البلغارية أن البلغار هم الذين أزالوا أميّة السلوفينيين كلهم! بينما تشير الصحف الصربية إلى ذات التخلف والفقر: الاجتماعات، المجالس،

---

١ - اختصار: دولة كرواتيا المستقلة. - المترجم -

٢ - إرهابي كرواتي. - المترجم -

٣ - مدينة يونانية. - المترجم -

الهيئات.. تلك التي تتميز فقط بأنها لا تنتهي بالشجار!. وأؤكد بأن الصرب من أكثر الشعوب اختلافاً وأقلهم اتفاقاً وانسجاماً. ولن تجد صربيين على رأي واحد. وبينما يبني الصرب الكنائس، ويجمعون التبرعات، تراهم يلقون أفضل الخطابات. وهدفهم عودة الملكية، كما هو هدف الروس عودة القيصرية، وعودة عرش ميخائيل بالنسبة للرومانيين، الملك العائش من الصدقات التي لا أحد يعرف مصدرها وماهيتها..».

ويبدأ المفتش كراوت يحكي عن المقال الذي نشرته مجلة «الأفق الصربي»: «اللغة الصربية هي اللغة الأعظم، والأهم، وبالطبع الأغنى، والأكثر موسيقية في العالم!» وأضافوا «لقد تكلم القدماء والأنبياء جميعاً اللغة الصربية» في وقت تأتي أسماء معظمهم من اتحاد كلمتين صربيتين. ويؤكد أحد الصحفيين أن التاريخ الصربي هو الأقدم في الدنيا. وإنه أقدم من الحضارة الصينية التي يكتب عنها الكثير إلى درجة الهذيان. الصرب موجودون منذ ٨٠٠٠ سنة ويمكن اعتبار الصينيين بالنسبة للصرب «أبناء البارحة» بامتياز... وما أزال أذكر اسم كاتب المقال «سفروني كونيتش»!. إضافة لحوار أجرته الآنسة تراند يلوفيتش، وعمرها عشرون وعدة سنوات. حينما استطاعت الهروب من عصابة «نسور درا جوفيتش، بعد اغتصابها، وصارت تنتقل من حفلة إلى حفلة حيث تغني، وتقلّد، وترقص الستيب. وكانت الآنسة تراند يلوفيتش تغني أغاني بلوز وبالادا من مسقط رأسها، وتلقي الأشعار وهي تصيح. ثم تبكي وتندب، فتذوب الكلمات في الدموع حزناً على الوطن الذي لا يمكنه العيش من دون الملك، من دون العادات الشعبية الأصيلة، من دون الأغاني الشعبية التي أضحت «ممنوعة...».

وإذا وقعت صحف على شاكلة «كرواتيا الجديدة». «الدفاع». «اللحمة الكرواتية». «دولة كرواتيا الحرة». بين يديك، ومجلات أخرى تطبع وتوزع في دول العالم المشبوهة، فسوف ترى ما يكتب عن «HNV» أي مجلس الشعب الكرواتي. ذلك الجسد الذي يوحّد جميع الكرواتيين على الورق، الكرواتيين الهاربين النازحين السياسيين. هذا الـ«HNV» أفرز «HEB» «البنك الكرواتي المساهم» والذي لا يعرف مقره أحد. هذا البنك يصدر

جوازات السفر الكرواتية، جوازات دولة كرواتيا الحرة. تلك الدولة التي لم تعد موجودة منذ ٩ مايو ١٩٤٥. هذا الجواز صالح للسفر إلى الأماكن غير الموجودة على الكرة الأرضية، ولعله يصلح للسفر في طرقات وأقنية تحت الأرض. كما ويطبع ذلك البنك أوراق اليانصيب المسماة «يانصيب كرواتيا»، وثمن الورقة «كونا» واحدة، والكونا عملة لا تصلح إلا لـ«NDH» غير الموجودة، ومع ذلك تطبع وتوزع، ويصعب على أي طبيعي عاقل أن يجدها في أي مكان. ولا يعرف أحد حتى الآن ما الذي يمكن شراؤه بالكونا! ولكي تكتمل فرضيتي حول السفلس بصفته مرض النازحين السياسيين، اعلم، وتذكر، أن هذه العملة العالمية الجديدة متغيرة: يمكن استبدال الكونا الواحدة بالدولار الواحد لا أكثر ولا أقل. وبما أن الدولار في هبوط فيجب أن نتوقع صعود هذه العملة الصعبة!، التي يثير ظهورها الجليد في عظامي!».

«سيدي المفتش هل يمكن أن نرى تلك الكونا؟».

«لقد صوروها!» أجابني المفتش كورت «وقد انتشرت صورتها في صحف عديدة تصدر في عالم تحت الأرض الجهنمي الدموي..».

انتهت حفلة الكوكتيل. ولم ينس المفتش كورت التعبير عن سعادته لوجود عدد كبير من البشر الطبيعيين الشرفاء اليوغسلاف يعيشون على أرض جمهورية ألمانيا الاتحادية، ويمارسون أعمالهم بنشاط، ولا يوجد للشرطة أي عمل أو احتكاك بهم. وامتدح المفتش كورت اليونانيين والإسبان، إضافة لليوغسلاف، لكنه لم يكل المجاملات أبداً للضيوف الآخرين من أية جنسية أخرى.

وعند الوداع أهديت د. كراوت الكتاب الذي أوحى له، وتكلم عنه باحترام وعناء، بصفته الشخصية طبعاً وليس بصفته الشرطية.

انتهت حفلة الكوكتيل على خير، من دون عنف أو إرهاب. ولم يتخللها بطاقات تهاني ملونة مجهولة المصدر تلك التي تعود عليها موظفو القنصلية. وغادر المفتش كورت مع رجاله. عندها تساءلت «ليس بصفتي الشخصية»: كم يوجد في جمهورية ألمانيا الاتحادية التي تجمعنا معها علاقات ممتازة، مفتشون مثل د. كراوت؟.

XIV

عيّنات من المهاجرين. أو براد فولاريتش الشاطر من بلدة جاجاك، يلاحقه الأمريكيون. قال أوبراد إن المأساة اليونانية ستستمر في ميونخ

ينحدر أوبراد فولاريتش من ضواحي بلدة جاجاك. رجل عملاق ضخم الجثة، بيدين طويلتين، ورجلين مقوستين، وحاجبين مكسورين، وأنف عقابي، وشفتين رقيقتين شريرتين. ويصرح، في حالة سكره أو صحوه، أنه إنسان لا قومية له، ولا ديناً، ولا أقارب أو أهلاً. لكنه، حقيقة كان ينتمي إلى أكبر أمة، أمة اللصوص. كان نصف رجل، على نصف مستوى، وكان بداية نصف فلاح، ثم نصف صانع معلم، ونصف مواطن متخلف. ولم يكن أوبراد في حياته شيئاً كاملاً وصحيحاً. وتراه الآن أكثر من أي وقت مضى ينتمي إلى نصف العالم، نصف عالم مدينة ميونخ، بصورة أدق عالم الشوارع حول المحطة التي يتسكع بها النشالون والغشاشون، وضحاياهم. ولقد حدثني أوبراد عن حياته من دون ذرة خجل.

بعد طرده من ضواحي جاجاك، لم يمكث طويلاً في مدينة بلغراد. اختار فويفودينا، ثم ذهب إلى البوسنا ودلماتسيا. وبرع في السرقة والاحتيال أكثر في مدينة ريكا، ثم على شواطئ إسترا. كان يقتحم السيارات، ويتسلل إلى البيوت ويحمل. وحينما شعر باقتراب عودته وراء القضبان، قرر عبور الحدود. كان يعرف سان سابا، مركز تجمع الهاربين النازحين في إيطاليا.

هناك ابتدأ يطلق تصريحاته النارية أنه ضد النظام في يوغسلافيا. مدعياً أنه كان ممنوعاً، مقيداً، مخنوقاً، ملاحقاً سياسياً، فحصل على ملاذ مؤقت وبعض الأوراق. وصار يسرق في مدينة تريستا. ووصل مع ثلاثة رجال بولنديين إلى البندقية، وسرعان ما عاد إلى مجمع سان سابا الذي اعتبره بيته الآمن. ولم يكد يستقر ويؤمن نفسه حتى انطلق إلى الشمال، إلى النمسا، بسيارة مسروقة، وبالطبع كانت سيارة سائح يوغسلافي من زغرب.

تتكرر الحكاية في النمسا: استراحة المهاجرين النازحين الوسخة ترايسن كيرشن، وهناك يصرّح أنه واصل لتوه من يوغسلافيا، التي لم يعد بها مكان للشرفاء أمثاله. ويطلب اللجوء السياسي ثانية، والسفر إلى كندا، كما فعل في مخيم سان سابا.

كان يمارس نشاطه الإجرامي في النمسا، وبشكل أكثر نجاحاً مما كان في يوغسلافيا وإيطاليا، فقد تجلّت له النمسا جنة في الأرض، والمكان الأنسب لرجال على شاكلته. وقال إنه وصل إلى فيينا مع بعض الرجال المكدونيين والتشيكيين. وذهب عدة مرات إلى براتي سلافا[1]، عن طريق التهريب، للحصول على المسدسات والذخيرة. لكن النمسا بدت له صغيرة وضيقة ومكتظة بالسلوفاكيين الهاربين من بلادهم ليملؤوا مخيمات ترايسن كيرشن. وكان بين هؤلاء السلوفاكيين من هم أكثر مهارة منه، لهذا قرر الانطلاق إلى أبعد... إلى الغرب.

وكما يقول أهل جاجاك ركب البحر والجبل، ووصل إلى بافاريا في ألمانيا، وبحث عن مركز التجمع زرندورف سيئ السمعة، وقدم نفسه لهم، عارضاً

---

١ - مدينة تشيكوسلوفاكية. - المترجم -

أمامهم جواز سفر رجل يوغسلافي آخر، مجري من ضواحي سوبوتيتسا[1]. وكان الأمر سيان بالنسبة للكتبة في زرندورف سواء أكان جواز السفر مزوراً أم حقيقياً. كان الأهم بالنسبة لهم أن يكتبوا «لقد قذف يوغسلافي آخر جواز سفره الأحمر بصورة مسرحية، وطلب الحرية، واختار زرندورف».

وفي زرندورف طالب بالهجرة إلى أستراليا، الوطن الذي، أضاف، يغصّ بأقاربه وحاملي أفكاره. هذا ما سجلوه، وأعطوه بيتاً، وطعاماً، وعشرة ماركات مصروف جيب. وبالطبع لم يكن بحاجة إلى تلك «الخرجية» لقد كان يشرّح ويبدع مع بني وطنه اليوغسلاف ومع المجريين الذين جاؤوا تلك السنة بالمئات إلى زرندورف. وكان قد تعرف جيداً على محطة القطارات في ميونخ وعلى جميع الشوارع المتفرعة يمنة ويسرة.

هكذا، وبانتظار السماح للانتقال إلى أستراليا، استطاع أوبراد أن يغطي بافاريا باللون الأسود. وما زال حتى يومنا هذا يبيع ويشتري، ويغش، يلاحقه الألمان، وبنو جلدته، والمسافرون، والعمال الأجانب، أولئك الذين عرض عليهم بضاعة تقنية بنصف السعر، إنما بدفع «عربون» أولاً! حتى الأمريكيون كانوا يلاحقونه، رجال جيش الولايات المتحدة الأمريكية من القواعد القريبة، لأنه لم يدفع لهم ما وعد به، ثمن كل تلك الكميات من مسدسات كولت، والذخيرة، والخيام! لقد كان أوبراد، الرجل الذي يبوح لي، يركض هارباً، ويدخل إلى استراحات محطات القطارات في ميونخ ونيرنبرغ كي يمسح أنفه، ثم يهرب..

وكثيراً ما كان يهرّب السيارات المستعملة إلى يوغسلافيا، فلا أحد مثله يعرف كل ما يمكن أن تتسع له الأرضيات المزدوجة، المخابئ السرية،

---

١ - مدينة يوغسلافية على حدود المجر معظم سكانها من المجريين. - المترجم -

والإضافات المموهة على الأطراف. حيث يتسع قعر سيارة المرسيدس لمئات مسدسات فالتر ٧.٦٥ ملم، أو إلى ١٠٠٠٠ طلقة في صناديقها. وكم كان موفقاً مع أجهزة التلفاز. ولكم قاد سيارات شفروليه ذات الهاتف. مع أنه كان معجباً أكثر بسيارات «سابا» و«ليفي أوبتا». ولم يكن ينكر صلاته، صلاته القوية، التي كان يوصيه أصحابها على تلك البضائع المسروقة.

ولقد تحدث الناس في شارع شيلر كيف كُشف أمر تلك «الصلات»، وحكم عليه بثمانية عشر شهراً في السجن، وكيف أن أوبراد «القوي مع الشرطة» قد نجا بنجاح، وقال وهو يزفر مرات عدة «أنا البافاري المسكين». تلك الجملة التي رددها الآن أمامي دون أن يزفر بعمق. ولقد صعد اسم أوبراد عالياً مع الأيقونات البلقانية، التي اشتهرت بسرعة في الغرب. تلك التي ابتدأ بجلبها العمال الأجانب اليوغسلاف واليونانيون، وسائقو الشاحنات البلغار. وقفزت أسعار أيقونات أوبراد وأمثاله عالياً، حتى إن أوبراد نفسه، الذي كان يسمي نفسه الشاطر من جاجاك لم يتخيل قفزات أسعار الأيقونات تلك، التي أسموها «جنة البلقان الصغرى». لقد كان الطلب عليها استثنائياً.

ولكي لا يعود إلى يوغسلافيا، وطنه السابق، ولا يتعرض للضيق والمحن، فقد وجد ضحاياه: العبيد! شباب يملكون جوازات سفر، ومن ذوي الأربع أصابع، والسياح المدعين الكاذبين، الذين وجدوا في ميونخ الوطن الموعود، ومدينة شيكاغو الذهبية من الأفلام، يوجههم أوبراد إلى البوسنا، وصربيا، ومكدونيا، بل واليونان، ليسرقوا، وينهبوا، أو لينقلوا المسروقات، والذين تمَّ القبض على معظمهم، غالباً، على الحدود.

عندئذ يحبك الشاطر الجاجاني خطته: يحشر مسافريه الذين يدفعون الفتات، تحت القطارات. يلتفّون حازمين الأيقونات على أجسادهم.

ويجبرهم على معرفة مواعيد الانطلاق والتوقف، بعد كم من الساعات؟ متى يتوقف القطار؟ وأين؟ حيث تعطى الإشارة للخروج من أسفل القطار. وكان ذلك على الأغلب في محطة ميونخ أو فرانكفورت أو فيينا.

مرة حزموا رجلين مكدونيين في مدينة سكوبيا، أحدهما ميلوش يحمل عشر أيقونات لا يوجد وصف مناسب لجمالها. والآخر ديمو يحمل عشرين أيقونة. وقد انتظرهما أوبراد في محطة ميونخ، مع العديد من غوريلياته حماته غير الرسميين. خرج ميلوش، وانتصب بصعوبة، لكن ديمو كان ميتاً، متجمداً. لم يحاولوا سحبه. لم يكن ثمة وقت.

وبكى ميلوش على صديقه ديمو الذي قضى بصحبته أجمل الأوقات في ملاهي سالونيك وهما يبعثران ما سرقاه وما اختطفاه. وانطلق أوبراد مع الأيقونات تسحبهم القاطرة باتجاه فرانكفورت وكاسل.

يقوم أوبراد باستبدال ديمو المكدوني الذي مات متجمداً بآخر اسمه مارشيلو من كوبر الذي كان يعرف كيف لا يتجمد. هكذا ذهب ميلوش

المكدوني مع مارشيلو السلوفيني إلى مدينة صوفيا.. بل وحتى مدينة فارنا البلغارية[1].

لقد شكل أوبراد كتيبة المجرمين. ولا يعلم إلا الله ما كان يعرفه أوبراد عن رجاله بأربع أصابع ما دام قد حجرهم وأجبرهم على طاعة العبيد. وقد تباهى أمامي أن الكتيبة قد شكلت من رجل أوجستي، وآخر من لسكوفاتس، وواحد بوسني من سراجيفو، والعديد من الفلاخيين من حدود يوغسلافيا - رومانيا. وفي الأوقات التي لم يكونوا فيها يسرقون لحساب عرابهم الكبير من جاجاك كان هؤلاء الرجال من ذوي الأربع أصابع يتسكعون في قطارات ألمانيا الغربية والنمسا، يتابعون العمال الأجانب إلى الحدود اليوغسلافية وهم يسرقونهم، ويرمونهم خارج القطار بينما يكون في أقصى سرعته «كي لا يستيقظ الرجل المقذوف»!..

ولم يكن أوبراد يكتفي أبداً من الماركات والشيلينغات[2]. والكلمات التي سأذكرها ليست من رواية رجال بأربع أصابع التي قالها المدعو شاندور كولار، بل بطل هذه الأحداث الحقيقية أوبراد فولاريتش:

«إذا امتلك العامل الأجنبي ماركاً واحداً خذه منه، انتزعه منه! ثم اقذفه من القطار! هذا هو سعر حياة بروليتاري بلقاني يعمل في ألمانيا!. وإذا لم تجد حتى هذا المارك الواحد اقذفه أيضاً خارجاً، بينما ينهب القطار المسافات، كي تكتب صحف فرانكفورت أن التراجيديا[3] اليونانية تستمر في ميونخ!».

---

١ - مدينة بلغارية سياحية على البحر. - المترجم -

٢ - النقد الألماني والنقد النمساوي. - المترجم -

٣ - المأساة.

وبقدر ما كانت الماركات والشيلينغات تهمّ أوبراد بقدر ما يهمه البرستيج. لهذا كان يساعد صحف الهاربين النازحين، لكنه يطلب أن يكتب اسمه على الصفحة الأخيرة مع المحسنين وفاعلي الخير.

كان يفضل الجلوس مع رؤساء تحرير صحف النازحين وهو ينظّر سياسياً، ويتبرع، ما دام يوجد من يكسب ويُحضر في أنصاف الليالي. وكان السادة رؤساء التحرير يغازلونه ممتدحين شاكرين مقدرين شخصية محدثهم. وكان أوبراد، الذي قيل إنه كان على رأس كتيبة الغرباء، يحلّ كيس ماله ويتبرع بسخاء.

لكن رؤساء التحرير كانوا يريدون شيئاً آخر: أن يرسل أوبراد صحفهم بأكبر أعداد ممكنة مع رجاله إلى يوغسلافيا. وكان ذوو الأربع أصابع يحملون جريدة «الكفاح» الصربية، مثلما يحملون مجلة «العدالة الكرواتية» من مدينة شتوتغارت، وجريدة «النسر الأبيض» من ميونخ، وجريدة «الدفاع» من مدريد، بالطريقة التي يجيدونها، حيث يهاجمون القطارات ويحشرون في حقائب العمال الأجانب وجيوبهم وصناديقهم تلك الصحف...

ولم يكن أوبراد يولي أية أهمية لوصول تلك الصحف والإعلانات والمناشير إلى الحدود أبداً. وكل ما يهمّ أوبراد، خبير المحطات، والعراب الصاعد أبداً، أن يذهب إلى شارع شيلر، ويخبر السيد رئيس التحرير أو أي واحد كان بأن ما فعله كان أخوياً محضاً.

كان رؤساء التحرير يشكرون العراب الصاعد أبداً...

XV

يؤكد إلمار فينك، أن كافرو بيرونوف بافلوفيتش، وسيكولي جوركوف رادوفيتش، وجورو أندرين بيجوريتسا، قد أطلقوا النار في بونس آيرس، يوم ٩ أبريل ١٩٧٥.

يؤكد كافرو بيرونوف بافلوفيتش، لمحدثيه، أنه من مدينة تسيتينيا. علماً بأن الأمر سيان من أي مكان هو، عند الجميع في شارع شيلر. وكان هذا الرجل المحني القامة، المُستهلك، الثلاثيني، يبكي حينما يكرع البيرة البافارية، ويتباكى بأنه ليس من تسيتينيا بل من كوكوتا العلوية. ولم يكن رجال شارع شيلر يجدون أي فارق في ذلك. وكان كافرو يخلط الكلمات الألمانية بالكلمات الهولندية والأرجنتينية، وكله بلهجة سكان كوكوتا العلوية أو السفلية. كان فراناً ممتازاً عند أحد الألمان في بانات[1]. وكان هذا الرجل من بانات يحبه بجد، ولا يقمعه حينما يصنع من العجين الألماني سيوفاً، وقذائف للراجمات، وأغطية، والعديد من الصلبان. وكان الألماني يحب سماع قصة هروب ذلك الملتحي من الجبل الأسود «اليد اليمنى للقائد بافله جوريشيتش، وأهم منتقميه»، إلى الأرجنتين البعيدة.

لكن إلمار فينك يؤكد أن كافرو بيرونوف بافلوفيتش، وسيكولي جوركوف رادوفيتش، وجورو اندرين بيجوريتسا، وفوكسان ستيفانوف

---

١ - مدينة صربية. - المترجم -

مارتينوفيتش، ولاكيتش بايوف بوشكوفيتش، قد أطلقوا النار على أنته. د. بافيليتش، أول وآخر حاكم لدولة خرفاتيا المستقلة يوم ٩ أبريل ١٩٥٧ في بونس آيرس - الأرجنتين. وبأن أنته قد مات متأثراً بجراحه تلك في مدينة مدريد بإسبانيا في ديسمبر ١٩٥٩!.

وكان كافرو يظهر فجأة أحياناً في مقهى شيلر وهو سكران وباكٍ، بقبعته البافارية المغبّرة على جمجمته، متسللاً إلى تلك الجورة المخصصة للحثالة من المهاجرين النازحين، بوجهه المنتفخ من شدة السكر، وأصابعه الأربعة، وينهال على أول طاولة مثل غراب، ويذكر سوءات إلمار، رجله الألماني من بانات:

«سأقتله، أعاهدكم. لأنه يقنعني أن مليكي الشجاع أبداً بافله جوريشيتش الذي هربت معه، قد حمل على عنقه «صليب هتلر المعقوف! وصورته، ونزح إلى ألمانيا. لكنني لا أصدقه أبداً وأكذّبه كما أكذب ريشة ماشانوف...».

ومنذ عشرين سنة يردد كافرو تلك الأحاديث أمام صاحب الفرن إلمار فينك، الذي ما يزال حياً معافى، الذي يغسل له كافرو سيارته المرسيدس ويلمّعها، ويتصور معها. بالرغم من أن كافرو يكره تلك الصور...

وكان كافرو بيرونوف بافلوفيتش يكتب الأغاني على طريقة «ما بعد ألف وتسعمئة... تأتي السنة الخامسة والأربعون..»[1] تلك الأغنية الطويلة التي لا تنتهي ويعرفها الجميع من خمارات شارع شيلر، حتى أولئك غير الراغبين بالسماع، وهو المتحدث دائماً عن عذابات المهاجرين النازحين، في

---

١ - يقولها بشكل مقفى. - المترجم -

ذلك التسكع على أراض غريبة، لا رحمة لهم، في الطريق المسمى «كسر الرقبة». بلهجة أهالي كوكوتا العلوية، أو كوكوتا السفلية، في قراهم مسقط الرأس التي أخطأ كافرو بحقها.

كان مرض الربو يفتك بكافرو بيرونوف الذي يسميه «الداء الأرجنتيني» والذي استفحل به في جبال بونس آيرس ١٩٥٧ «حينما كنا نشحذ السيوف ونهيئ الرماح من أجل بافيليتش د. أنته مصاص الدماء». وحينما تأتيه هجمة السعال الأرجنتيني يقفز نصف الموجودين في شارع شيلر ويقفر من الناس، ولا يبقى سوى أولئك الذين يحبون أشعار الفران.

عندئذ يسحب كافرو بيرونوف من جيبه الملوث بالطحين دفتراً سجلت عليه أفكار النازحين المهاجرين، وكلماتهم، وتعابيرهم! ولن يفهم أي شخص غير مهاجر أو هارب، أو لم يكن بصحبة هؤلاء، مأساة كافرو تلك، المالك لأوصاف لا تحصى للنازحين، سواء أكانوا سياسيين أو بالمصادفة، أكانوا متطرفين أم ضائعين، وهذه عينة منها:

«المقطوعون، الهاربون، المهاجرون، المبعدون، النازحون، العابرون، المشردون، المغضوبون، العبيد،.. إلخ..».

ويؤكد كافرو في خمارات شارع شيلر أن ثمة أغنية لكل مهاجر في هذا العالم. لهذا ترى عينيه باكيتين دائماً. ومرة كتب شيئاً من النثر. أهو عمود صحفي أم ماذا؟ وأخذه إلى صحيفة للهاربين النازحين تصدر بالحروف الجرليتسا[1]. رفضوه، وقالوا أميّ جاهل. ففقد كافرو إيمانه برفاق السلاح

---

١ - الأحرف السلافية الأصلية التي تستعمل ما تزال، إضافة إلى الأحرف اللاتينية. - المترجم -

والأخوة الدراجيين والبافيليين»[1]، بكل ما كان مقدساً لديه. ما عدا إلمار فينك، الذي يتسلل كافرو من عجينه وطحينه كي يقف في شارع شيلر الغاص بالنازحين الهاربين، فيعدد، ويبكي، ويندب، ويشتم، ويكيل اللعنات.

وكان كافرو بيرونوف بافلوفيتش، الضائع، من كوكوتا العلوية، قد صرّح مرة أمام الرجال بأربع أصابع الذين حفظوا ذلك وسجلوه:

«نحن المهاجرون النازحون القدماء، نحن الهياكل العظمية، سنعود إلى جنوبنا إذا وضعتم راحاتكم على أكتافنا، وإذا قلتم إنكم سامحتمونا على أخطاء الماضي وكبائره. بأنكم من دوننا نحن المعتوهين لا يمكنكم سحب المياه وجرّها إلى ساحة القرية. ولا أن تغسلوا المدارس وتطلونها بالكلس، فما بالك بتزيين الصلبان بالورود يوم القديس جورجي. وإذا لم تقولوا ذلك لنا فسوف ننحني وننهار حيث نحن، وسوف تخمشون خدودكم أنتم في الجنوب طيلة العمر، هذا إن كنتم بشراً أسوياء، وتهرقون الدموع الذليلة...».

لم يفهمه أحد، حتى ولا إلمار فينك، الواقف بجانب سيارته المرسيدس. مما جعل كافرو بيرونوف بافلوفيتش يقرر لتوه وحالاً هجاء نفسه بقصيدة من عشرة مقاطع تصف حياته الخاطئة لمهاجر نازح..

---

١ - نسبة إلى دراجو ميخايلوفيتش قائد الجيوش الملكية الصربية ضد الثوار، وبافليتش أول حاكم لدولة كرواتيا الحرة المستقلة. - المترجم -

XVI

إيليا راونيتش، صاعقة من البوسنا. من قتل يانكو بوبوفيتش كورسولا؟.

كان اسمه إيليا راونيتش. مات جميع أشراره الملتحين الجتنيك من رومانيا، أو إنهم باتوا بعيدين جداً عن النمسا. وبهذا لم يعد هناك من يناديه «إيجو» أيها الصاعقة البوسنية!».

لم يكن إيليا صاعقة، ولا كان برقاً. كان ضعيفاً وحساساً. كان يرتجف طيلة سني الحرب، ويسير من خلف المحاربين يقشر البطاطا، ويعمل إشارة التصليب. لكن الحرب لم ترغب بالتوقف، مما أفقد إيليا إيمانه حتى بالإله. وأخيراً توقفت الحرب، فقصد إيليا بلدة صغيرة على حدود النمسا - ألمانيا الغربية. لقد رفعته امرأة مطلقة عن الطريق. أدخلته إلى الاصطبل ودفأته. وظل هناك حيث وضعوه وغطوه.

كان إيليا يكره النمساويين. وكانت تلك الكراهية متبادلة. كان السكان يشيحون برؤوسهم حين رؤيته. ولم يتهيأ لهم أن يشاهدوه حينما كان هو الآخر يشيح برأسه حين رؤيتهم حتى التوى عنقه بسببهم.

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لم يصعد إيليا إلى القطار سوى مرة واحدة. وسافر إلى ميونخ كي يلتقي بيوفان بالي كوريتش، أخيه من الكتيبة الجتنية. لكنه التقى مع بالي كوريتش آخر اسمه ستيفان، المولود في بودرينية. وكان ستيفان أسيراً، ولم يكن يعرف أي شيء عن «الأخوة الواصلين، بعد الحرب، أو الجتنيك، أو رجال لويتتش، ولا عن الباقين الذين قيل إنهم

كانوا مع الألمان. أولئك الذين تهرّأ في زنازنهم أربع سنوات في ظلام مطبق...» وكان ستيفان مشرّد المحطة.

يدعو إيليا، ستيفان، إلى شرب البيرة في «مقهى شيلر»، ويستدير إيليا روانيتش إلى شباب وصلوا لتوهم من يوغسلافيا وهدفهم البقاء مدة أطول، ويقول: «لا بدَّ أن يمتلك المهاجر النازح معطفاً، معطفاً واسعاً وطويلاً، طويلاً جداً، كي لا يرى النمساويون أنك من دون قميص داخلي وسروال داخلي! وكل ما عدا ذلك غير مهم..»

فسأله الشباب ذوو الأربع أصابع من لديه من الرجال، فأجابهم أنه يملك كارل، الذي لم يتجاوز العشرين. وكان إيليا يكره كارل لأن الأخير لم يرغب حتى بالسماع عن رومانيا ورجالها السابقين الملتحين. وكان كارل راونيتش يلعب التنس، ويذهب كل عامين إلى إسبانيا للعطلة، ويعمل نادلاً هناك. وما يزال إيليا راونيتش يجادل لتثبيت مفهوم نهر الدرينا الدامي، مما يتسبب بانهيار عصبي لكارل حين ذكر البلقان والبوسنا، ومحاولة تثبيت مفهوم نهرما. وهو ما حدث في يناير ١٩٤٢. ويقرأ إيليا راونيتش بصوت مسموع تاريخ الحرب العالمية الثانية، التاريخ المكتوب بإصدار الشيوعيين هناك في الجنوب». كي يجد جماعته على لائحة الخاسرين المهزومين ويجد اسم بالي كوريتش. وكان إيليا راونيتش يكره كارل راونيتش، وكان الأخير يشعر بتلك الكراهية لكنه لا يتصور حجمها ونوعها. وكان إيليا راونيتش في بلاد الألب يحلم بالملك، بأي ملك كان، بالملكية، وقد سئم من كارل والجمهورية. والسؤال في أية ساعة سيطلق راونيتش الكبير على روانيتش الشاب كرة الرصاص في تلك الجمجمة اليسارية الغائطية»!.

وكان إيليا راونيتش يخاف حدّ الموت من تهديده الذي أطلقه أمام كل هذا الحشد من النازحين في خمارة شيلر. ولم يصوب على كارل لأنه لم يكن يستطيع العودة إلى النمسا. كان يسكر ويعربد في ميونخ مع ستيفان بالي كوريتش، وينشرد، وقد لبس أطول معطف. والآن صار لدى ستيفان أخ ومشرد مثله، وهو يصيح أحياناً:

«إيجو، أيها الصاعقة البوسنية، إيجو يا عاصفتي!» لحظتئذ يبكي إيليا راونيتش ولا يجف خداه لوقت طويل.

وقد بدا ستيفان بالي كوريتش وإيليا راونيتش مثل فزاعتين. لهذا لم يعد بمقدورهما الدخول إلى خمارات شيلر. لم يسمحوا لهما وهما على تلك الصورة، رغم توقهما الشديد للدخول ولو لمرة واحدة!. وكانا يعرفان ويؤكدان معرفتهما بالرجل الذي طعن يانكو بوبوفيتش كورسوف بإحدى عشرة طعنة بالسكين، ذلك المقامر، والمغامر، وشاعل المشاكل، وصاحب المقهى من روزن هايم...

XVII

كيف انطلق توميتسا باكراش، قاذف القنابل، ثانية إلى سلافونيا.

عاش توميتسا باكراش تحت جبل بابوك. كان أصغر «دوموبران»[1] وأكثرهم خوفاً. ولا يستطيع التذكر كيف نجا من معركة الجسر. كان يتسكع في النمسا كالآخرين، وهو يأكل البطاطا النيئة ويمضغ قشورها ويبتلعها. وحينما ظل الآخرون في النمسا، ووافقوا أن يصبحوا عبيداً، فإن آخرين ظلوا في بافاريا، حينها كان توميتسا باكراش يعاني من البرداء وينتفض. كان يركض باستمرار. حتى وصل إلى حدود الدانمارك، قرب مدينة كيل. هناك مرض بالتيفوس، وارتمى في أحد الاصطبلات. وحتى اليوم لا يعرف هل كان أصحابه على علم به أم لم يكونوا. كان يخنق الدجاجات ويفسخها ويأكلها لحماً حياً. ويحلب البقرات ويشرب، حتى تعافى. عندئذ لاحظوه، وقالوا: يمكنك البقاء. وصاروا ينادونه: يا روسي. وعندما لاحظ أن جميعهم يدينون بالبروتستانتية، ولا يوجد كنيسة كاثوليكية قريبة ولا بعيدة، فقد استعجل هارباً باتجاه الجنوب الغربي. وهكذا وصل إلى حدود ألمانيا الغربية مع هولندا. وصار مربي خنازير. وأحب عمله هذا جداً، فهو لم يعمل في حياته عملاً أكثر دفئاً، ولا حينما كان

---

١ - دوموبران: المدافع عن الوطن: أحد ألوية الكروات أثناء الحرب ضد الثوار. - المترجم -

يعيش تحت جبل بابوك. وفي الحظيرة كان يتعبد ويناجي أنطون المقدس، بل وماريا طيلة الليل...

لكن أنطون وماريا «أم الرب العذراء» لم يستطيعا نصحه بشأن القنابل الألمانية القديمة ذات المقبض التي كان يحملها في صدره أو داخل سرواله الداخلي منذ يوم الاستسلام والانكسار عام ١٩٤٥. ومن العجيب أن أحداً لم يره ولم يحتجزه. هكذا عاش توميتسا باكراش في حيرة مع قنابله التي أطلق عليها الأسماء، وكان يكلمها، يتشاجر معها، وينحني من فوقها كأن القنبلة خنزير أسود. وكان يهرق الدموع ويتوسل أن تجيبه القنابل...

وتمر السنوات، وقد ربى توميتسا وسمّن أعداداً لا تحصى من الخنازير الجميلة المحببة واقتادها إلى المسلخ، منتظراً حدوث المعجزة، أو قيام حرب ما، حتى شاب شعره وانحنت قامته.

وماذا ستفعل بالقنابل؟

لم يكن ثمة جواب!. وعبثاً زار توميتسا جميع الكنائس على الحدود، وجميع الأديرة والقبور وهو يصلي ويعترف ويسأل ماذا عن القنابل. لم يفهموه جيداً لأنه كان يجهش بالبكاء ويرتجف. فهرب من غرف الاعتراف، فركض القساوسة من خلفه يتساءلون عن أية قنابل يتحدث. فخرّ على ركبتيه وهو يقنعهم أنه لم يكن يتحدث عن القنابل بل عن خنزير أسود...

عندئذ يرى توميتسا حلماً أمروه فيه أن يسارع فوراً إلى ميونخ. فودع خنازيره، وبكى، وأخذ كل ما كان يملكه. ووصل إلى ميونخ قبل منتصف الليل، ودخل مقهى شيلر، الذي كان مكتظاً بالهاربين النازحين القدامى والجدد، بالمهربين، والسماسرة، والغشاشين، والكثير من اللصوص. الذين

ينتظرون قطارات الليل القادمة من الشمال قبل انتهاء العام حاملة العمال الأجانب اليوغسلاف واليونانيين والأتراك إلى ديارهم. ولم يسبق لتوميتسا أن تواجد بين كل تلك الأعداد من اللصوص والخاطفين، فاعتملت الأشياء في عقله، وتقدم إلى منتصف حانة شيلر وسحب من صدره ثروته الوحيدة: القنبلة ذات المقبض، وصاح بصوت جهير متقطع:

«أخبروني يا أخوتي اليوغسلاف ماذا يجب أن أفعل بهذه العجيبة السوداء؟ التي تحيّرني وتشتتني وتمنع النوم عن عيني! وتقول إن وقتها قد أزف. إنها تريد أن تنفجر! فعلى من أقذفها؟ أعلى نفسي أم على رأس جبل بابوك الأعمى؟».

«على نفسك وعلى جبل بابوك!» أجابه الرجال بأربع أصابع، وحشروه على قطار «البلقان اكسبرس» المنطلق في الواحدة إلا خمس دقائق.

هكذا انطلق توميتسا باكراش إلى سلافونيا...

XVIII

بوكوليوب - بوجا بيريتش، مبتزّ ومتوحش يغش ذوي الأربع أصابع.

صار سراً علنياً أن بوكوليوب - بوجا بيريتش، تلك الأطلال البشرية برأس ضخم وكرش كبير، الذي يذهب أسبوعياً إلى خمارة شيلر، هو المذنب لموت العشرات، بل والمئات من سكان بلغراد. كان في جيش ناديتش، ويحمل رتبة ما. وكانوا ينادونه بلقب المبتزّ، ولم يكن يعترض على لقبه ذاك. وما زالوا ينادونه به حتى الآن في عالم تحت الأرض، في ميونخ وفرانكفورت. وكم يطيب له الحديث عن مدينة بلغراد تحت الاحتلال. ويستمع إليه بكل سرور الحثالة من الهاربين النازحين، والقادمين البلقانيين، والمجرمين من الدرجة الثالثة، والعديد من ذوي الأربع أصابع، تدهشهم صراحته. معتبراً أن جيشه السابق من وحدات ناديتش هو الأفقر، ولا يستثني نفسه.

كان لصاً إبان الاحتلال من أبشع أنواع اللصوص، ويعترف حينما يسكر في خمارة شيلر، أنه كان يشي بالمواطنين الأبرياء لمجلس المدينة. كان يفعل ذلك بناء على سجله الخاص. هكذا كانوا يقودون المشتبه بهم من البلغراديين، سواء أكانوا مؤيدين للكتائب الحمر، أو من المؤيدين للإنجليز، إلى مخيم التعذيب بانيتسا.

وهكذا يذهب بوجا بيريتش المبتز والمتوحش إلى عائلات الضحايا المساجين، وهو يتباهى بصلاته القوية مع مجلس المدينة، ويعدهم بأنه

سيفعل كل ما بوسعه، وأنه بإمكانه، كما كان يقول، أن يعرّض روحه للخطر، كما يفعل دائماً من أجلهم، إنما يجب الدفع، الدفع... فهو نفسه لا يعرف كم بقي له في الخدمة. فيسأله المواطنون ماذا وكم؟.

ولم يكن يرحم ولا يوفر، كان يبتزّ اعتماداً على سجله الخاص، وقد أغرم بخواتم الذهب جداً، وبالمصوغات والمجوهرات، خصوصاً الألماس، ولم يوفر الأشياء الفنية القديمة، اللوحات، والأيقونات، ويحمل البيانو، والكمان، والبوق، ومضارب التنس، والكتب والمخطوطات، والإطارات، والستائر. وإذا لم يجد الأواني الفضية والثريات والسجاد الثمين والليرات الذهبية، كان يحمل الخزائن مع ثيابها، وخصوصاً القمصان «السينيه» التي عليها توقيع، والخواتم. وطيلة سني الحرب الأربع كانت الأحذية المسروقة الضيقة تسبب له الدمامل، وكذلك الجزمات. كان يبيع الأشياء المنقولة بأسعار زهيدة، ويخبئ الثمينة منها، لأنه كان يشعر - كما يؤكد اليوم - أن الحرب لن تنتهي برغبة «الأب الصربي» ميلان ناديتش، في سبتمبر ١٩٤٤. ولم يكن في مدينة بلغراد كلها محتال أغنى من بوجا بيريتش...

وحينما شعر باقتراب الانكسار والهزيمة والوقوع تحت إبط اليساريين، انطلق إلى سالزبورغ، بقصد الإشراف الطبي والمداواة عند الفزيولوجي الأشهر الدكتور شفارتز كيلر وهو «صديق بلغراد». واعتلى القطار مع حقائبه العديدة، ووصل، لحسن حظه، إلى الدكتور شفارتز كيلر، الذي استقبل بحفاوة بالغة جامع الأيقونات البلقانية «الذي عمّ فضله على الصرب جميعاً».

كان خريفاً شديد الضباب وبارداً، وصار الوخز يأتيه من الجهات جميعها، وكذلك الدكتور شفارتز كيلر، مالك ذلك النزل، فيقضيان طيلة

النهار والليل وهما يقارنان مجموعتيهما، مع التساؤل: وماذا عن الذهب؟، الذي طمرا بعضه، وحزما بعضه الآخر وأرسلاه من خلال الحدود إلى سويسرا.

وفي العشرين من أكتوبر ١٩٤٤ «هذا السقوط المعيب لمدينة بلغراد.. الذي سوف ينتقمون له..» كان بوجو بيريتش في بلدة براوناو على نهر «إن» الصغير، يقف مع الدكتور شفارتز كيلر بالطبع، ولقد بكى الدكتور شفارتز كيلر «على بلغراد المعذبة، التي من الصعب مساعدتها..».

وكان الوقت قد تأخر جداً بالنسبة لعودة بوجا إلى بلغراد «هكذا كان يحكي في خمارة شيلر». لقد بات حكام الوطن من الكفار، من الفلاحين، والثوار. ولم يكن الرجال ذوو الأربع أصابع يفهمون تلك التعابير بل يسألون عن الحقائب والذهب والمصاغ. فيجيب بوجا بأنه اتخذ القرار الأصعب «ما دام الذهاب إلى الجنوب شبه مستحيل» وهو النزوح والهجرة والانتظار. لكن الرجال بأربع أصابع كانوا يسألونه عن الذهب والمصاغ وإبر الألماس.

ولقد أراد بوجا بوكوليوب أن يجمع شمل المقطوعين ولصوص المحطة وقواديها ووحوشها البشريين، فاستمر من دون زواج، بالرغم من امتلاكه عدداً لا يحصى من الخطيبات!، اللواتي حولتهن الحرب إلى أرامل، بعدما ترك أزواجهن عظامهم في ساحات الوغى البلقانية وفي غاليتسيا وأبتين. وكان يبتزهن، ويأخذ منهن، ليضخم مجموعته. لقد فعل في ذلك الوقت، في زمن الأرامل النمساويات والألمانيات، ما لم يفعله غيره..

وكان بوجا بيريتش، السكران، الباكي، معوجّ العنق، الناظر ساهماً إلى البعيد دوماً، الواقع في وحل شيلر، يحكي لأولئك الخاطفين، النشالين،

المدلسين الغشاشين، حارقي بيوت العمال الأجانب، وللعمال مفتقدي الخبرة، كيف كان طيلة السنوات الأربع من احتلال بلغراد يشي بالآمنين البلغراديين. ولم يكن الرجال بأربع أصابع يستمعون إليه بإعجاب مما كان يقوده للغضب والجنون.

وكان في أوقات صحوه من السكر أشد ظلامية. دون أن يخفي عن زوار شيلر مدى سعادته لو رأى شوماديا، مسقط رأسه، في أتون النار تستعر. وأن يدس الديناميت تحت جميع جسور بلغراد. ولن يكون مثل «ميلنكو خركاش» الذي زرع المتفجرات في صالة سينما واحدة في بلغراد، بل سيزرعها في جميعها. ولكي تتطاير محطة القطارات نتفاً في الهواء، كي لا يتمكن بشرٌ من دخول مدينة بلغراد، التي قلبت له ظهر المجن، وخذلته وخانته في شهر أكتوبر ١٩٤٤. وسوف تسيل الدماء في شارع تيرازيا، دماء شيوعية وحمراء، ولكي تكتب جميع صحف اللاجئين أن الإله حي وموجود.

وكان جسده ينتفض فوق الأرض مهتزاً وهو يسمع عن اغتيال أحد السفراء أو القناصل، عن هجوم إرهابي على العمال الأجانب، عندما يقرأ عن أي اعتداء على الوطن، الوطن المسؤول الأول عن كل ما حصل. وكم يودّ ذلك المبتز، المُستهلك، الجبان، الهارب، لو أن رجاله فعلوا ذلك ببني جلدته، وليس أي شعب آخر، كانت ستقتله الغيرة، التي تتملكه الآن أيضاً، ولا يخفيها عن الحثالة أمثاله من المحطة.

ويؤكد بوكوليوب بوجا بيريتش أنه سينشئ العديد من المنظمات الإرهابية الصربية، بل وسوف يسبق منظمة درينا الأوستاشية الكرواتية «HNO» «المقاومة الشعبية الكرواتية» و«HRB» «الأخوة الثوريون الكروات»، التي ينتشر أعضاؤها سفراء في نصف الكرة الغربي، متسكعين من ميونخ حتى شيكاغو، ومن ستوكهولم حتى الباراغواي. ويسير مختالاً إلى وسط الخمارة ويقف هادراً بأعلى صوته، مؤكداً، كيف سيحجب الشهرة عن حركة التحرير الكرواتية «HOP» بإنشائه وتمويله حركة التحرير الصربية «SOP» عندها سترى مدينة بلغراد وتتأكد من هم النسور البيض، وأي منتقمين هم، وأي حارقي بيوت، وذابحي كل من يتجول في الأزقة اليوغسلافية.

«وأين ستجد يا كبيرنا كل هؤلاء النسور البيض؟» يسأله الرجال بأربع أصابع الذين لا يحبون هذا النوع من الإرهاب.

«سأشتريكم أنتم أيتها الحيوانات بدون ذَنَب!» يصيح والزبد يغطي فمه، مهتزاً يكاد ينهار. «أنتم وأمثالكم، ومن غيركم وغيرهم!».

«وبماذا ستشتري ذوي الأصابع الأربع أيها العجوز؟» يسألونه.

«بالماركات. الماركات الألمانية أيتها العصابة اليوغسلافية!» ويهتز مضيفاً «بالماركات بالدولارات، بالذهب!. سألبسكم، وأحذيكم، وأحولكم إلى بشر. ولأول مرة في حياتكم مذ وعيتم على أنفسكم ستشبهون البشر وأنتم تحت إمرتي! وستهجمون بسكاكيني على يوغسلافيا الملعونة!».

«أيها العجوز لا تبدو عليك النعمة والكرم» يفند حثالة المحطة، بائعو المسروقات ومشترو المباع: «بذتك مهترئة، حذاؤك بالٍ مشقق، ولا تدفع إلا ثمن بيرتك التي تكرعها.. ولهذا لن تكون قائداً أبداً!...».

«أيتها الحثالة البلقانية، أيها القرود، كل ما يملكه بوجا مكوم في الخزائن الحديدية. هذا إذا كنتم أصلاً تعرفون الخزائن الحديدية وصناديق الأمانات.. في البنوك!» يعوي هذا المبتز وقد أشهر قضيباً مثل سيف يطعن به هواء الخمارة الدخاني. «وحينما سأصرف كل أموالي النقدية على «SOP» و«SNO» و«SRB» حينما سألبسكم وأسلحكم، سأذهب إلى براوناو، عند طبيبي وحبيبي الدكتور شفارتز كيلر... لآخذ الباقي، المطمور منذ سقوط بلغراد في أكتوبر ١٩٤٤، على ضفاف نهر «إن»!. أونصات الذهب، خواتم الألماس، أغلى أنواع اللؤلؤ، وأشتري الأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة والثقيلة، التي ستحملونها بصفتكم نسوري البيض، أفراد كتيبتي! وإذا احتاج الأمر سأشتري المتفجرات بالأحجار الكريمة، والأجهزة الجهنمية، التي ستزرعونها، يا رجال جيش المرتزقة، في الكنائس اليوغسلافية، والأديرة، والمتاحف، والمستشفيات، وملاعب كرة القدم. أريد أولاً أن تتذكرني مدينة بلغراد، ثم أن لا تنساني أبداً!».

ولم يستطع أي من الرجال بأربع أصابع أن يخبرني هل استطاع هذا المبتز، الخائن، هذا المعتوه مدمن الكحول، المرتشي، أن يؤسس أية حركة تحرير

صربية، «SOP»، كما لم يستطيعوا إخباري أي سعر كان مناسباً للنسور البيض الصرب العجزة في تلك الأيام المشؤومة الغبراء...

ولقد قصّ هؤلاء الرجال بأربع أصابع، أمامي، أولئك الشباب الأبعد عن الإرهاب السياسي، أولئك المشردون، اللصوص، بوجناتهم المتورمة والانتفاخات الزرقاء تحت عيونهم، هؤلاء النشالون، السحرة، كيف كان بوجا بيريتش في حالة سكره غير الشديد ينقط لعابه ومخاطه على وجهه في حانة شيلر. وكان بكاؤه ناشفاً، وصوته متقطعاً، ونظرته بلورية كمرضى الصرعة.

ولقد اعترف بوكوليوب بوجا بيريتش بصراحة، وبطريقة احتفالية، أنه أخفق كغيره بالطبع. لكنه لم يكن المذنب لإخفاقه ذاك. كان المذنب أدولف هتلر، الذي لم يكن يملك مناصرين وحلفاء جيدين أوفياء. هذا ما كان يسرّه للرجال بأربع أصابع، ويضيف أنه لا يملك أي مال نقدي، ولا أية مجوهرات وإبر ألماسية. ولقد وجد صديقه وحاميه الدكتور جوزيف شفارتز كيلر مقطعاً ومفروماً في فيلته.. ولا بد أن الفاعلين هم المهاجرون النازحون أو الصقليون، ومن غيرهم؟!. هذا ما أشيع في النمسا. ولقد استولى القتلة على كل شيء، على كل ما كان يعود للدكتور أولبوجا، بل إنهم وجدوا المطمورات، واستخرجوها، ذكريات الحرب البغيضة! وتركوا بعض الآثار، بعض الجمل المكتوبة بلغات عديدة. وحفروا على جبهة جوزيف شفارتز كيلر الصليب المعقوف.

حسن. لم يعد شفارتز كيلر موجوداً. انتهى أمره. لكن ماذا عن بوكوليوب بوجا بيريتش بدون قرش واحد؟ بدون مأوى، بدون شرف، سيعيش مشرداً، بذقن مرسلة كثة، وسوف يسمعونه كلمات، كما يسمعونها

لغيره: «أيها الروسي الأبيض! أيها الروسي الأبيض!. أيها المعتوه!» «إلى أين ستذهب أيها العجوز؟» يسأله الرجال بأربع أصابع: «في الخارج أمطار بافارية جليدية! فأين ستذهب أيها العجوز؟ إذا تمكنت، إلى أي مكان تستطيع فيه قدماك وقلبك وعقلك من خدمتك؟».

«لو أنني أيها الجبناء، أحصل على عدة مئات من الماركات» ينشج بقايا الرجل، ويضيف «كنت سألبس وأنتعل، وأسرح شعري، كي لا يشمتوا بي...».

«من تقصد يا عم بوجا؟» سألوه وهم يطلبون الدورة العاشرة من الكحول[1].

«لو أنكم تصلحون حالي، يا أطفالي، لو تجعلوا مني بشراً... لذهبت، ولو مشياً على الأقدام، إلى مدينة بروكسل. هناك يعيش مثلي الأعلى... بورا!».

«ومن هو بورا أيها العجوز؟».

«مثلي الأعلى، يا أطفالي، مثلي الأعلى» يستمر الرجل المُستهلك: «بوريسلاف بورا بلاكويفتش. واحد من رجالنا النادرين الذين نجحوا. إنه عراب. عراب صربي! أو أنهم ينادونه فقط بذلك. سأذهب إليه وأحدثه بكل شيء عن حالي، وعن شفارتز كيلر. سأحدثه عن بانيتسا قريتي وقريته. سأركع أمامه على ركبتي وأسجد. سمعت أنه يملك القنابل. سأستجديه واحدة، وأهرع إلى بلغراد ألقيها عليها، أو على نفسي، يا أطفالي، على هذا

---

١ - يجلس الرجال متحلقين حول طاولة ويطلبون المشروب الكحولي كأساً لكل واحد «دورة»... وهكذا تتكرر الدورات ويدفع كل منهم ثمن دورة كاملة. - المترجم -

الرأس الذي جننه الشوق والوحدة!» ولا يفهم الرجال ذوو الأصابع الأربع بالقنابل، لكنهم سمعوا عن واحدة تستطيع تدمير جسد النازح المعقد والمعذب. ما يهمهم أكثر هي الأقفال، والخزائن الحديدية، ومراكز البريد المتطرفة والموتيلات[1]، قطارات الليل والمسافرون النائمون. ولا يدرك بوكوليوب بوجا بيريتش أنه لن يستطيع إبكاءهم بتلك الحكايات السخيفة. فالمجرمون يمكن زحلقتهم على موشح آخر وليس على هذا. والرجال بأربع أصابع لا يرأفون بأي كان، لأنه لا أحد يرأف بهم، والحقيقة أن إنسانيتهم مؤثرة. سيسمعونك حتى الفجر إذا شئت، ويسألونك من قتل من، لكن سبب القتل لا يهمهم. وهم يؤمنون أن كل شيء ممكن شريطة أن لا يكون هناك شاهد. والأهم هو المال وطريقة الحصول عليه. دون إغفال الطقوس والنكتة بالطبع. إذ يجب إخبار الرفاق بالطريقة الأكثر إضحاكاً. ولا يهتم الرجال بأربع أصابع بالمنهكين أمثال بوكوليوب بوجا بيريتش، بل بالنمور الأقوياء، بالعرابين، بالأشقياء، حتى لو كانوا مدلسين غشاشين خونة ووحوشاً بشريين - اسبق واسرق - شعار رجال هذا الزمن. بهذا المفهوم جلس أولئك الرجال العشرة يستمعون إلى حكاية بوجا عن عرابه من مدينة بروكسل. وكأن الحديث عن القنابل، وعن الألغام، لا يهمهم، وكل ما يجعلهم مسمرين على كراسي خمارة شيلر هو المال، مال العراب.

---

١ مفردها موتيل: فندق صغير على طريق السفر. - المترجم -

XIX

الفتوة[1] من فوجا. في ذلك اليوم أوردت الصحف البلجيكية خبراً قصيراً جداً: عثر على جثة رجل خمسيني هزيل وطويل في شارع هادئ في بروكسل.

للحظة ندع بوكوليوب بوجا ببريتش، ليهنأ بدموعه ويختنق بها. ونتابع حكاية الفتوة من فوجا. عجيب الخلقة والشكل، الذي أنهى حياة الشاعر مؤلف ديوان «الجورة» كوران إيفان كوفاجيتش يوم ١٢ يوليو ١٩٤٣، في عيد القديس بطرس، وسط حقل يسمونه كنيسة الشؤم فكيف حدث ذلك؟.

كانت الهضبة الخضراء ما تزال تحترق نافثة دخانها، والأنهار تنضح بالدماء، حفلة موت كبيرة. أسطورة امتلأت بضحاياها، لكن بالأحياء أيضاً. وكان لهذه المجزرة شاهد من الدرجة الأولى، هو الشاعر إيفان كوران كوفاجيتش الذي كانت «جورته»[2] من حسن الحظ، عند الآخرين. وفي الأساطير يؤجل كلّه إلى النهاية. لهذا سنسرد نحن فقط ما حصل من لحظة مصادفتنا مفهوم الظاهرة الأكبر في شعرنا ايفان كوران كوفاجيتش، ما دام لا يتوافر لدينا المكان ولا الوقت المتاح للسرد، ونحن نعتمد على حكاية شاهد موثوق.

---

١ - الفتوة - العكيد، حامي الحارة. - المترجم-

٢ - ديوانه الشعري. - المترجم -

ولم يكن إيفان كوران كوفاجيتش وحيداً، كان يسحب معه الدكتور سيمون ميلوشفيتش الجريح من خلال الجداول الدامية حتى وصلا بصعوبة إلى قريته فربنيتسا، على سفوح الهضبة الخضراء. اختبأا في حظيرة حيوانات تعود إلى فيدومواليشا. وقدم الدكتور نفسه للفلاح باسم يوفان. وقدم كوران إيفان كوفاجيتش نفسه باسم بيتر كوفاجفيتش. وصار الفلاح يطعمهما. ولم يفارق كوران الدكتور سيمون. وبينما كان فيدو ماليشا يحذر من الخطر، كان الدكتور الجريح يكرر دائماً ويردد: اسحب يا كوران رأسك أنت على الأقل من هذا الجحيم.. اذهب!».

«لن أفارقك أبداً!» أجابه الشاعر.

«سيقبضون عليك يا كوران» همس الدكتور ميلوشفيتش.

«فليقبضوا!».

وكان رجال الجنيك يتسللون ويعيثون فساداً. وقد بدت لهم حظيرة فيدو ماليشا مشبوهة. فاقتحموها، ووقعوا على الجريح والشاعر. ولم يتوسل أي منهما عفواً أو رجاءً. بل انتظرا حصول ما يجب حصوله. وكان يقود محاربي الجنيك رجل اسمه ميلوراد دراشكوفيتش. مقدم ورئيس «كتيبة الدرنيا»، الذي تعرّف في شخصية يوفان على الدكتور ميلوشفيتش وسأله:

«أيها الدكتور هل تذكر من أين أعرفك؟».

«كلا!» قال الدكتور ميلوشفيتش.

«أعرفك من كوتور. من المستشفى هناك!». هدر المقدم دراشكوفيتش

«ممكن» قال الدكتور، وبجانبه كوران كوفاجيتش الشاعر «من كان يظن أننا سنلتقي على هذه الحال!».

«وبما أنك يا دكتور لست إيفان، فالذي بقربك ليس بيتر كوفاجفيتش» قال المقدم الملتحي أمام رجاله الملتحين.

«من هو إذاً؟» سأل الدكتور الجريح.

«نعرفه شاعر الثوار هذا. صحفي من زغرب.. أو شيء من هذا القبيل...».

«إنه طبيبي» قال الدكتور سيمون ميلوشفيتش. «إنه يرعاني ويداويني! ولو لم يكن بجانبي...»

«من هذه اللحظة سنداويك نحن ونرعاك..» قال المقدم دراشكوفيتش «يلزمنا دكاترة.. كل ما عليك إعلان رغبتك بالوقوف معنا. قل ذلك فقط أيها الدكتور من كوتور وسيبقى رأسك على كتفيك!، أنت ورجلك هذا صاحب العينين الزرقاوين، هذا الشاعر!».

«أرفض أيها المقدم!» حشرج الدكتور ميلو شفيتش.

«أيها الرجل بدون ذلك لن تبقى حياً» قال المقدم دراشكوفيتش «ولعلك تدرك كم هي الساعة التي أزفت بالنسبة لك..».

«لن أذهب معكم يا رجال الجتنيك!».

«أهذا كل ما لديك يا دكتور؟» سأل المقدم غاضباً.

«نعم هذا كل شيء» قال الجريح بهدوء.

«وهل هذا ما يفكر به أيضاً شاعر الثوار؟».

«أفكارنا متطابقة أنا وسيمون!» قال الشاعر إيفان كوران كوفاجيتش.

«هل تعلمان ما ينتظركما؟» يسأل المقدم دراشكوفيتش.

«نعم!» قال سيمون وكوران بصوت واحد. «ينتظرنا الموت! الموت الذي لن يلاحقكم أنتم فقط بل كل من على شاكلتكم، وللأبد!».

«وهل نحاول إقناع بعضنا بعضاً؟» سأل المقدم.

«لن نستطيع الاتفاق» قال الدكتور الجريح سيمون «اقتلوا... هيا..».

عندئذ اقتحم حظيرة فيدو ماليشا رجلان من الجتنيك. كان اسم الأول باسيل بودي روكا. والثاني ستايوكوفاجفيتش، واقتلعا كوران الشاعر من فوق الأرض، دون أن يسمحا له بعناق أخير مع الدكتور سيمون الذي ظل وحيداً، والذي اقتادوه على طريق الجبل الأسود، وهم يحاولون جاهدين إقناعه لإعلان الندم، والانتماء إلى الجتنيك. وظل يرفض مدة يومين كاملين. عندئذ قاموا بتصفيته مع ثائر آخر لا نعلم اسمه بجانب الطريق.

ما الذي حدث مع كوران؟ لقد اقتادوه بطريق غراندیش فوينوفيتش بريدو. باتجاه نهر الدرينا العكر، عابرين عند ميشايا. واتجهوا إلى قرية بونوفا، ووصلوا إلى البستان الواسع الذي أطلقوا عليه أبشع اسم ممكن: كنيسة الشؤم!..

يقول سفيتوزار بيريتش كابتن الجيش الشعبي اليوغسلافي بعد الحرب، في جريدة «الكتيبة التاسعة الهجومية» إن الشاعر إيفان كوران كوفاجيتش قد بدا هكذا، في ذلك اليوم القدري من شهر يوليو: شاباً طويل القامة، ببذة رمادية - بيضاء ضيقة، ببندقية وحقيبة كتف تدلى منها زوج صرام[1] من جلد البقر. كان حافياً، بعينين زرقاوين عميقتين، حاسر الرأس..».

يا حسرة على كوران سار حافياً مدة طويلة!

وعلى أرض بستان كنيسة الشؤم كان ثمة اجتماع كبير لرجال الجتنيك. كان يجب الاحتفال بيوم القديس بطرس، وتشويهه. وقد توافد الشباب والكهول من الهضاب المجاورة، أغلبهم من الفلاحين المتأنقين في الحقول. وقد توجب الغناء والرقص وإطلاق العيارات النارية. لقد كان صفوة رجال الجتنيك يتحاورون حول زواج الملك بيتر الثاني كاراجوجفيتش، وهو يعقد الزواج في لندن وكأن الحرب ليست قائمة. ومن المعروف أن رجال الجتنيك لم يكونوا موافقين جميعاً على زواج الملك في الفترة العصيبة تلك، المصيرية بالنسبة للجميع.

وقد ظهر هذا الخلاف في الموقف من الملك وزواجه الهيستيري هذا، أفضل ما ظهر، بالكتابات المتبادلة بين دراجا ميخايلوفيتش قائد الجيش العام للجتنيك من جهة، وبين دراكيشا فاسيتش، الأديب والمنّظر الأيدلوجي الأول للحركة الجتنيكية من جهة أخرى. ولقد استطعت الحصول على تلك المكاتبات والاطلاع عليها بفضل أحد كتابنا.

---

١ - حذاء خف يشبه الصرماية معقوف في مقدمته يلبسه الفلاحون. - المترجم -

وبما أن دراكيشا فاسيتش يعلم جيداً حقيقة الشعب الذي يكره رؤية شخص يتزوج بينما يحترق غيره ويغرق بيته، ويعرف جيداً نباهة الشعب الذي ينتمي إليه، وخصوصاً نفسية ذلك الشعب وشعوره تجاه الملك والملكية بصورة عامة، فقد كان قاطعاً وحاداً حينما قال: كلا!.

وكتب «عزيزي الجنرال أخاف الدعاية المغرضة من الطرف الآخر! ولا بد من رجاء جلالة الملك بيتر الثاني كاراجورجفيتش الانتظار ما استطاع.. لأن زواج الملك، يا حضرة الجنرال، في هذه الساعات المصيرية لا يمكن أن يكون مقبولاً أبداً من الشعب. وأنتم تعلمون أنهم يعيبون عليه لأنه لا ينزف الدماء معنا في جبالنا الحرة...».

كان دراكوليوب دراجا ميخايلوفيتش قائد الجيش حازماً وحاداً وهو يقول: نعم للزواج! وإذا لم تخنّي الذاكرة فإن جملة مكتوبة في ظلال الهضبة المستوية، ومرسلة إلى الأيدلوجي والكاتب الأشهر في فترة ما قبل الحرب، دراكيشا فاسيتش كانت تقريباً على الشكل التالي:

«أخي دراكيشا، دع الصبي[1] يتزوج! «سيشتعل» الطعام والشراب، وسوف «نهبر» نحن على شرفه الكثير. ولا تظنن يا أخي أن الأمر سهل بالنسبة له... وهو بعيد عن وطنه الأم بين الإنجليز!». حصل الزواج. كان دراكيشا فاسيتش على حق. وعمّ الغناء البلقان كله، وصدحت أغنيته «عندما تزوج الملك..». لكن هل اشتعلت النقاشات أيضاً بين القبضايات الملتحين الآخرين أصحاب القبعات الباكستانية، في ذلك اليوم المشؤوم، على أرض بستان كنيسة الشؤم، حول ذلك الزواج المشؤوم؟. وكيف كان موقفهم؟ هل

---

١ - يقصد الملك. - المترجم -

كان متطابقاً مع موقف الأيدلوجي دراكيشا فاسيتش المدرك جيداً للنكتة القاتلة والنضوج السياسي لشعبه؟ أم أنهم تجاوزوا كل شيء مثل أولئك العراة قليلي الإدراك التابعين لقائد الجيش في الهضبة المستوية؟ هل كانوا يقتلعون ذلك الشعب المرعوب من بساتينه وسهوله فقط بسبب حيثيات ذلك الزواج؟ ذلك ممكن. وهل ساقوا أولئك الفقراء إلى بستان كنيسة الشؤم ليقولوا لهم إنهم قصموا ظهر كتائب كوران بمساعدة الألمان، والبلغار، والإيطاليين، والشرطة الإسلامية؟ وأن يعرضوا أمام الشعب غنائمهم...

كان الشاعر كوران كوفاجيتش حافياً.

ولم يفارق كوران كوفاجيتش المقدم الجتني دراشكوفيتش. لقد تمّ استدعاء بطل حكايتنا هذه من الجتنيّ الشاب يوري سلاف بورا بلاكويفيتش، الذي كان قائد «الفصيل الطائر» بالرغم من يفاعة سنه. ذلك الفصيل المتخصص من جيش الجتنيك، الذي كان يحرق ويدمر على طول نهر الدرينا والبوسنا بكل ما في هذه الكلمة من معنى، برجاله المتبارين أيهم سيقتل ويذبح ويغرق أناساً أكثر من السكان المسلمين في تلك الأنحاء. وكان فدائيو بورا هذا يقذفون في نهر الدرينا العكر جميع المذبوحين والجرحى والأحياء بأمر القائد الذي لم يتجاوز عمره العشرين على أكبر تقدير والذي اشتهر جداً بالقتل المنهج! وبات معروفاً اليوم أنه قتل رجلين إنجليزيين كانا يمثلان لجنة تقصيّ الحقائق الإنجليزية المرسلة إلى قيادة جيش الثوار.[1]

---

١ - أرسلت إنجلترا لجنة تقصّي الحقائق، وقابلت القائد تيتو، واصطفت إلى جانبه، بعد أن كانت إنجلترا مع الجتنيك جيش الملك ضد الثوار. - المترجم -

ولقد وقع الشاعر كوران كوفاجيتش في براثن متوحش كهذا بحقيبة مليئة بالأوراق والقصائد. وكان بلاكويفيتش يسحب كوران من شعره، يقوده أمام الجماهير صائحاً:

«تبرأ من الخمر يابن القحبة!».

«لن أتبرأ. لا أتبرأ...» أجابه الشاعر كوران، وهو يتعثر بصوت مخنوق.

«هل تعلم أنني سأقتلك أيها الكلب الشيوعي الثائر؟!» هدر القبضاي الحليق وهو يضرب بأخمص البندقية الشاب الموثق.

«لن تستطيعوا فعل أي شيء آخر معي!» هذا على الأغلب ما قاله كوران كما يذكر الفلاحون «لكن تذكروا دائماً أنكم موسومون بالشر أبداً!».

ولقد ساق بلاكويفتش الشاعر كوران أمام الشعب عدة مرات طالباً من الفلاحين أن يضربوه، ويحقّروه، ويبصقوا عليه. وكل من كان يتهرب يهدده بالمسدس والقبضة وأخمص البندقية. كان كوران الموثق يتعثر ويقع، وهذا ما كان يقود ذلك الشرير المغتصب من فوجا إلى الجنون.

وحينما هدأ يوم الاحتفال بالقديس بطرس اقتاد بلاكويفتتش الشاعر كوران المنهك إلى طرف وصاح:

«أيها الشعب انظروا، أيتها الحيوانات الفاقدة أذنابها، ما أنا فاعل بشاعر الثوار هذا، الصحفي من زغرب، أزرق العينين، وكيف!».

ولقد تابع الشعب المتعب من القفز والرقص تحت الشمس الحارقة، الأطرش من شدة الخطابات والتهديدات والافتخار، الأعمى من حرارة الشمس والكذب الذي غفروه، الذين أضحوا خارج ذواتهم من كرع الراكيا المهرقة، مجبرين بالقوة، ما سوف يحصل.

كان كوران كوفاجيتش الحافي والشجاع يتعثر ويقع، وحينما حاول النهوض ليستقيم عاجله النجار السابق أو عامل البلور من فوجا، والآن متقن صنعة الذبح بالفعل والإيمان، يوري سلاف بورا بلاكويفيتش، برصاصة في صدغه الأيمن.

لكن القائد الأعلى ميلوراد دراشكوفيتش لم يكن مسروراً أبداً من مزاجيات مرؤوسه بلاكويفتش. لقد كان القائد دراشكوفيتش يحبك خططه وآمالاً أخرى للشاعر. لهذا أمر مرؤوسه بلاكويفتش أن يقود الثائرين الآخرين المقبوض عليهما في اليوم ذاته، أمام الشعب، ويعرضهما عدة مرات، قبل أن يجند لهما بالرشاش.

ولقد حصدوهما بالرشاش فعلاً. وأمر القائد دراشكوفيتش الجماهير أن لا تتفرق ريثما يتم دفن هؤلاء الثلاثة. ولقد تمَّ دفن الثائرين معاً في قبر واحد، وبعد مئة متر من قبرهما تمّ دفن شاعر «الجوزة». وقد دفنهم ثلاثتهم الفلاحون المتواجدون: فلادو بيكينيتش، ويوفو وباسيل كوفاجفيتش.

ويغادر القائد ميلوراد دراشكوفيتش الاجتماع مقهوراً. ويشتبك عام ١٩٤٥ في البوسنا بحرب مع بعض الوحدات الثورية. وإذا صدقنا حكايات السكان لم تغادر عقله ذكرى الشاعر الأشقر كوران، ومرؤوسه بورا.

ويتابع قائد «الفصيل الطائر»، والذي بات يكنى باسم «مؤخرة الجيش الطائرة» مسيرته العابثة في البوسنا، وقيل إن بورا الفظيع هذا بات يمسك بيديه ضفتي نهر الدرينا. ومن المعروف أن من يشدّ قبضته على نهر الدرينا يكون العالم كله ملكه. وكان بورا يعرف ذلك، لهذا السبب لم يكن يفارق الأراضي الواقعة حول نهر درينا العكر أبداً.

لكن بورا أصيب بجراح لئيمة، لقد طحنت أمطار الرصاص جانبه الأيمن، ذات الجهة التي قصّر من خلالها حياة الشاعر كوران كوفاجيتش. وبما أن بورا رجل مهم يتم نقله إلى إيطاليا للعلاج. هناك يبترون يده اليمنى ويلقونها. هكذا يعود بورا الفظيع إلى البلقان بكمّ فارغ أيمن في جيبه.

معاقب هكذا، بدون إحدى يديه، أصبح بلاكويفيتش أفظع مما كانه سابقاً. حرق قرى المسلمين في شرق البوسنا. كان «ينظف» كل ما يراه في طريقه. قتل وذبح كل ما وصلت إليه يده اليسرى، ونعتوه «بطل الهضبة المستوية».

ولا يعرف كاتب هذه الأحداث، كما لا يعرف بوكوليوب بورا بلاكويفتش نفسه متى اكتسب بورا هذه الصفة الجتنية الرفيعة. ولا أحد من الرجال بأربع أصابع يعرف، بل ظلوا يتساءلون دائماً أين المال؟!. واعتماداً على المعطيات فقد اكتسب بورا هذا اللقب قبل الاستسلام عام ١٩٤٥. عندئذ تسلل إلى إيطاليا مع رجال جتنيك تابعين للأب موجيلو جويتش...

وبدت إيطاليا نفسها راكعة على ركبتيها، مهزومة، عطشى وجائعة، محتقرة كما لم تكن في تاريخها كلّه، ولا يمكن أن تشكل ملاذاً ولا أن ترحّب بأحد. وقد وجد أحط الناس وأشقاهم الملاذ فيها: الجتنيك من جميع الأنواع والأشكال، مع قادتهم أو من دونهم، أتباع لويتيتش مع معلمهم ديمتري ميتا الذي انحدر إليها يسبق رأسه رجليه مع أتباعه من شبنيتسا الواقعة بين قبر المبجل بيتر وكوريتسا الجديدة اليوم، والبالستيون الألبان، وأتباع خورتي، ومؤيدو الملكية الرومان، والكثير من اللاجئين والمهزومين من أرتال المرتزقة، والكثير من المتعصبين الدينيين والفاشست تابعو المبجل

ميخائيل، هذا القائد الملهم الإلهي لجيش «حراس بولندا»، وأتباع نيديتش والمدافعون عن الوطن الكروات، ورجال الشرطة من مسلمي السنجق. والخضر من الجبل الأسود. وأقرباء الملكة يلينا وملكها إيمانويل الثاني أو الثالث لا فرق في ذلك، والمرافقون البيض السلوفينيون الذين كانوا يتبارون بالشرور المسداة إلى شعبهم مع الأوستاشي. وبقايا جيوش الروسي بافل فلاسوف. والبلقانيون الجنوبيون «بوغراشي». والبلغار الذين ما زالوا أحياء بلباس الوحدات «إس إس» المسماة الكتائب الدلماتينية الهرتسكية المتحدة، الذين كان السكان الإيطاليون المسالمون يخافونهم من لحاهم وسكاكينهم وألبستهم. والكتائب الأكرانية المهزومة المبعثرة والمشوهة «رجال باندر، وبوليو وآخرون»، والكتائب الأوستاشية التابعة لـ لوبوريتش وفرانيفيتش وكفاترنوفي. وحراس بافيليتش ومرافقوهم. والجلادون والمغتصبون من معسكرات التعذيب ياسينوفاتس، وياستر باري، الذباحون وقتلة الأطفال من ليكا. الرهبان والطلاب المطلوسون بالأسود، المهرولون مسرعين باتجاه المدينة المقدسة روما. وسرايا الجرحى والناجين أمثال: سرايا الخنجر، وسرايا الغراب. وكتائب المتطوعين «إس إس» من المسلمين، الذين تصور معهم، بطرابيشهم السوداء، أنته بافيليتش نفسه «انظر كتاب ميلان باستر النزع الأخير وسقوط «NDH»، الشعبويون الألمان من بانات، وباجكا، وسيرم، الذين شكلوا كتيبة «الأمير أوجين» سيئة السمعة جداً: كتيبة القصاص الألمانية التي سيذكرها الناس أبداً بنيرانها المتأججة الحارقة والسكاكين والقامات... وحثالة البلقان وسلوفينيا الجنوبية، وأوسع من ذلك وأكثر، وحثالة أوروبا الوسطى يقودهم ويشكلهم المدلسون الغشاشون، وأثرياء الحرب من جميع الألوان والأجناس، النصابون

واللصوص، ومضاربو العملة، من مكدونيين، وصربيين، وبوسنيين، وسلوفينيين، ومن بوكا، ودبروفنيك، ومن أراضي الأنهار، وسلافونيا، وسراجيفو، والهرتسك، والعاملين في السوق السوداء، وسالخي الجلود البشرية، والفقراء، والضعفاء، وعازفي البوق، ومهربي العملة الذين أمضوا فترة الحرب كلها في البيع والشراء والسمسرة والاستماع لراديو لندن بوم بوم - بوم بوم... حثالات يسيل المخاط واللعاب من أفواهها، وغيرها كثير.. حطوا على أرض إيطاليا، البلاد التي أشرعت أفواه شعبها للخبز، والثقة، والملح. ومن العجيب أن هؤلاء المؤيدين لهتلر وموسوليني وخورتي وبوريس، هم على الأغلب شوفينيون عنصريون، وآريون أكثر من الآريين أنفسهم، قد وجدوا في الحلفاء نجاتهم، وكأنهم لم يذبحوا أفراد بعثة تقصّي الحقائق كلما سنحت لهم الفرصة، كما كان يفعل الفظيع من فوجا بورا بلاكويفيتش.

ونشطت العلاقات الكنسية القديمة. وكان الرهبان لابسو الجبّات السوداء مع الياقات البيضاء من الكاوتشوك، يطيرون على طول حدود يوغسلافيا - النمسا، على طول حدود لم يحسم أمرها بعد مع إيطاليا. إلى الكنائس الألبية والتيرولية، إلى الأديرة، وأماكن العبادة المستترة في الكهوف والجبال، يبحث كل عن مثاله الأعلى من الحرب، وقد أضحى الآن بلباس مدني، ويعيش على مراع هادئة، وحوش بشرية مموهة، لا يعرف إلا المبجلون الرهبان مدى الحاجة الماسة إليها فقاموا بنقل بافليتش د. أنته من النمسا إلى روما، ومن هناك حشروه، كما حشروا أرتيكوفيتش وآخرين، على متن السفن باتجاه باري والمحيط، ليحط أرتيكوفيتش في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي ما يزال يعيش على أرضها، ويحطّ بافيليتش د. أنته مع

وثائقه ومرافقيه في أمريكا الجنوبية. ويعيش على أراضيها حتى إثخانه بالجراح في ٩ أبريل ١٩٥٧. حينما نقل إلى مدريد عند الجنرال فرانكو.

أما الناس «الفراطة» فقد تدبروا أمورهم كل حسب معرفته. وعلى سبيل المثال فقد انتسب يوري سلاف بورا بلاكويفتش إلى الفرانكوفونيين، تصور! وأقام في باريس. لكن فرنسا، مهما كانت تحب الصرب، أنصارها، ولم تكن تحب الآخرين الذين لم يكونوا من أنصارها في الحروب السابقة، إلا أنها أنكرت ضيافة الفرانكوفوني ذي اليد الواحدة الفظيع من فوجا عام ١٩٥١ يوري سلاف بورا بلاكويفتش حينما عقد الآمال الكبار على احتضانهم له. لكنهم طردوه من فرنسا الحبيبة المناصرة، على يدي البوليس عديم الروح. متهمة إياه بجريمة ما. جريمة سياسية، كيف لا؟. وصدرت الوثائق ممهورة: طردٌ نهائي قطعي...

وتؤكد لنا حقائق الحياة أن ذا اليد الواحدة من درينا قد واتاه التوفيق في بلجيكا، في العاصمة بروكسل الملكية. حينما افتتح خمارة بلقانية صغيرة، ووهبها اسماً مغرياً: «الملك الصربي» - «لي روي سربا» وكان هذا الملتقى مزدحماً دائماً وغاصاً بالزبائن: شيء من أجل الملك، وشيء من أجل الفاصولية البيضاء، والنقانق الصربية. وكانت الشموع تشتعل كلما دعت الحاجة في مناسبة ما. ودارت الأسطوانات تصدح بالأغاني وتعلو كلما جاء أحد النائهين إلى بلجيكا البعيدة خصوصاً إن كان عازف ربابة.

وافتتح بوري سلاف بورا بلاكويفتش مقهى آخر غلب عليه طابع فلكلور النازحين وأسماه «سراجيفو». ولا يعرف كاتب هذه الأحداث، ولا الرجال بأربع أصابع، ولا حتى بلاكويفتش نفسه، الفارق بين مقهى «سراجيفو» حيث كانت «تنوح الربابة» و«الملك الصربي» الذي لم يكن في

شارع جوردن. مهما يكن الأمر فقد انتشر الدخان، والمشاوي، والطعام الشهير «الوعاء البوسني» المحضّر في شارع سيسيليا الرهيب. هناك حيث يشرب الحساء المحضر من لحم الخراف الطازجة. ويتمّ التهام اللحم، ورمي العظم خلف الظهر، أشبه بذلك اليوم المشؤوم في بستان كنيسة الشؤم...

وقد وصف أحد الرجال بأربع أصابع مقهى سراجيفو بأنه خان متواضع جداً. تزين جدرانه الربابات، والسجاجيد، والقبعات، والأعلام المزورة بصفتها جوائز. والسيوف «اسحب سيفك في ساحات الوغى»، والخرائط، وصور القادة، لكن ليس مع الإيطاليين وضباط الرايخ الثالث، بل صور الملك المفدى بيتر الثاني كاراجورفيتش قبل الزواج وبعده، وقائد الجيش المظفر دراكوليوب دراجا ميخايلوفيتش بنظارتيه التروتسكيتين[1] وذقنه الرقيقة الرومانية. وبالضرورة صورة ديغول الشبيهة بتلك الموجودة عند «دارا الملاكمة» في باريس. وبيتر بتروفيتش نيغوش[2] حاملاً إكليل النصر بين يديه وفوق اللوح البلجيكي المخصص لتقطيع لحم الخراف الطازج وفرمه. وقد زينت الحائط الفولاذي «جدارية» مصنوعة بتقنية عصر النهضة العجيب: بألوانها الفاقعة الشعبية، تمثل بوغدان اليوغسلافي مع أربعة من يوغسلافييه التابعين...

وقد امتلك خان سراجيفو في بروكسل صالونه. غرفة في الطابق الأول، شيء يشبه «الخاص»، حيث كان المالك ذو اليد الواحدة يستقبل الضيوف الأعزاء. هناك يتم التعاون والتبادل سواء الاقتصادي أو السياسي. وفاحت في تلك الغرفة المليئة بالدخان والغيبيات الأرثوذوكسية روائح القناديل

---

١ - نسبة إلى ترونسكي، المنظر الشيوعي الكبير، وهي نظارات مستديرة صغيرة. - المترجم -

٢- الشاعر الصربي الأول. - المترجم -

والشموع. في ذلك الصالون الشبيه جداً بغرف لازار لازاريتش من رجال بأربع أصابع كانت تحبك خطط الاغتيالات. ذلك أن بلاكويفتش منذ أن تفتحت له السبل، ويندر من تفتحت له السبل مثله، لم يستطع مقاومة الأفكار المشغولة بالقنابل والاغتيالات. وكلما سكر كان بلاكويفتش يقف وسط مقهى سراجيفو ويصرح بأنه سيحصد كل عدو للصربية مثلما كان كوران كوفاجيتش يفعل، وكل من يؤيد سجن الظلام «يوغسلافيا» ويهدد بالثأر والمذابح...

«كنت أعشق الحرب». هذا ما كان يصرح به أمام البلجيكيين.

وكان البلجيكيون يسجلون وينشرون تصريحات هذا الرجل الخارق، اللاجئ اليوغسلافي «ومحارب الجبال البلقانية المحررة» الذي أكّد دائماً أنه كان مرافق، أي غوريلا، الجنرال دراكوليوب دراجا ميخايلوفيتش «بطل الأبطال جميعاً» مدة سنة كاملة.. والذي قبض عليه إثر خيانة لئيمة في جبال صربيا الوعرة التي لا يمكن اختراقها... وأُعدم على أشد الساحات احمراراً في يوغسلافيا...» وكان البلجيكيون يحفظون، ويسجلون، ويطبعون. وقد خصصت مجلة «بلجيكا الحرة» وصحف أخرى مساحات واسعة ليوري سلاف بورا بلاكويفيتش ناعتةً حركته الجتنية بالحركة البطولية. وكانت المقابلات معه تتم مرة في «الملك الصربي» ومرة في «سراجيفو» لتثبيت الانطباع الضروري المطلوب.

لكن بورا الذي اغتنى وحصد كل ذلك النجاح والقوة، جمع الأعداء أيضاً، ليس في مدينة بروكسل وحدها وبلجيكا، بل في العالم كله، قادحين عموماً بعالم النازحين. وكان في حالة سكره وصحوه يقارن نفسه بالقائد دراكوليوب دراجا ميخايلوفيتش مدعياً فضله في الحفاظ على حركة «العم»

ومساعدته في صياغة حكمه وأفكاره وكلماته. وهذا ما لم يحبه أحد ما دام يسعى لاحتلال مركز العم الشاغر الذي سعى إليه الكثيرون. مما حدا ببورا أن يشتم ويحقّر الآخرين ويهددهم بكنيسة الشؤم.

وكان حماته وغوريلاته يهاجمون البراكات التي يقيم فيها العمال الأجانب اليوغسلاف، أولئك الرافضون لمناشير اللاجئين، وصحفهم، وإعلاناتهم، على شاكلة «أيها الصربي هل تعرف من أنت؟»، ويلقون الضرب والعفس والإهانة. بل وتم اغتصاب بعض الأمهات. وكان هؤلاء الغوريلات يحصلون على مكافآت دسمة أو ما يمكن أن نسميه «بقشيشاً». وكان العراب بورا يستعرض أفضل طقوسه في الكنيسة الأرثوذوكسية في بروكسل.

وفي ليلة عيد الميلاد اخترق العراب بورا الكنيسة المكتظة بالمؤمنين ووقف قرب المذبح يلوح بسكين كبيرة مثل سيف، فانقطعت الصلاة وطرد المؤمنين والرهبان والقساوسة خارجاً.

«كيف جرؤتم على البدء من دوني، يا لربكم وسمائكم...؟» كان يصيح وكأنه في بستان كنيسة الشؤم يوم عيد القديس بطرس عام ١٩٤١.

وكان حماته يقفون من خلفه بأبعاد مدروسة، ويعرفون أدوارهم، وما هي وظيفة كل واحد منهم إن نطق أي إنسان بحرف أو رفع رأسه. ويأمر العراب بإعادة المؤمنين والقساوسة إلى داخل الكنيسة، ويأمر بإعادة تمثيل المشهد...

ولم يجرؤ بورا، ولسنوات طويلة، على أن يكون وحيداً. حتى ولا في مقهاه «سراجيفو» ولم يدخله من دون اثنين أو ثلاثة من غوريلياته. ووضع «سراجيفو» و«الملك الصربي» قيد الرهن، لأن النقود كانت تصل من جهات أخرى. كان هذا الوقت الذي باشر فيه العراب العمل بالسياسة،

ونشط. واهتم حثالة أبطال كنيسة الشؤم جداً بخطط الهجوم على الوطن، الذي أعلن بورا منذ عام ١٩٤٥، في فوجا، مجرم حرب.

ويتمّ تصنيع القذائف والمتفجرات بذوق العراب وتعليماته، ويتم تخزينها، وتأمين المال اللازم للناقلين. وقد رغب بورا، رئيس منظمة «دراجا ميخايلوفيتش» في بلجيكا، وأحد زعماء الهضبة المنبسطة في أوروبا، حقيقة، أن ينافس حركة تحرير كرواتيا «HOP» التي ابتدأ العالم الغربي يسمع عن أفعالها ويقرأ. ولقد انفجرت بعض قنابل بورا وألغامه المضبوطة التوقيت، صناعة بلجيكية يدوية، أمام أبنية التمثيليات والشركات اليوغسلافية في فيينا وواشنطن.

وكان العراب اللطيف ذو اليد الواحدة يكرع محتفلاً في خمارة «سراجيفو» مع الضيوف القادمين من شيكاغو وديترويت بنجاح الهجومات، مع لحم الخراف الطازج، وترديد الأغاني الجتنيكية الرومانسية أو إعلان القسم المقدس. وكان الضيوف الأمريكيون مبهورين.

ولم يكن بورا على وفاق مع بعض الأخويات منذ زمن طويل، وهو المتعجل أبداً. وحدث في بعض تلك الاجتماعات الملتئمة في صالون خمارة «سراجيفو» مشادات، وأطلقت تصريحات وكلمات بذيئة، واتهم بورا أخاه الأمريكي، أنهم هناك، بعد المحيط، يجهلون الوقائع البلقانية والظروف. وأطلق ذلك صراحة على شاربيّ الأمريكي. ولا بد، ويجب عليهم أن يتصرفوا حيال يوغسلافيا بطرق أخرى.. إلخ. مما حدا بالأخ الأمريكي القادم من شيكاغو، المنتقم، راعي الشرف والشرفاء، أن ينهض ويغادر الاجتماع. وكما حدث مع لازاريتش في رجال بأربع أصابع فإن الأخ القادم

من شيكاغو لم يبحر فوراً من باري، بل ظل في أوروبا كي يرتب ما يمكن ترتيبه في ظل الظروف القائمة. كان ذلك في مارس ١٩٧٥.

في تلك الأيام أوردت الصحف البلجيكية خبراً قصيراً جداً: العثور على جثة رجل طويل، وهزيل، خمسيني، في أحد شوارع بروكسل الهادئة. لقد كان يوري سلاف بورا بلاكويفيتش مصاباً برصاصة في نقرته، واستلقى في بركة من دمائه. وتم ذكر جميع المنظمات التي كان المغدور ينتمي إليها، وكل الأوسمة التي حاز عليها. ولم يتم ذكر الأخ القادم من شيكاغو، بل ولم يعلم به كاتب الريبورتاج نفسه...

ويستمع الرجال بأربع أصابع إلى حكاية بوكوليوب بوجا بيريتش، ويتمتعون، بالرغم من انتمائهم إلى عالم الجريمة، الذي فعل به المنفوخ من فوجا ما فعل. وكان الرجال بأربع أصابع يفعلون ما يفعلونه بطرق أخرى: فهم لا يسرقون من الخزائن الحديدية مثل الإيطاليين وغيرهم، بل يسرقون الخزائن الحديدية بكاملها. ولكي يعرف الجميع أن الناهبين أتوا من البلقان. وهم لا يفعلون ما يفعلونه للحصول على المال فقط بل حتى يسبق صيتهم أصواتهم. وبينما كانوا يستمعون إلى حكاية بيريتش تساءلوا قبل الانصراف الصباحي من الحانة:

«من «هبر»[1] أمواله؟»

ويبكي بوكوليوب بوجا بيريتش على بورا، ويذكر الطريق إلى شيكاغو لتصفية الحساب مع الأخ الأمريكي من شيكاغو، بعد أن يكون قد قفز إلى يوغسلافيا - بلغراد لينسف في الهواء نصف شارع تيرازيا بقنابل بورا. يضيف ذلك وهو يرتجف كمريض الصرعة.

---

١ - نهب. - المترجم -

XX

البافاريون ينظرون أمامهم

كان اللغط الشديد في ساحة محطة القطار الواسعة في ميونخ يتم باللغة اليونانية، والصياح بالتركية، والمناداة باليوغسلافية، ويتم التلويح بالأيدي، وباللغة الألمانية يتم الهمس فقط: ابتعد عن الطريق. أسرع. وكان البلقانيون يتزاحمون على منافذ التذاكر، لا فرق من أية دولة كانوا، وما هي وجهتهم، في تلك المحطة الديناصورية. كانوا يتزاحمون بالمناكب دون أدنى انتظام، يتدافعون ويعفسون وينترونَ. وكان الناس الهادئون ينسحبون إلى طرف ويمعنون النظر أمامهم. وكان ذوو البشرة السمراء، أصحاب الشعر الأجعد غالباً من المسافرين مع أمتعتهم يتدافعون بالمناكب والركب. ويذكرون، كما يذكر الألمان، مدن سارلزبورغ، ثم سالونيك، ثم أضنة وأنقرة. وبينما يكون الألمان ينضغطون محشورين يكون أولئك يحملون بفخر صحفهم، وينظرون إلى اللوائح بكل استفزاز، وإلى نظام تسلسل سير القطارات، والدعوات المكررة للسفريات، والحفلات، والمباريات، المكتوبة بجميع لغاتهم الجنوبية. ويمنع منعاً باتاً وجود القطط والكلاب أمام المنافذ، فالملونون يرفسون، ويبصقون، دون أدنى رحمة على مالكيهم:

«قرف.. قرف.. قرف.. وحش!».

ولم يكن الازدحام على براكات البيع قليلاً، إنما ليس على الألمانية منها، بل على تلك التي تبيع صحفاً مكتوبة بعشرين، بل بخمس وعشرين لغة. وهناك أمام البراكات المسماة «الصحافة العالمية» يتم التعارف وعقد

صداقات جديدة، وتثبيت القديمة منها. ويتقدم الرجل من آخر اعتماداً على الصحف التي يحملها أو يقرأها، أحدهما أو كلاهما. وتعتبر براكة «الصحافة العالمية» مكان اللقاء الأبرز للمهاجرين النازحين.

ويعتبر الرجال بأربع أصابع الذين أحلم بهم باستمرار، وأذكرهم، العدميون الطبيعيون الأبرز الذين صادفتهم حتى الآن. فهم لا يسرعون لشراء الصحف، لا الرسمية منها النظامية، ولا تلك الصادرة في عالم النازحين الموازي.. وليس بالضرورة ذكر الأسباب، فهم يملكون أسبابهم لكل شيء، وخصوصاً لقضاياهم. وتراهم يحصلون على الوريقات الألمانية المهملة في الشوارع، ليس من أجل أخبار القتل والسرقة، السجن والهروب، بل من أجل نتائج المباريات، واليانصيب واللوتو[1] بشكل عام. ويشكل اللعب هواية الحياة لهؤلاء الناس. اللعب بكل شيء ولكل شيء. واللاعب الحقيقي لا يسأل عن الثمن، ويمكنه المراهنة على لحم أكتافه. ويعتبر بطل اليوم لهؤلاء الطيور اللامنتمية لأي شعب ولا لأي فلكلور، هو الرجل الذي لعب فقط، دون أن يقوم بأي عمل، وربح باليانصيب هذا القدر أو ذاك من المال. ويمكنه بعد عزل رأسماله إلى طرف أن يلعب مع رفاقه بالروليت. ويقذف المال على ذلك الرقم أو هذا، على ذلك اللون أو هذا، ويظل يقذف دون النظر للنتائج.. وي.. ق.. ذ.. ف..

ولا ينشغل الرجال بأربع أصابع ببراكات بيع الصحافة العالمية، ولا بالصحافة عموماً، لأنهم يخافون أن يدسّ لهم في جيوبهم أو راحاتهم، أحد النازحين، السبتيين، والمشركين، منشوراً ما، أو إعلاناً، أو دعوة دينية، ذات أية محتويات إرهابية تحريضية. وتراهم يتمشون بحرص شديد في ساحة

---

١ - اللوتو لعبة توقع نتائج مباريات كرة القدم. - المترجم -

المحطة، دون أن يكونوا مجبرين على البحلقة في اللوحات الضخمة المعلنة عن انطلاق القطارات ووصولها. إنهم يعرفون تماماً ما يريدونه بالضبط. ومن الأفضل أن لا يوجد في جيبك وبين أوراقك أي شيء، مؤكدين أن أفضل سبل العيش هي «عدم كفاية الأدلة». إنها ورقة اليانصيب الأربح لهؤلاء الذين أكتب عنهم هذا الكتاب...

إن عالم تحت الأرض في ميونخ يبدأ في تلك الساحة الواسعة. تحديداً عند مخرجها المشرف على ثلاثة شوارع شهيرة ونارية. وهي، سنكتب أسماءها كما تلفظ: شارع بايرن، وشارع شيلر الأكثر حركة وديناميكية ونزيفاً للدم. الذي يسميه البافاريون بكل حق شارع البلقان، وللحقيقة لا يوجد في ذلك الشارع بافاريون، أولئك الذين تراهم ينسحبون إلى جهة شمال غرب، باتجاه الأحياء المحترمة، ويقيم فيه القادمون النازحون من ألمانيا الشرقية، التجار الصغار والسماسرة، وشاحذو السكاكين، ومصممو الأزياء، ومعلمو الرقص، والفنانون، وما يسمونهم الألمان الشعبيين، الذين إذا صدقنا الصحف اليمينية الألمانية، يتواجدون على أرض أوروبا كلها بما فيها سالونيك[1].

ويمكنك أن تسمع في شارع شيلر، إضافة للغة التركية، واليونانية، واللغة التي يسمونها في أوروبا الغربية اللغة اليوغسلافيش، اللغة التشيكية، والأرمينية، والرومانية والسلوفاكية، والإيطالية، والغروزية، والأكرانية، والمجرية، والعربية. ويتكلم أصحاب البانسيونات الحقيرة السابقة وأمكنة الإيواء قرب المحطة، والتي أضحت الآن فنادق بطابقين أو ثلاثة، بين بعضهم، ومع أصدقائهم، بلغة تكاد تكون ميتة منقرضة هي اليدوش، ولغة ليفوفا، التي هي مزيج من الروسية والبولونية.

---

١ - مدينة يونانية. - المترجم -

ولا أحد يعرف كيف وصل هؤلاء أصحاب البشرة السمراء، البدينون، ذوو الشعر الأجعد، تجار السجاد والبسط والعقيق إلى بافاريا، من أودية القفقاز الشرقية، ولم يعثر أحد حتى الآن على اسم للغتهم وشتائمهم. أما بائعو البضائع التافهة، تلك التي لن ينظر لها أي إنسان حي في ميونخ، تلك القمامة والهلاهيل، من الحقائب، والأثواب المصنوعة من قماش يشبه الورق والبلاستيك، السراويل الداخلية النايلون الطويلة بلاصقات ركس - اكستر - بريما - سوبر. ومظلات المطر التي تنشطر بعد فتحها للمرة الثانية. وأحذية للخروج والنزهات بلاصقة تشير إلى نوعية ممتازة ونعل جيد وكعبين، ومعاطف نايلون ثلاثية الألوان، تلك السلعة الأفضل لدى سائقي الشاحنات البلغار. ويتكلم هؤلاء الباعة وعائلاتهم جميعها وأقاربهم البعيدون والقريبون، إضافة لليدوش، لغة غاليتسيا: الروسية الأكرانية البولندية. ولغة هي مزيج من الرومانية - الألمانية - اليهودية. ويكون هؤلاء التجار والبائعون مهيئين كي يبيعونك مقصات الحلاقة، والأقفال، وحتى قبعة «الدكتور جيفاكو» المصنوعة من أرخص أنواع الجلد الصناعي. ويعرف هؤلاء الآباء جميع تنويعات اللهجات اليوغسلافية، خصوصاً لغة أهل ليكا.

أما الفتيات المتلونات، المتورمات والسكرانات، يعلم الله من أي نوع كحولي، فقد بدون متهالكات من شدة الاستعمال، أولئك الصبايا الجميلات، والآن لهن طعم العلقم شديد المرارة، أولئك الفقيرات اللواتي يتم استدعاؤهن للهو والعربدة من عتبات بار «جوني» و«روزي» و«بيل الكبير» يتكلمن لغة رجال الجيش السابع الأمريكي، المقيمين في الجوار»... [فقط ليتم التذكير بذلك].

ويتردد الرجال بأربع أصابع خلال اليوم إلى جميع مكاتب وأقفاص شركة البلقان للاستيراد والتصدير ليعلنوا عن المباع، ويشتروا المسروق،

ويستعيروا ما تمّ بيعه والسمسرة به مرتين، المهم هو التبادل، التدوير من يد إلى يد. أحدهم أقنعهم حينما هبطوا في محطة ميونخ أن هذا المارك الألماني الجميل سوف يصدأ إذا لم يدوّر، ولهذا تراهم يدورون حول ذلك المارك دون النظر لاهتماماتهم الحقيقية. ويعرفون أن شارع شيلر يطلب التجارة، حتى لو كانت قانونية نظامية شريفة. لهذا تراهم يشترون ويدّعون، ويوقفون الناس في الشارع يعرضون عليهم البضاعة ويصرحون أنهم قد وصلوا لتوهم من غروسيس لهذا يبيعون بنصف القيمة...

وتسير الحياة في غياهب شارع شيلر كما لو أنها في فيلم مثير إجرامي. حيث يأخذ الرجل من رجل آخر، أو يستعير، أو ينهب، أو يسرق، لا فرق.. ثم يركض كي يبيع، أو كي «يذيب» الأشياء. ويدعو الرجل ذو الأربع أصابع الرجل الذي سرقه أو غشه، بعد البيع، ويهرعان معاً إلى شيلر، كي يكرعا الشراب. والغريب أن ذلك الذي تمت سرقته وغشه لا يغضب، لأنه هو نفسه كان قد قنص من آخر، منذ لحظات، قبل أن يتعرض هو لتلك اللدعة. وكم انخرط أولئك الأخوة بالعمل، بالعذابات، بالشوق القاتل لمسقط الرأس في قرى البلقان ومدنها، بالشكوى والندب وأحياناً بالبكاء، والجنون عندما يخونهم الحظ ويحيد عنهم في لعبة اللوتو الألمانية الغربية. هؤلاء الأخوة من طبقة واحدة يهرعون بكل بساطة إلى شيلر ليسقوا كل شيء جيد وبشع بالبيرة الألمانية. ويعتقد المهاجرون النازحون أن الحقيقة تكمن في البيرة وليس في النبيذ. ويركضون ليشتروا بالمال المسروق الدجاج المشوي الذي يدور ويشوى على الأسياخ. ليلتهموا النقانق البولندية، وأن يستمتعوا أخيراً بالشيشليك[1] الذي تملأ رائحته شارع شيلر وتصل حتى شارع غوته...

---

١ - قطع من اللحم كبيرة نوعاً ما، مشوية، ومحضرة بطريقة خاصة، قيل إنها كانت طعام ستالين المفضل. - المترجم -

XXI

كل الطرق تقود إلى «شيلر». لا نعرف أين هي هونولولو. لكننا نعرف جيداً أين تقع جابلين.(ما كل ما كان يعرضه آنته براسكالو المخادع...

في أحد الأيام، قبل انتصاف الليل، ظهر في «شيلر» رجل شاب. كان مبللاً من المطر ومتعباً. وبدا أنه يقع في هذه القِبلة المليئة بالدخان أول مرة دون أن يدرك أبعاد أمره، ويجرّ حقيبة ثقيلة. كان منهكاً، مخطوف اللون، أخضر من شدة الزمهرير، كمن انتظر بشق النفس كي ينهال على أول طاولة يصادفها.

كان بار شيلر غاصاً بالزبن، فقد وصلت قطارات الغرب وقطارات الشمال، وسوف ينطلق خلال خمس عشرة دقيقة قطار «جيد» إلى فيينا. وبما أن الوصول منضبط دائماً – آه من تلك القطارات.. آه من تلك القطارات – فقط كان الرجال بأربع أصابع يقيسون بأعينهم وبشكل حرفي، ذلك القادم المسكين. وحينما شعر الشاب أنه مراقب، وأن الحديث.. الذي كان يدور حول المسافرين الأغنياء، ورجال المستقبل، والقطارات المليئة بالخيرات، قد توقف للحظات، فقد سأل ذلك الشاب المدعوك، الذي برقت عيناه بشيء من النباهة والاحمرار:

«هل يمكنني الجلوس معكم على الطاولة أيها الرجال؟».

«يمكنك إذا قلت من أنت، وأن تدفع ثمن مشروبك!» قال الرجل الأقوى ذو الأصابع الأربع. ذلك العملاق، نافر الصدر، شيمو، وينادونه دالموش، بلهجة بين الجد والمزاح.

«أنا برسكالو آنته. إن كان ذلك يعني لكم أي شيء.» قال الرجل مازحاً، وجلس في نهاية الطاولة، وسحب حقيبته الثقيلة قرب رجليه: «وهل تفتعلون مشكلة من أجل الدفع؟! ماذا تشربون على حسابي؟»

«نكرع كل ما يُسكب!» قال شاب جلس بجانبه اسمه جيكا، وينادونه جيلين، ادعى أنه من قرية ماجفانين: «ولماذا ترتجف يداك يا برسكالو؟».

«سافرت طيلة الليل» قال القادم الجديد، وبدا غير واثق من كلامه.

«أكلُّ ذلك الوقت للسفر من شتوتغارت إلى ميونخ؟» سأل دالموش.

«أية شتوتغارت أيها الرجال!».

«إذاً من أين أنت قادم إلينا؟» سأل دالموش.

«من السويد» قال برسكالو، وارتجفت يده وهي تقبض على كأس البيرة البافارية.

«السويد كبيرة يا بلدياتنا» ونقر رجل بأربع أصابع كأسه مع كأس برسكالو، وكأنه يتعجل الوصول إلى القطار «الجيد» الحبيب: «قل من أية مدينة وصلت إلينا!».

«ستوكهولم» قال برسكالو. وسرعان ما أصلح من كلامه «من حوالي ستوكهولم في الحقيقة..».

«وما الذي تفعله هناك؟» سأل جيلين، بينما كان دالموش والآخرون ينظرون بريبة إلى الحقيبة.

«أعمل وقاداً» قال برسكالو وهو يفرك خديه المدعوكين اللذين لم يدفأا بعد.

«وأية مواد يستعملون هناك كوقود؟» سأل دالموش.

«كل ما تصل إليه أيديهم!» قال الضيف مبتسماً.

«وأنت بأي شيء توقد؟» قال جيكا من ماجفانين ممازحاً: «أسألك ما هو الوقود المفضل لديك؟».

«عملي يتطلب التدفئة بالنفط» قال برسكالو بلهجة مقنعة «بالرغم من أنني أوقد بما تصل إليه يداي أيضاً. وهذا لا يعتمد علي. وعلى صاحب العمل انتقاء نوع الوقود!».

«وهل رب عملك إنسان جيد يا برسكالو؟» قال دالموش بلهجة تحمل معنيين، ملغوزة.

«لن ألومه يا رجال» قال الضيف وهو يجهل ما سوف يصل إليه «إنه رجل طيب، وللحقيقة فإنه لم ينظر إلى الساعة أبداً أمامنا نحن العمال الجنوبيون...».

«وأين ولدت؟».

«موستار[1]» قالها بلهجة غير الواثق، وسرعان ما صحح «من حوالي موستار..».

«وماذا تعني من حوالي موستار؟ وهل لمدينة موستار ما حولها؟ أسألك من أية قرية؟».

«جابلين أيها الرجال» تلعثم الضيف وهو يراقب الحقيبة التي تحركت «لا بد أنكم تعرفون أين تقع جابلين».

---

١ - مدينة في البوسنا. - المترجم -

«لا نعرف أين هي هونولولو[1] ونعرف جيداً أين تقع جابلين» قالها دالموش بلهجة هي بين الغضب والمزاح. «صحح قولك يا برسكالو لأن جابلين منذ وقت طويل لم تعد قرية. أصلح قولك وإلا ستطلب لنا دورة شراب أخرى».

«كل دورات الشراب الليلة على حسابي!» قال الضيف وهو يمسح جبينه المتعرق براحته «كله يهون ما دام الإنسان بين أهله!».

«هذا مكلف يا برسكالو» عقّب جيلين وهو يقرر شرب الويسكي «هؤلاء الأهل الملعونون يمكنهم أن يسحبوا السواد من تحت أظافرك. ولن تكون شخصاً جيداً أبداً بالنسبة لهم!».

«نحن بشر... على الأقل نحن على هذه الطاولة» قال برسكالو كأنه يغني، وهو يطلب لنفسه شنابس[2] بافاري «سنتفق على كل حال.. الأهم هي الثقة. التي إذا شاعت بين الناس وترسخت ستنتهي الكثير من المشاكل..».

«يبدو أنك تملك المال الكثير» خفض دالموش صوته للحضيض «معك كرونات؟».

«قلت الثقة أولاً» انتقى كل كلمة بحرص شديد، وهو يعرض كيساً فيه كرونات سويدية، ودنماركية، وبعض مئات الماركات الألمانية: «وبعد ذلك يحصل الاتفاق».

---

١ - جزيرة ساحرة في أمريكا قبلة السياح. - المترجم -

٢ - مشروب كحولي قوي ألماني يشبه العرق يُشرب بكأس صغير دفعة واحدة. - المترجم -

«أية إجابة هي يا برسكالو؟» سأله شيمو المسمى دالموش، الأقل سكراً: «ينقصك الوضوح أكثر فأكثر يا برسكالو».

«لقد سألتموني عن الاسم يا رجال، وذكرته لكم، وأنا لم أسألكم» قالها متعثر اللسان أو أنه ادعى ذلك، هذا الذي بدا مسافراً عادياً لا يملك أكثر من خمسة وثلاثين عاماً أو أربعين على الأكثر: «ما معنى ذلك يا رجال؟».

«نحن يوغوس[1] يا برسكالو!» قالها جيلين الماجفاني: «هكذا نقدم أنفسنا وهكذا يسموننا...».

«ألم ترموا جوازات سفركم الحمراء بعد؟».

«لم نفعل يا برسكالو، ولن نفعل» قالها دالموش بلهجة النكتة: «وأنت يا برسكالو؟»

«أنا لم أملكه أصلاً في حياتي» قالها برسكالو بفخر: «الآن لدي جواز سويدي، ولدي جواز آخر سوف نتكلم عنه لاحقاً، حينما لا نكون بكل هذا العدد..».

«دورة شراب أخرى يا برسكالو!» وضحك دالموش بمجون، وهو يعطي إشارة للنادلة كي تجدد كل شيء: «على شرف هروبك، عند مدينة كوبر، أليس كذلك؟»

«بل عند كوريتسا الجديدة!». كان برسكالو خارج وعيه: «لقد شمّعتُ الخيط» من طرف المقبرة، الواقع نصفها في يوغسلافيا، ونصفها في إيطاليا!».

---

١ - تصغيراً لكلمة يوغسلافيين. - المترجم -

«قوي أنت يا برسكالو!».

«إذا لم أكن مخطئاً أنتم تذهبون للجنوب بحكم وظيفتكم؟».

«أين ذلك يا برسكالو؟».

«للجنوب، ليوغسلافيا اللعينة..».

«هذا ليس الجنوب يا برسكالو!».

«إذاً للشمال؟» تلعثم الضيف مرتجف اليدين.

«هو شيء بين بين يا برسكالو!» قالها دالموش بسخرية ليضحك الضيف، وهو يبعده شيئاً فشيئاً عن الحقيبة: «يا برسكالو السويدي قل ماذا تريد منا، ترى بنفسك أي وقت هو!. وبينما نحن نتفلسف معك متسائلين عن كل وماذا يوقد، من يحمل الجواز الحمراوي، ومن لا، سيأتي القطار، وينطلق!. قل يا برسكالو وإلا ستضطر إلى تعويض الوقت الذي نخسره معك..».

«متى ينصرفون؟» همس برسكالو للنادلة وهو واقف معها يدقق الحساب، ولم ترتجف يداه: «متى نبقى ثلاثتنا فقط؟..».

وكأن ذوي الأربع أصابع قد فهموا الحكاية، فذهبوا باتجاه المحطة. وبقي جيلين ودالموش.. الغائب قليلاً، إنما الراغب بالسماع. ويشير الضيف برسكالو ناحية الحقيبة، ويسأل دالموش بثقة:

«هل يمكنني... أمامه؟».

«يمكنك» قال دالموش «إن جيلين رجلنا، منّا وفينا».

«أنا كرواتي حتى النخاع» ابتدأ الشاب بصوت متغير، ذلك الذي قدّم نفسه باسم آنته برسكالو. هذا الشوفيني العاشق لكرواتيا حتى النخاع

المتكلم بطريقة سحرية متدينة، تخالط لغته بعض الكلمات السويدية، ذاكراً أحد أفرعه هناك.

«أنت واحد منهم إذاً. من هم الباقون؟.» قال دالموش، لكن جيلين قفز في منتصف الجملة:

«واحد ممن اغتالوا السفير رولوفيتش».

«لست. مع الأسف» قالها الضيف بأسى، وفتح الحقيبة «كنت حينئذ على سفر مثلما أنا هذه الليلة... كنت في الدنمارك..».

«وما الذي تعرضه علينا هذا المساء يا برسكالو؟» سأله دالموش.

«صحف اللاجئين الكروات، مجلات فصلية، كتب. كل ما يصدر هنا في العالم الحرّ».

وابتدأ يعرض النماذج: «أجمع الاشتراكات للصحف التالية: «الدفاع» صوت المقاومة الشعبية الكرواتية، التي تحضّر لاجتماع عملي عمالي يرأسه العقيد داليبور. وكنيته تبقى سراً حتى بالنسبة لي. الصحيفة تصدر في مدريد. مجلة الدفاع الإسبانية هذه أسسها اللواء الشهير فيكوسلاف لوبريتش، ماكس. القائد في ياسينوفاتس. الذي قتلوه يوم ١١ أبريل ١٩٦٩ في كراكن تن. وأعرض «دولة كرواتيا الحرة»، التي يسهل حفظ اسمها البديل: «أساس الدفاع عن كرواتيا الطعام والأوستاشي - هذا هو الدفاع»[1]. هذه الصحيفة «NDH» كما تعلن: صحيفة وطنية كرواتية ديمقراطية، تصدر في كندا، ورسم الاشتراك السنوي ٦ دولارات. وأعرض

---

١ - يقولها مقفاة. - المترجم -

صحيفة «دولة كرواتيا» وهي صحيفة المجلس الكرواتي الشعبي، صحيفة مخصصة للوطن وللنازحين، وتصدر في تورونتو، وميونخ ونيويورك، وسيدني، وبونس آيرس. وهي الصحيفة التي أسسها ورعاها حتى يوم موته برانكو. د. يليتش. والآن يصدرها أخوه إيفان. د. يليتش. وأعرض «كرواتيا الجديدة» أحدث إصداراتنا - لندن. الاشتراك السنوي لـ ٢٤ عدداً ٣٥ ماركاً ألمانياً أو ٢٥ دولاراً. إذا كان البريد جوياً. أعرض «صدر كرواتيا» صحيفة مجاهدي التحرير الكروات، المخصصة للوطن وللنازحين. لا أعلم أين تصدر، لأنهم لا يذكرون ذلك، ولا أعلم بدل الاشتراك السنوي. أعرض «العدالة الكرواتية» صوت الحزب الاشتراكي الكرواتي. رئيس التحرير عثمان بيفيتش تصدر في شتوتغارت، شهرياً، وثمنها ٢ مارك أو دولار واحد للقطعة...».

«وماذا تعرض أيضاً يا برسكالو؟» سأله دالموش بصوت خفيض.

«أعرض كل ما صدر عن «زيرالا» جمعية البجع الجريح». قال، وأضاف «بساتين الأحلام والرياح» لمؤلفها لوسيان كورديتش. و«حكايات المهاجرين» لنفس المؤلف. وهي مجلدة ثمنها ٢ دولار. أعرض «ألوزيا ستبينا» دراسة من ١٠٢٠ صفحة لمؤلفها ستيبان فوستروفيتش، تحتوي على ٧٣ صورة خارج النص، موضوعة على صفحة كاملة، والسعر إذا كانت مخيطة ١٣ دولاراً، ومجلدة ١٥ دولاراً. هي الكتاب الأول عن حياة الكاردينال الأكبر والمبجل المستقبلي لنا. وأعرض «قمة الخراب» من كودريتش ٥ دولارات، مجلدة. وأعرض «كرواتيا الحمراء» من د. ماندیتش بـ ٥ دولارات، مجلدة. وأخيراً أعرض «التجارب» من رئيس «NDH» بافيليتش د. أنته بـ ١٠ دولار مجلدة ومذهبة..».

«وماذا تعرض أيضاً يا برسكالو؟».

«أعرض المسافرة الكرواتية يا إخوتي!».

«لعلها فتاة ما يا برسكالوا؟» ادّعى دالمواش الهبل «إن كانت أنثى - هاتها وتعال!» «فلتعض على لسانك أيها الخطّاء!» وبكى برسكالو: «وأين سأذهب أنا المؤمن الكبير إذا عرضت ذلك!. أعرض مسافرة، لكن كرواتية، هي وثيقة لا مثيل لها في العالم..».

«وكيف جاء اسم مسافرة لهذه الوثيقة التي تعرضها أمامنا!» مازحه دالموش راغباً استدراج عيوب أخرى من الضيف.

«كلمة جواز سفر يا إخوتي تعود إلى درس صربي يحمل الاسم نفسه» قالها وهو يتصفح «مسافرة» بين أصابعه: «مثلها مثل كلمة: راديو. دعاية. اقتصاد. التي هي صربية أيضاً، ونحن نملك كلماتنا..».

«اقرأ لنا يا برسكالو الدعوة إلى شراء «مسافرة» من إحدى صحفك» رجاه دالموش «ولا تقفز متجاوزاً أي شيء!».

ابتدأ برسكالو يقرأ بصورة احتفالية، ابتدائية:

«أيها المحب لكرواتيا. اطلب المسافرة الكرواتية - ساعد الحرب الكرواتية المقدسة!. المسافرة الكرواتية يصدرها «المجلس الشعبي الكرواتي». إنها وثيقة تثبت أن حاملها محارب نشيط، يهدف إلى بعث دولة كرواتيا الحرة مستقلة. ويذهب ريع إصدارها إلى صندوق المال الذي سيستعمل حصرياً لصالح الجهاد، لتحقيق دولة كرواتيا وبعثها. وسوف تكون المسافرة الكرواتية بمثابة وثيقة دولية يمكن العمل بها منذ اللحظة التي تعلن فيها كرواتيا دولة مستقلة. وهذا مذكور في المسافرة بوضوح.

وهي إثبات بأن حاملها ليس محباً حتى العظم لكرواتيا شفهياً فقط بل وعملياً. وبهذا يكون واجب كل مواطن كرواتي امتلاكها، دون النظر إلى المنظمة التي ينتمي إليها. ومن الطبيعي أن يعود رسم إصدارها إلى ممثليات دولة كرواتيا الشعبية حين تكوينها وإعلانها. وسوف تكون المسافرة إثباتاً لشخصيتك، ليس فقط أمام محبي كرواتيا حتى النخاع بصفتهم محاربين نشيطين ومساعدة الحرب الكرواتية للتحرير، إنما أمام العالم الغريب أيضاً معلنة إصرار الشعب الكرواتي للعيش في دولته، وليس في قبر الظلام يوغسلافيا الصربية. لهذا اطلب إصدار المسافرة الكرواتية بسرعة. ولا تنس أن تحث معارفك، وأصدقاءك، وجميع محبي كرواتيا، ليفعلوا ذلك. لأن الـ.. م.. س.. ا.. ف.. ر.. ة.. الكرواتية ليست وثيقة غريبة، بل هي أمضى سلاح وإثبات للاتحاد والوحدة الكرواتية. لا تؤجل ذلك للغد.. بل اطلبها.. الـ.. ي.. و.. م!».

«وما هي المساحات التي يمكن التحرك فوقها بالمسافرة الكرواتية يا برسكالو؟».

«كل الأماكن، فالمسافرة هي المسافرة يا أخي دالموش».

«وما هو سعرها يا برسكالو؟».

«السعر المبدئي هو ١٠٠ مارك يا أخي شيمو!».

«وبهذا تكون المسافرة أغلى من الجواز الأمريكي يا برسكالو!» مازحه شيمو دالموش: «كيف يمكن ذلك يا برسكالو؟».

«سنوزعها عما قريب مجاناً» قالها الضيف غناءً، وهو يرتب على الطاولة بجانب صحف اللاجئين النازحين عدداً مناسباً من جوازات السفر الغريبة

هذه: «أولاً يجب أن ننهض مادياً وسيادياً. ومن ثم نعمم دولتنا سياسياً ونشهرها..».

«إنها غالية الثمن يا برسكالو.. غالية» قال العملاق شيمو دالموش: «لكنني سأشتري بشرط أن يحصل جيلين أيضاً على مسافرة كرواتية».

«هو سيدفع ٢٠٠ مارك» قال الضيف متهيئاً للقبض.

«ولماذا ٢٠٠ يا برسكالو؟».

«لأن جيلين ليس رجلاً هجومياً يا أخي شيمو!» تمتم برسكالو: «فليدفع!».

«سندفع أنا وهو يا برسكالو!» قال شيمو، وهو يعطي إشارة للخروج من المقهى:

«نقودنا ليست معنا. هي عند أحدهم».

«وهل المكان بعيد؟» تمتم برسكالو، وهو يرفع الحقيبة.

«الشارع الأيسر الثالث» قال جيلين الماجفاني.

وقرأ شيمو دالموش منشور برسكالو، الذي استخرجه لتوه من الحقيبة. وبدا من الواضح أن برسكالو يملك آلاف المناشير المشابهة. وبالرغم من أن المنشور كان مكتوباً بحروف كبيرة مطبوعة إلا أن قراءته لم تكن سهلة. مما اضطر دالموش لإعادة قراءة بعض الكلمات والتعابير مرتين، حتى ثقل تنفسه. وجاء بالمنشور:

مواقفنا!.

موقفنا واضح. سنحطم كل ما هو يوغسلافي. سندمره مع الروس! والأمريكان. مع الشيوعيين وغير الشيوعيين. ومن هم ضد الشيوعية.

سندمرها مع أي شخص يدمر. سندمرها بالكلمات الديالكتية والديناميت. دمروها. وإذا كان ثمة دولة لا تملك الحق في الوجود فهي يوغسلافيا فقط.

الجنرال درينيانين.

ساروا على طول شارع شيلر باتجاه شارع شفانتلر. هناك يوجد الكثير من الزوايا العاتمة. وسار برسكالو بين الرجلين بأربع أصابع، اللذين كانا يسندانه في الممرات، فقد ارتجفت ركبتاه. سأل:

«أين هو ذلك الرجل يا أقربائي؟»

«اصبر يا برسكالو» همس له شيمو ذو الأربع أصابع «لم يبق إلا القليل».

«دعنا نحمل الحقيبة» اقترح جيلين الماجفاني: «ستقع منك ما دمت ترتجف هكذا..».

«لدي زجاجة مشروب هناك يا أقربائي» تلعثم برسكالو.

«شاهدنا الزجاجة!» قال دالموش: «إنها زجاجة سوداء ذات اللترين. ماذا يوجد بداخلها؟».

«إذا ساعدتموني على قذف كل الـ ٥٠٠٠ قطعة من مناشير «مواقفنا» في القطار المنطلق إلى يوغسلافيا.. أو إذا أثبتم لي أنكم فعلتم ذلك من تلقاء أنفسكم، سأخبركم عن محتوى ذات اللترين السوداء..».

«أي شراب بداخلها يا برسكالو؟» سأل جيلين.

«إنه ترياق» قالها بوضوح خائفاً من الظلام وحاويات القمامة التي انتهت بها الشوارع: «أين نحن أيها الرجال الخطاؤون؟».

«خذ ثمن «مواقفنا» يا برسكالو!» همر العملاق دالموش وهو يصفعه بشدة: «وهذه للمسافرة» تابع يضربه. وهدر بصعوبة «وهذا للسوداء ذات اللترين من الحقيبة. وهلاكك بها..!».

كان برسكالو السويدي يطير من جيلين إلى دالموش، ومن دالموش إلى جيلين، يتلقى اللكمات والرفس بالرجلين والعفس بكل شيء. واستطاع بصعوبة، وبالكاد، أن يتوارى وراء حاوية القمامة. لم يتمكن من الصياح. كان فمه مليئاً بأسنانه المكسرة، والدم، واللحم المفزور. وحينما ذهبا لوّح لهما. ولم يلمسا الحقيبة المليئة بالنماذج وذات اللترين وتهيأ لهما، أنه من أجل ذلك، كان ممتناً. ولم يطلب النجدة بسبب الزجاجة السوداء...

هطلت الأمطار. كانت سيولاً بافارية. وكانت الشوارع، التي طالما سارا بها سابقاً مع رفاقهما بعد عمليات خطيرة كثيرة، مهجورة. ولم تكن محطة القطار بعيدة. وثمة قطار «متقدم» و«جيد» سينطلق إلى فرانكفورت وكولن بعد حوالي نصف ساعة. قطار دولي يجر الكثير من عربات النوم. وسوف تكون النقود التي سيستوليان عليها من القطار، القطار الأعلى بمتر أو مترين فوق الأرض، نقوداً مكتسبة بشرف. ولن تكون ملوثة بالدهن والغائط مثل نقود برسكالو، الذي لم يحاولا رفعه عن الأرض.

XXII

السيانيد في ذات اللترين.

نهاية حكاية ذوي الأربع أصابع «والسويدي» القادم من غرب البوسنا والهرتسك، الذي عرفناه باسم «برسكالو آنته»، حدثت في ديسمبر ١٩٧٥. وأين إذا لم يكن في شيلر، الخمارة التي تواجد بها أكثر من أربعين شاباً ينتظرون القطارات، لهم ذات المهنة، الأجراً، والأكثر رومانسية، والأخطر، كما اعتبرها البعض.

وبين مجموعة رئيسة من ذوي الأربع أصابع تواجد، ومن غيرهما، شيمو دالموش، وجيلين الماجفاني. يمسكان بصحيفة سويدية، وصحيفة مصورة يوغسلافية مدعوكة وملوثة بالدهن، حفلت بنتائج المباريات، ومبالغ الماركات التي يحلمون بها. وعلى رأس إحدى الصفحات، إلى اليسار، لاحظا، هناك حيث تتواجد دائماً صور الناس المهيوبين الذين يستحقون الاحترام، لاحظا، وجود صورة بدا صاحبها لهما معروفاً. ذات العينين الهائجتين الجنوبيتين، ذات الشعر المسرح المفروق، ذات التشنج حول الفم، ذات الوجه، المدعوك قليلاً، المحفّر قليلاً، وجه أولئك العاملين مع الغاز والمعادن.

«انظر. إنه «رجلنا»» هدر دالموش.

«أجل. وها هم السويديون يذكرون الزجاجة ذات اللترين طبعاً!» وافق جيلين واثقاً أن ذوي الأربع أصابع لا يعرفون عمن يدور الحديث.

«بقدر ما أفهم بالسويدية يا جيكا فإن السويديين يكتبون أنهم وجدوا في الزجاجة أخطر أنواع السموم للإبادة الجماعية: تسيانكالي - سيانيد - » قالها

العملاق بقرف: «إن محتوى الزجاجة ذات اللترين كاف ليمحي من سجل العائشين سكان بلدة تعداد سكانها نصف المليون أو مليون الإنسان...».

«كان علينا أن ننظفه تلك الليلة..» أشاح الماجفاني برأسه برماً وأضاف: «أتذكر ما قلته لك؟» «لقد قتلوه قبلنا، أولاد الكلبة السويدية!» هدر دالموش.

وظل دالموش وجيلين يتمعنان بالصورة وقتاً طويلاً. وكلما أمعنا في التأكد غزاهما الشك أكثر هل القتيل فعلاً «رجلهما» آنته برسكالو. مهما يكن الأمر فقد كانا الأكثر حزناً من الجميع في شيلر تلك الليلة.

ولقد كتبت الصحافة السويدية واليوغسلافية عن مقتل إكس - يوغسلافي. اسمه ستيبا أوستيبي ميكوليتش، مولود من أب اسمه أندريا، وأم ماريا في ٢٩ سبتمبر ١٩٤١ في قرية لشتيتسا، غرب البوسنا والهرتسك. لديه زوجة سويدية، وسيارة سويدية ماركة فولفو، ومنتسب إلى منظمة «درينا» الإرهابية المتطرفة. والتي كان - كما ذكر - على خلاف بسيط معها. وكان يعمل في ورشة بناء السفن في غيتبورغ. وعاش، كما هو مسجل في سجلات الشرطة السويدية، في مكان بحري اسمه فلكن برغ. وكان مضطراً - كما هو مكتوب - أن يراجع مخفر الشرطة مرتين يومياً، صباحاً ومساءً. كان عليه، مثل غيره من المشبوهين، أن يخبر الشرطة عن كل مغادرة من منطقة غيتبورغ - فلكن برغ. لقد كان ستيبا هذا - كما قرأ ذوو الأربع أصابع - مشاركاً في اغتيال السفير رولوفيتش، والهروب من سجن ستوكهولم...

XXIII

العرابون. الأخ الأسود الكبير

يعتبر الصحفي السويسري ميشيل كورو، المقيم في باريس، من أفضل العارفين بالأوضاع الحياتية الشعبية، ليس في باريس وفرنسا، بل في كل ربوع العالم الأوروبي الغربي. وليس له مثيل في معرفة خزّان الجريمة الذي يزنر باريس، وتلك العشوائيات من الكرتون والأخشاب، تلك الأكواخ التي يعيش فيها الفقراء الجزائريون الجائعون. ولا أحد مثل كورو يعرف كيف يعيش العمال الأجانب البرتغاليون. أولئك العمال الموسميون الذين تسللوا بطرق غير مشروعة من إسبانيا، ويعودون بطرق غير مشروعة أيضاً من خلال جبال بيرني. لقد ذهب كورو إلى روتردام وهاغ وانتفربن. ودرس حياة الفقراء والمهاجرين من مستعمرات هولندا السابقة، وأقام خصيصاً لدراسة أحوال وسلوكيات الأفراد والمجموعات والقبائل المتخلفة في جزيرة بورنيو التي شدت انتباهه أكثر. واهتم كورو بالمهاجرين الآسيويين في بريطانيا العظمى، الإندونيسيين، والهنود، والكينيين، خصوصاً السود في الشاطئ الغربي الأفريقي، الذين وصلوا كمجموعات إلى باريس.

ولقد أعلمني مرة، وهو في غاية الغضب، أنه اكتشف في الجوار، في شارع سيمون بوليفار، في الحي التاسع عشر بباريس، عبيداً سود.

«الأقبية مكتظة بالتعساء السود، الذين أحضرهم شخص ما تحت جنح الليل، قادهم، واستبدل أماكنهم، وضربهم!» قال السويسري المؤمن بحقوق الإنسان: «أعتقد أن الأمر متعلق بالتجارة، تجارة العبيد!».

كان كورو حشرياً، لكنه كان شجاعاً أيضاً. وبالرغم من معرفته مدى خطورة ذلك، وما يمكن أن يلاقيه، فقد اخترق متسللاً إلى تلك الأقبية، ودعاني معه.

كان قبواً طويل الممرات، ضعيف الإنارة تحت الأرض يذكرك بالكهوف. كان العبيد السود مهلهلي الملابس، حفاة غالباً، يستلقون على أخشاب، تغطيهم خرق بالية، وأغطية جيش قديمة مهترئة، وخيم جيوش مجهولة. كانوا يسعلون. يفوح المكان بروائح كريهة لا يمكن تحمّلها، ودبق جعلنا نهرب خارجاً. لكن ميشيل كورو لم يرغب ترك جريدته دون شاهد إثبات، دون ريبورتاج... «من أين أنتم؟» سألهم، وركز مشدداً على كل كلمة: «الوطن.. الوطن.. من أية بلاد أنتم؟» أحدهم فقط، من مئة رجل، فهم السؤال. استقام، وحرك شفتيه الزرقاوين. وقال باسم الجميع:

«وطننا هو مالي... أفريقيا».

«وكيف وصلتم إلى باريس؟».

«اقتادنا العراب. السيد العراب» قال العبد: «أخونا!».

«أي عراب؟» أصر كورو: «أي عراب وأي أخ؟».

«العراب اشترانا في مالي» قال العبد بهدوء: «ووعدنا بإيجاد عمل».

«وهل يوجد عمل؟» أصر كورو.

«العراب وعدنا» أجاب الأسود: «وبالطعام والشراب».

«وهل العراب رجل أسود أم أبيض؟».

«مالكنا رجل أسود» قالها الأسود بكل فخر: «أخونا الكبير من دولة شاطئ العاج!».

«وما هو اسمه؟» كان كورو مصراً: «أليس لعرابكم اسمٌ ما؟».

«العراب قال إنه عراب!» همس العبد: «إنه الأخ الأسود الأكبر!».

«وهل يضربكم هذا الأخ ويذلكم؟».

«فقط حينما نقول له إننا نريد العودة إلى مالي».

«وبماذا يجلدكم؟».

«بالكراسي. بالأبواب. بدرفات الشبابيك» وعدّد الكثير من الأشياء: «ثم بالرجلين، واليدين، بحبائل القنب المبلولة. ولدى أخونا الأسود الأكبر مسدس أيضاً. بينما لدى الرجال السائرين من خلفه، يحرسونه، رشاشات، سكاكين، وقنابل...».

«ولماذا لا تخرجون قليلاً لاستنشاق الهواء؟» سأل كورو: «ستختنقون في هذا القبو. ومن ثم.. وداعاً..».

«قال العراب: في الخارج برد شديد!» وراح يعدد: «العراب قال إنهم سيختطفوننا إن خرجنا. ثمة أشرار في الخارج، بيض البشرة، معفنون، تفوح منهم روائح كريهة، ويرتع القمل. وقال إنه من الأفضل أن يكون لنا عراب واحد، هو. ونحن نحب أخانا الأكبر الأسود... فهو الوحيد الذي يعرف ما ينتظرنا..».

«وما الذي ينتظركم؟» كان كورو مصراً.

«اسأل العراب!» وأسبل العبد كتفيه، بينما كان الآخرون يتابعون بفضول مجرى الحديث: «هل لديك خبز. سجائر؟...».

وحصل العبد من كورو على علبة سجائر «غلواز» وطلب من الباقين أن لا يتحركوا من أماكنهم. وأخذ العبد يرينا بقية المخابئ. كانت عيناه داميتين ودامعتين. كانت القاعة تحت الأرض في نهاية شارع بوليفار. أقام فيها عشرون عبداً. وكدنا نختنق عملياً من هول الروائح الكريهة. وقد تناثرت في جميع الجهات خرق مدماة، وملوثة باليود، والكيماويات. لقد افترشت الدمامل والجلد المتقرن أيديهم ورؤوسهم. بعضهم فهموا أسئلتنا، وأجابوا، ذاكرين العراب مرة، ومرة الأخ الأكبر الأسود. بعضهم رغب بالذهاب معنا. لكن رجلاً عملاقاً أسود وقف على باب هذا الوكر الحقير، منعهم. لم يحاول إخفاء ماسورة الرشاش الفرنسي، ولا الكلب الشرس الذئبي من خلفه. وانطلقنا غاضبين لأننا لم نعرف الكثير عن الأخوة السود الكبار، عن العرابين السود، الذين كان عبيدهم يتفسخون في أقبية أجمل مدينة وأكثرها أضواء في أوروبا. لكن الحارس المارد وقف يراقبنا.

«سأكتب كل شيء!» هدد كورو الحارس: «أخبرهم بأن فضيحة ستعمهم.. ف.. ض.. ي.. ح.. ةً!». انفجرت الفضيحة فعلاً. وانتظر

رجلان ملثمان أبيضان، سراً، في ليلة شتائية ماطرة، ميشيل كورو أمام باب بيته. لم يقدما نفسيهما، بل انتزعاه بقوة، ودسّا خازوقاً من الكاوتشوك في حنجرته، قيداه، وعصبا عينيه، وقذفاه في سيارة فارهة كبيرة. وساقاه ساعة كاملة يقتادانه إلى جهة مجهولة، كما حدثنا فيما بعد. ولم يتكلم الخاطفان.

كانا يدخنان السيجار الهافاني. وما زال كورو يعتقد أنهم توقفوا خارج باريس، في مكان هادئ يحفل بالفيلات والحدائق. نقلاه - كي لا يتعب - كما قالا له - لداخل فيلا كالتي نراها في الأفلام فقط.

وأخذ رجل قوي أسود، جلس مسترخياً في مقعد جلدي من جلد وحش أفريقي، رافع الرجلين على الطاولة، يتمعن به. كان متوسط العمر، بعينين مثورمتين، ولم يعِ كورو كيف يتدبر أمره. كان الأسود يدخن، يمسّد سالفين وحاجبين عاليين متثاقلاً بليداً، غير مهتم، انتفخت أوداجه، يتحدث بدقة متناهية - كما ذكر كورو -:

«السيد كورو. كي لا تتعب نفسك وتهتم وتسأل عني وعن عملي، سأخبرك فوراً. ومن الطبيعي أنك لن تنشر ذلك. لن تجرؤ!. سيلتهمك الظلام..».

«من أنتم؟» سأل كورو العراب الأسود.

«أنا مالك أولئك العبيد التافهين الذين تحدثت معهم». ثرثر بكسل الأخ الأسود الكبير: «أشتريهم من أفريقيا بسعر زهيد جداً، أحشرهم على السفن، وأجرّهم إلى هنا. وأحتفظ بهم تحت الأرض، منتظراً السعر الأنسب!. أبيعهم لمتعهدي الأعمال المعلن عنها، لمالكي السفن الذين يلزمهم عبيد لتحميل الأشياء السرية وإنزالها، لأصحاب المزارع في أمريكا

الجنوبية، وصيادي وحيد القرن، والحيّات، والعقارب! أبيعهم لمتعهدي الحروب والجيوش الذين هم بحاجة إلى لحم مدافع حي، ولا فرق عندي البتة أكانوا سيقتادونهم إلى بورنيو، أو فيتنام، أو موزامبيق أو إلى أي جزيرة تسكنها الحيات المميتة والجنون! المهم يا سيد كورو أن تزدهر بضاعتي من هؤلاء العبيد المقرفين. أن يباعوا. والمهم حينما يفطسون لا يبحث عنهم أحد!. ولا بدّ أن أعترف لك بأنني أقبض ثمن الرأس الآدمي الأسود أكثر بكثير من الثمن الذي يمكنك تصوره من رأس سويسري غبي. فالرجل حتى لو كان أسود يعني شيئاً ما، ولا يمكنك أن تخلقه أو تجده هكذا بسهولة، بل يجب أن تجتهد من أجل ذلك.

«نصفهم مرضى!» قال السويسري.

«أعلم يا سيد كورو!» وجد العراب الأسود الجواب المناسب، وصبّ الويسكي في كأسين:

«وبالنسبة لي الأمر سيان، هل أبيع عبداً حياً أو غداً عبداً ميتاً!. ثم قل لي من يتحمل التجربة الأولى الأخطر، وذلك المرض الجماعي في أقبية باريس، والاستعداد للسفر إلى الأبعد كي يقبض الثمن مضاعفاً!؟.

واعلم يا سيد كورو أنني أحافظ على النوعية والكمية! واعلم أن الذين تكلمت أنت معهم لم يعودوا موجودين. لقد تمّ بيعهم، وبتوفيق كبير!. هناك حاوية أخرى قادمة.. جميعهم من داهوميا. كما أنتظر هذه الليلة شحنة من الجزر الخضراء، وشحنة من غانا، ومجموعة من فولتا العليا... إن الذين حدثتهم يبحرون الآن...».

«إلى أين يبحرون؟» صاح السويدي.

«اهتم بنفسك يا سيد كورو» قالها العراب الأسود، وهو يطقطق بالكرباج، أحد وسائل التعذيب لديه: «ما همك أنت بما أعمل؟ من أشتري، ومن أبيع؟!. اعمل ما يجب عليك عمله فقط ولا تبحلق في الأرض، ما دمت غير قادر على دفع المال ثمنهم...».

ولقد حشروا خازوق الكاوتشوك ثانية في حنجرة كورو. عصبوا عينيه أمام الأخ الكبير الأسود، حتى اسودت الدنيا أمام ناظريه. ولكي يكون العراب ممتناً حزموه داخل كيس حتى قال العراب: أوكي. وابتدؤوا يركلونه مدحرجين. ولم يشاهد كورو السيارة هذه المرة أيضاً، وتهيأ للسويدي أن الطريق الآن أطول.

كان الحماة البيض العرابون يحدثونه خلال الطريق ناصحين أن يهمل تلك الكتابات حول العبيد المقرفين، الذين لا يهتم بهم وبأمرهم أحد في باريس ولا في أوروبا الغربية كلها. وأنهم لم يعودوا في المكان الذي كان كورو يظن أنهم فيه.

صمت ميشيل كورو. أوقف الخاطفون السيارة أمام منزله. وانتظروا. كان الشارع مقفراً. عندئذ أخذوا الكيس ورموه بغلظة أمام الباب الرئيس. ثم ذهبوا. واستطاع حارس البناء فك رباط الكيس وسحب كورو. كان الوقت فجراً...

وعلى حد علمي لم يكتب ميشيل كورو الريبورتاج بعد، حول الفقراء العبيد من أفريقيا الغربية، عن العراب الأسود في فيلته الباريسية. ولا شيء عما حدث له في شتاء ١٩٦٦ الجليدي القارس. والآن: من يستطيع إخباري عن مكان تواجد ذلك الإنسان الشجاع المحترم.. كورو..؟..

XXIV

عبيد من تركيا. «كلب.. كلب.. وحش بلقاني أشمط»

هدر قطار البلقان - اكسبريس، المنطلق إلى حدود يوغسلافيا - النمسا. وهيئ إلي أنه سيخرج عن سكته في أية لحظة.. وأن هذه الكتلة الحديدية العملاقة ستقع في صرعتها، في هلاكها. كان الخريف على وشك الوداع.

وكان محدثي عمر قره أوغلو، التركي يكرع كؤوس الراكيا[1] الواحد إثر الآخر. انحنى من فوق المنضدة نحوي لأسمعه بصورة أفضل، وأحفظ، وهو يقصّ بلسان متلعثم قصة حياته، وعلى وجه الخصوص عمله الحالي:

«أنا تركي في الوثائق فقط، في جواز السفر!» قال الضخم ذو الرأس المطرقي، طويل المخالب، معوجّ الرجلين: «كان اسمي قبل وصولي إلى تركيا قره إماموفيتش، وفي ألمانيا صاروا ينادونني عمر قره إماموفيتش كوجو تاجر من السنجق!».

«في صحتك يا كوجو القبضاي» شرعت أتكلم على طريقة أهل السنجق، وهو ما حفّز الدماء في عروق رقبته، في عينيه الواسعتين، وفي لسانه.

«السناجقة يكرهوننا نحن معشر الأتراك، وكذلك البوشناقيون. لكننا نحن نكرههم أيضاً. ولا أحد يعرف مَن لمن العدو الأسود! فنحن بالنسبة إليهم مجرد أتراك جدد لا أصل لنا. وهم بالنسبة لنا مشوهون حقراء،

---

١ - مشروب كحولي شعبي في البلقان يصنع من العنب أو الخوخ مقطراً عدة مرات، من دون يانسون، ويشرب بكؤوس صغيرة. - المترجم -

معوجو الأرجل، كريهو الرائحة. ولو لم نكن نحن في البلقان، أيتها الحيوانات من دون ذَنب، لم تكونوا لتعرفوا ما هي التجارة الحقيقية، ولا البيع بـ.. ا.. ل.. ج.. م.. ل.. ة! هذا مانقوله لهم، لكن دون جدوى. وهم يخرّبون بقدر استطاعتهم كل شيء لنا عامدين ويريدون مشاركتنا بالبسفور[1]..».

«وإلى أي شعب يظنون أنكم تنتمون يا عمر قره إماموفيتش؟».

«للسلوفينيين التافهين.. لهؤلاء.. تصور!. للسلوفينيين القدماء أو لا أعلم لمن. ولا يفيدنا الاستبدال الدائم للكنية!. وكلما شاهدونا كما نحن، وبهذا العدد، يبحلقون ويصيحون: كبك.. كبك.. الوحش البلقاني الأشمط. وكلمة كبك تعني في لغتهم الكلب. ومن المعروف معنى وحش أشمط!. ونحن بالنسبة لهم سادة السادة!».

كان عمر قره إماموفيتش، قره أوغلو، هيئته بشرية ضخمة، متوسط العمر. كل ما عليه بلون أزرق، وعلى ربطة العنق فتاة عارية أمريكية. كثيف الشعر، إنما المصبوغ. وله مخالب لا راحات، وعلى كل إصبع خاتم ذهبي ثقيل مزين بحروف أولى، أو إشارات ورسومات شرقية. وسحب بطريقة فيها الكثير من الكيف والعنفوان مشرب سجائر طويلاً مشغولاً بالخرز.

«التجارة!» كرر عمر قره إماموفيتش ونحن نعبر المقطورة الطويلة من قطار البلقان اكسبرس ونقترب من نهايتها «التجارة. تاجر ومت وأنت تتاجر..».

«وبأي شيء تتاجر يا قره إماموفيتش؟».

---

١ - مضيق بحري في استمبول يربط الجزء الآسيوي مع الأوروبي. - المترجم -

«بكل شيء! فالرجل الذي تسري التجارة في عروقه لا يسأل عن نوع البضاعة، بل عن الطريقة التي يتاجر بها!. وبالنسبة للتاجر الحقيقي من السنجق لا يهم الربح بقدر ما تهمه التجارة!. التاجر الحقيقي يحب أن يخسر كي يشعر بحلاوة الكسب حينما يأتي.».

اقتربت الحدود. كنا في ذَنَبِ قطار البلقان اكسبريس. فتح عمر قره إماموفيتش حقيبة دبلوماسية سامسونايت، واستخرج منها خمسين جواز سفر تركياً. فتأكدلي من يقود هذا الرجل السنجقي، وبماذا يتاجر. كنا في المقطورة الأخيرة التي انتهت بها سلسلة القاطرات. وقفز على رجليه رجل ثلاثيني، كأنه نمساوي، وقد تدثرت النساء المرعوبات والأطفال بخرق ملونة. أمامهم كان عرابهم قاسم بابا. لم يتكلموا، ولم ينبس أي منهم بحرف، ولا حينما دخل رجال أمن الحدود اليوغسلاف أولاً ثم النمساويون. كان عمر قره إماموفيتش، قره أوغلو، قد رتب كل شيء. كان رجال الحدود يحصون الأعداد بعدما ولجنا عميقاً في النمسا. وابتدأ العراب يبربر باللغة السنجقية التركية، والتي عنت بلغتنا بشكل تقريبي ما يلي:

«أيتها الحيوانات السائبة لا ينبسن أحدكم بحرف!. سيبقى كل في مكانه كما هو حتى نصل شتوتغارت. والآن كلوا».

كانت المخلوقات التركية تأكل بصمت مطبق، كل من زوادته. واستخرج عمر قره إماموفيتش من حقيبته الدبلوماسية زجاجة نصف لترية مبسطة، وشرب منها. ورغب أن يريني بشكل مصور صعوبة شراء اللحم الحي وبيعه.

«هذه هي الدفعة الخامسة منهم خلال هذا الشهر المنصرم!» قالها متمعناً بتلك المخلوقات كيف تلتهم الطعام: «نصفهم أتراك، ونصفهم أكراد، والنصف الثالث من القرباط. ولقد ساقوا إليَّ بعضهم من زيمونكا، من قرية على الحدود السورية التركية، أو العراقية التركية. مهمتي أن أشتريهم، وأتدبر لهم جوازات السفر، وأن أخرجهم من هناك! وكل همي لمن سأعطيهم، لمن سأبيعهم، لمن سأتبرع بهم، هذا همّي وليس همهم. سيعملون ليل نهار، وسوف يذهب نصف ما يجنونه إلى عمر السنجقي.

«وهل سوف يتحملون كل ذلك يا عمر؟».

«يمكنهم. لوقت قصير. لوقت ما!» تمتم «وهدفي أن يفطسوا بأسرع وقت!».

«ماذا تقصد يا عمر السنجقي؟».

«حينما يتعب حيواني الأناضولي - أعمل له ورقة التأمين في شركة التأمين. وحينما يفطس أسارع مع بوليصة التأمين... لأقبض! وأحصل على بعض الماركات، بعض الغولدنات، بعض الكرونات السويدية، زيادة، مدعياً: من أجل الورد، لتزيين القبر!. وتراهم يعطون عمرَ لأنهم يعرفون

جيداً أن لا أحد حتى الآن زودهم باللحم الحي أكثر مني! وتعتبر بضاعة عمر الأرخص، وليس لها منافس، ودائماً متوافرة عند العراب. وما يبيعه لهم السيد عمر قره أوغلو من عبيد، لا يجرؤون على رفع رؤوسهم، ولا يعرفون أين هم، ولا يعرفون الاتحادات العمالية. هؤلاء الزبائن ينامون بهدوء».

«هل يحبك العبيد يا سنجقي؟».

«يعبدونني ويحبونني!» أكدّ عمر بقوة: «قبائلي هذه تقسم باسمي! ولولا عمر السنجقي لكانوا رعوا الحشيش، وابتلعوا الشوك، وناموا مع الدواب. أما بحوزتي فوضعهم أرقى، وأجمل، وأنظف، وأفضل. إنني أطعمهم، ألبسهم وأحذيهم. وحينما يفطس أحدهم أقبره. وأضع الماركات والغولدنات، وما كان مقرراً للقطار، في جيبي... فكيف لا يرون بي الإله نفسه!».

في محطة القطار في ميونخ وقفنا أنا وعمر نتودع طويلاً. لقد رغب أن يعطيني هدية، ورق لعب بصور فتيات عاريات. حاولت التحرر من عناق العراب القوي. فكرر أنه تعيس. فليس من السهل - كما قال - أن تكون قاسم بابا أو عمر السنجقي في وقت يرغب جميعهم أن يكونوه.

«حظ سعيد يا قره إماموفيتش» صحت بأعلى صوتي حينما انطلق القطار إلى فرانكفورت: «احترس يا قره أوغلو.. ستقع من القطار!».

كانت مخالب العراب مشرعة نحوي.

كان عمر يبكي.

لم أشاهد عمر ثانية. لكنني كلّما سافرت بقطار البلقان اكسبرس تراءى عمر وعبيده أمام عينيّ. ولا يعلم إلا الله كم اقتاد عمر من هؤلاء الفقراء وسحبهم للشمال، وباعهم!.

وعادة ما تكون محطات القطارات في أوروبا الغربية يومي السبت والأحد مكتظة بالعمال من وطن عمر الجديد. أغلبهم صامتون. هل جميعهم من ضحاياه؟.

هؤلاء المليون من الفقراء لا يرفعون رؤوسهم. يتمعنون كالخرسان بالقطارات الذاهبة والآيبة. لعلهم يريدون العودة إلى جحورهم الآسيوية، إلى أكواخهم، لكن كيف يتركون دائرة المحطة، والغرب عموماً، ويعيشون من دون عراب قادر وصلف من السنجق؟.

كنت أسمع عن عمر، الذي لا يوجد لشطاراته نهاية، ولن يكون. الذي كان يزود ورشات البناء في ألمانيا الغربية، وسويسرا، وهولندا، والسويد بالعمالة الرخيصة. ومن مكاسبه الضخمة اشترى سيارة رولز رويز مع سائق ببزة رسمية مثل ملّا يوسف تتاروغلو، العراب الثاني من رواية رجال بأربع أصابع. وأدخل عمر في الرولز رويز هاتفاً، ووضع جهاز تنصت، لكل طارئ، ومن الرولز رويز انبثقت الهوائيات من جميع الأطراف. ووضع التلفاز بالألوان، والراديو وجهاز فكّ الشيفرة، والرادار. فعلى كل من يرغب دخول رولز رويز عمر أن ينشده...

وحينما حددت السلطات الألمانية الغربية استيراد قوة العمل النظامية والمتسللة كان عمر الأكثر خسارة. لمن يشحن الرجال الذين تم شراؤهم؟ ما الذي سيفعله بآلاف الفقراء الذين يملكهم، حماته، مساعديه، ومروجيه، من طول حدود تركيا الشرقية والشمالية، الذين دفع عربوناً دسماً من أجلهم؟.

لقد استطاع عمر التفوق على كل من حوله بوقت أسرع، وبشكل أفضل، من جميع المدلسين الغشاشين من آسيا الصغرى، تجار المواد البشرية. واستوعب قوانين ودساتير برلين الغربية[1] قوانينها الاقتصادية والسياسية. قيل له إن برلين الغربية ليست مضطرة لمثل هذا التقليل الحاد والمنع، بل يمكنها استيراد وتمكين أعداد غير محددة من القوة العاملة. لكن بشرط أن لا يحصل ذلك الترانزيت والمرور عن طريق ألمانيا الاتحادية، حيث القوانين والأوضاع مخالفة.

«يافول!»[2] قال عمر مؤكداً بإيماء من رأسه، وهرع إلى آسيا الصغرى ليأخذ العبيد الذين كان قد عربن عليهم واشتراهم. ومن حينها صار عمر يشحن عبيده عن طريق اليونان، يوغسلافيا، المجر، تشيكوسلوفاكيا، ألمانيا الديمقراطية.. ومن ثم إلى قلب برلين الغربية.

هناك كان يوصي، يخزّن، ويستلم الطلبات، يتحايل مع بوالص التأمين، يتلاعب بالمؤمن عليهم، ثم يعود إلى تركيا بالطائرة عن طريق القاهرة أو الاسكندرية، دمشق أو بيروت، لمجرد اللهو والعبث الذي يستهوي هذا المسافر الكبير. يعود مع غوريلياته، مع اثنين منهما، وإذا ما عاد عن طريق إزمير يكونون أربعة. مع بلدياته من سنجق، مع شباب من بري بوليه.

واعتماداً على صحافة ألمانيا الغربية فإن كل عاشر طفل في برلين الغربية هو تركي. بفضل عمر!. ولكي يتفاهموا مع ضيوفهم صار سكان برلين

---

١ - كانت ألمانيا مقسمة إلى شرقية تتبع النظام الشيوعي، وغربية تتبع النظام الرأسمالي. وكانت بالتالي مدينة برلين مقسمة إلى شطرين. - المترجم -

٢ - حسن بالألمانية. - المترجم -

يتعلمون التركية. أمر عمر!. وصارت برلين تملك قصابيها، حاراتها التركية، والمساجد المتحركة، التي تختفي عن عيون الأمن، وعيون المسيحيين واليهود. وصار العمريون في برلين الغربية تفوح منهم روائح لحم الغنم، ولحم العنز، والدهن الأناضولي. كان عمر يرسل شاحنات البرادات لبرلين الغربية، وصار البرلينيون، إضافة لحلوياتهم الألمانية، يأكلون المشبك بالبيض، والسجق، والبقلاوة. وكان سائسو عمر وغشاشوه يحضرون أطيب اللحم من بافاريا، وصقلية، ومن الجنوب الأقصى البلقاني، نساء بدينات جداً، وغبيات جداً، بلحمهن المكدوم من العضّ والقرص. اللواتي يتسكعن في شوارع برلين ويعلكن اللوز والفستق والقضامة، كن من مستوردات العراب أيضاً.

لقد استطاع عمر أن يهرب مني في رواية رجال بأربع أصابع، أولئك الرجال الذين كان لهم شرير آخر من آسيا الصغرى وعراب اسمه ملّا يوسف تتاروغلو. ذلك «التولوز - لوترك» من إزمير، القزم المعتمر قبعة «الدكتور جيفاكو» على جمجمته المفلطحة. ذلك الذي كان يؤمّن للعراب لازار لازاريتش من مدينة بريمن مئات الكيلو غرامات من الحشيش وصمغ الأفيون، ويؤمن لجنوب البلقان، وآسيا الصغرى، والشرق الأدنى أطنان المتفجرات، والألغام البلاستيكية، والآلات الجهنمية من جميع الأنواع، والتسليح الخفيف ونصف الثقيل، الذي كان المدفع الصغير السويسري السلعة الأكثر رواجاً، الذي لا يهتز ولا ينتر الأوتوماتيكي أو اليدوي...

XXV

يسمى العراب باللغة اليونانية العرابوس.
بابا ندريو يتشمم العديد من البارفانات.
هيلادو.. يا أمي.. يا أمي الوحيدة.

هدر قطار البلقان - إكسبرس شاقاً طريقه في مرتفعات الألب. وكانت السنة تقترب من نهايتها، الوقت الذي يملأ فيه العمال الأجانب القطارات وهم يعودون لأهلهم في عيد رأس السنة. كان الوقت ليلاً.

ولساعات كنت أسمع غناء اليونانيين وأشاهدهم. بل وغناء أولئك الملتفعين في أغطية ألمانية رخيصة مستلقين على المقاعد والأرض. كانوا خمسين مسافراً، جميعهم يغنون أغنية العودة:

«هيلادو.. يا أمي.. يا أمي الوحيدة»، وهو ما بدأه ذلك التعيس فاقد رجليه الاثنتين.

كان شاباً مخطوف اللون، بشعر أسود أجعد، وعينين مليئتين بالخيال والأمل والدموع، يغني وكأنه إنسان مكتمل. كان صوته مثل العسل، ينضح ألماً، يتقطع حينما ترتفع يداه الطويلتان، غير المتناسبتين مع جسمه الضخم، فوق رأسه، ثم تقعان، وهو ساهم، حتى خيل إليّ أنه أعمى، لولا أولئك الذين كانوا يتابعونه: «هيلادو.. يا أمي..» يحشرج الغناء على شفتي الشاب المكدومتين، الصادح من حنجرة مضغوطة متعبة.

«هيلادو.. يا أمي الوحيدة..» كان يرددها الآخرون متنغمين، حتى خيل إليّ أننا نغني جميعاً، وأنه لا يوجد في الدنيا، تلك اللحظة، أية أغنية أخرى.

فقط الرجل اليوناني بجانبي لم يكن يغني. كان تاجراً متوسط العمر، مطلوساً بالأبيض. بسترة من التويد، وبنطال خيّال، وجزمة أطرى من القفازات. بصدارة وردية اللون مع سلسلة ذهبية، والخواتم، والسوار، وأزرار ثقيلة مشغولة بالخرز في رسغي قميص عريضين. وعلى الإبرة المثبتة لربطة العنق سلاسل كالميداليات، وكرباج بمقبض من عظم العاج.

وقد فاحت منه روائح بارفانات عديدة. وكانت أغاني رفاقه تثير لديه شيئاً من الخشية، لهذا كان يتثاءب بهذه الصورة، ويسحب ساعة صغيرة ذهبية من جيب صدارته. ويضرب جزمته بمقبض الكرباج. ففهمت لتوي أن قاسم بابا عمر يوناني.

«يغني يونانيوك بشكل جميل» صرحت، محاولاً بأي شكل إحداث حوار بيني وبين بطلي المستقبلي الروائي.

«فليغنوا» قال العرابوس، العراب، وهو يمسّد بمقبض الكرباج شارباً رفيعاً لا يتجاوز ثخنه المليمتر الواحد أو المليمتر ونصف المليمتر. وأضاف «الأهم هو أن لا أغني أنا!».

«ولماذا لا تغني أنت..؟» طالبته بإجابة وتفسير.

كان من الصعب صياغة جواب وتفسير. فلغتنا الألمانية التي شابها الكثير من الكلمات اليونانية واليوغسلافية لم تكن مفهومة بالنسبة له، ولا بالنسبة لي، لكننا كنا نجيد الكثير من صيغ الأفعال.. التي جعلت حوارنا شيقاً..

ومن تفسيرات العراب فهمت أنه من جوبانين، أي أنه لا يجرؤ على التثاؤب أو الشخير «كما تفعل الحيوانات» وإن فعل فهذا معيب. ولا بدَّ لهذا الجوبانيّ الطيب أن يبقى محايداً على طرف، ليحصي ويعدّ. لأنهم - كما شرح

- قد سرقوا منه عبيده منذ فترة. إنهم يختطفون رجاله. يسرقونهم منه بينما يكون يقودهم ويسوقهم، سواء من اليونان إلى الغرب، أو من الغرب إلى اليونان. ينشلونهم منه ويسرقونهم، وينزعون عنهم كل شيء حتى الثياب ثم يرمونهم من القطار، فيتداول منافسوه الحكايات أنه المسؤول الأول عن موتهم.. هو بابا ندريو.

«من يسرق اليونانيين ويرميهم إلى العدم؟» سألته.

«اليوناني يصطاد اليوناني بكل سرور ويرميه من القطار» أجاب واجداً النبرة المناسبة لجواب مرسوم: «اليوناني لا يحب يونانياً إلا إذا كان في الجوار تركي ما! وهناك آخرون يسرقون عمالي ويرمونهم في العدم».

«ومن هم؟».

«اليوغسلاف» قالها العرابوس اليوناني بابا ندريو باندفاع. «يرغبون بالغناء مع يونانيّ!.. وبعدئذ حينما يسرع القطار...».

«أول مرة أسمع شيئاً كهذا!» استقمت مدعياً أنني أجهل تلك الطريقة في السرقة من قبل المجرمين اليوغسلاف.

«ويرمي اليوغسلافيون اليوغسلافيين من القطار!» قال مبتسماً «ليس فقط رجالي اليونانيين»

«عوضاً عن أن يغنوا معاً...» قلت ضاحكاً.

«بل عوضاً عن أن يرموا إلى العدم معاً أولئك الذين لا يغنون!».

«من تقصد؟».

«الأتراك» قالها العرابوس بحدة: «جميع الذين لا يغنون!».

ضحكت، وبقي وجه محدثي جليدياً. نظرت إليه أقيسه سراً. وخطرت لي المقارنة مع عمر السنجقي. لم يكن ثمة فارق كبير بين العرابين. ويشرع الأدب والأفلام صدريهما لهذا النوع من المافيين الشرقيين.

نظرت إلى ذلك الجميل المشروخ الذي كان يغني «هيلادو» وهو يقضم الفستق. وقلت للعراب: «عرابوس أين هي رجلا هذا اليوناني الجميل، نصف جسده؟» سألته.

«ألمانيا!» قاطعني العرابوس المطلوس بالأبيض، ورسم بيده وكرباجه: «محطة قطار تحت الأرض في آخن!.. الأرض.. الأخشاب والدعامات..».

«متى حدث ذلك؟».

«قبل ثمانية عشر شهراً» قال العرابوس، بل رسم ذلك.

«لماذا لم ترسلوه فوراً إلى اليونان. إلى بيته؟».

«لديه عقد صريح معي!».

«أي عقد؟».

«عقد.. اتفاق..!» كان العرابوس حاداً وجازماً: «بالرغم من أن هذا الشاب قد أضحى نصفه فهو ما زال ملكي!».

«وماذا ستقول «فيلادته»[1] حينما تراه مشروخاً هكذا؟».

«سوف تسأله عن الماركات التي أحضرها معه!».

«وماذا ستقول عائلته؟».

«هذا الشاب ما زال مهراً. لا يملك في هذه الدنيا سواي».

---

١ - أمه. - المترجم -

«وماذا ستقول قريته؟».

«سيغنون له، كما سيغني هو للقرية!».

«وكيف ومن أين سيعتاش؟».

«من الشفقة والإحسان!» قاطعني العراب «وتلك كانت مصدر رزقه قبل أن أشتريه وأقتاده إلى ميونخ!».

كان الشاب الجميل يغني. وقد اختلطت على وجهه الرائع الحزين الدموع وحبيبات العرق. كان اليونانيون ينتظرون أن ينتقي أغنية، أن يصدح بها، ومن ثم يتابعونه محاولين النسيان. كان العراب فقط هو الوحيد المتبقي على طرف، ذلك المكسي بالذهب والخرز والسحنة الجليدية.وكان يمسّد بأصابع معتنى بها جداً، للحظة سالفيه، وللحظة شاربيه الرفيعين. وعلى الحدود النمساوية اليوغسلافية استخرج العرابوس من حقيبته الدبلوماسية المزينة بالأحرف الأولى المصنوعة من الفضة حوالي مئة جواز سفر يونانياً، مثلما فعل عمر السنجقي!.

لم أشاهد العرابوس ثانية. وقابلت العديد من العرابين اليونانيين. ليس فقط في القطارات ومحطات القطارات في أوروبا الغربية، الذين انتظروا عبيدهم الأوروبيين أو ساقوهم، بل وفي المقاهي والمطاعم المحترمة، في مدارج سباقات الخيل، وصالات القمار. لكن العرابوس ذو الكرباج، بشاربيه المليمترين، والعين اللئيمة، قد ترك في نفسي أعمق الأثر وأشده ظلامية، من جميع العرابين اليونانيين الباقين والأشرار.

XXVI

العائدون من دون صيادي الحيّات السامة. بعض بلدياتنا يتسكعون في مجاهل الغابات، يصطادون القرود الأفريقية الخطيرة، والوحوش اللعينة الأخرى... النهاية سعيدة الخاتمة!.

قطار البلقان - اكسبرس يهدر في مرتفعات الألب. القاطرة شبيهة بتلك المذكورة في نهاية رواية رجال بأربع أصابع. كان القطار مكبلاً بالجليد. على أحد الأطراف الثلج حتى السماء، وعلى الطرف الآخر أودية العدم الحجرية والحصى الدقيق. كان قطارنا ثلاجة حقيقية!. اليوغسلافيون يشربون ويغنون...

كانوا من العائدين الذين سافرت مع بعضهم من هامبورغ، ومع آخرين من كاسل. وقد انضم إلينا في فرانكفورت على الماين وشتوتغارت عشر قاطرات. وفي ميونخ انفصلت قاطرة المسافرين القاصدين فيينا ونيرنبرغ، وزيوريخ. وبهذا صارت تشكل سلسلة قاطرات البلقان اكسبرس المقطورات الحاملة لأسماء المدن اليوغسلافية على لافتاتها. كانوا يشربون ويغنون، راغبين أن ينضم إلى الأغاني والإيقاع جميع الموجودين. وكل ما يمكن أن يعتمد على السماع، أو التعب، أو عدم الاهتمام، لا وجود له بينهم. وكل من ليس مع الغناء وأغاني العودة لا تليق به الصداقة والأصدقاء. إذا كنت جائعاً - كما يقول العمال الأجانب - إذا كنت عطشاً للشراب، تذوق

هذا من يدي، واشرب من زجاجتنا المشتركة!، هكذا يتكلمون، وإذا ظننت أنك لا تجيد الغناء معنا، افتح فمك فقط معنا. لا تتحرج!. كانت القاطرة كلها تغني.

كان اليوغسلافيون يطلبون بسخاء. كرمهم موضع فخر، وأيديهم تصرف من وسع. ويعيد البذّل عرباتهم الصغيرة فارغة. فحين عودة العمال إلى ديارهم، حينما يغنون من قلوبهم فإن المال: الغولدنات، والماركات، والفرنكات، لا يمكن مجرد التفكير فيها، كما لو كنت في برغن، أو في أوخن باخ، أو سوشو... هؤلاء الناس يثيرون الثقة. وأؤكد جازماً أن ليس لهم عراب، ولن يكون مستقبلاً. فرجلنا لا يحتاج لأي قاسم بابا، أو عجيبة بشرية مثل عمر قره أوغلو. وبشكل أقل لتاجر رقيق وعبيد من الجزر اليونانية البعيدة، مثل العرابوس الحقير بابا ندريوس الأشمط مع كرباجه. إن الناس الذين أسافر معهم عائداً مختلفون، مختلفون جداً عن أولئك الذين يتلاعب بهم العرابون ورجالهم التابعون. لقد عرفوا أن يذهبوا إلى الغرب من دون أية مساعدة، وأحياناً حتى شواطئ الأطلسي والباسفيك. فاليوغسلاف هم أنشط قبيلة بلقانية. ويعرفون كيف يعودون إلى بيوتهم وأوطانهم دون مساعدة من أحد. بعضهم يعود أثناء العطلة، فالسنة في نهايتها، وبعضهم ينجز العودة النهائية والدائمة. يتكلمون عن أعمالهم بكل احترام، سواء أكانت في ميونخ أو سمدريفو[1]، يذكرونه بكل إنسانية من دون مغالاة يختصّ بها أولئك العاطلون الذين لا يعملون.

«يا صديقي. نعمل ونكسب!».

---

١ - مدينة صربية يوغسلافية. - المترجم -

كثيراً ما سمعت هذه الجملة، وكثيراً ما تقال بدون أية طقوس إضافية مما يدعوك للتفكير فوراً بالمعامل، بورشات بناء السفن، بالأرض التي يتم حفرها من قبل هؤلاء الذين أعود معهم إلى الوطن. وتعي جيداً ما يقولونه: من الأفضل أن تكون عاقلاً، محترماً، شريفاً، ونشيطاً، ومن دون عراب. هذا مايردده واحدهم في داخله، بينما تكون اليد العائدة على كتفيك تربت.. «بعضهم يعودون إلى قراهم وأماكنهم أكثر فقراً» يقول الشاب المشورب من جاجانين. «كيف ذلك؟» سألته وأنا أعرف الجواب.

«القمار!» يقول الجاجاني: «عجائب تحدث حيثما «الأوجاني»، دالموش، أو «لالا» يكتشف الروليت، أو البكارة، والطاولات الملونة!».

«أية عجائب؟».

«يستدينون ويغرقون بالديون!» يقول الجاجاني بجدية واضحة على وجهه: «ولكي يعيشوا مرفهين وفوق المستوى، يجب عليهم أن يعملوا فوق المستوى! فمن أين لهم القوة والتحمل لذلك؟ فتراهم مهدودين، يتراخون، ويرتدون إلى العرافين المختلفين!. سيساعدهم الأصدقاء، الرفاق من العمال الأجانب!. وتساعده مرة ومرتين ثم ترفع يدك، ومعك حق! وهؤلاء هم الأوائل الخاسرون لأعمالهم... هل تعلم يا صديقي ماذا يعني أن تخسر مكان عملك وأنت بعيد عن بلدك وأهلك! أنت هنا وحيد ومتوحد!. أحياناً لا ينفع أن تنصح البعض أو تشرح لهم أن الماكينات باهظة الثمن وزجاجة الشراب لن يستويا أبداً، ولن يجتمعا. وتصرخ بوجهه: أيها الحيوان من دون ذَنَب!. لكن لا نفع من ذلك. ومن نافلة القول الحديث عن الذين اكتشفوا شوارع اللذة، وأماكن اللهو، وبيوت الدعارة..».

«وأين هم يا جاجاني؟».

«ليسوا معنا!» يبتسم المشورب، بينما ينهب القطار المسافات، يشق زعيقه قلب الليل مخترقاً الجليد: «إنهم في سجون فرانكفورت، وبريمن وعلى الأغلب سجون ميونخ! يتسولون الحسنات عند مفارق الطرق، يجمعون المال.. مدعين أنه من أجل العودة إلى الأوطان.. التي شهدت حوادث موت أقرباء!... ينشلون في القطارات، في محطات البنزين، في المترو!، وغالباً ما يقعون في أيدي المجرمين وشذاذ الآفاق، الذين يتسكعون حول محطات القطار، وحول ورشات البناء، وبيوت الدعارة في الموانئ. يصطادون ضعيفي الإيمان، الضائعين، والمشبوهين، وكل أولئك الذين شربت أفكارهم ولحست عقولهم اللذة، والانحراف، والقمار، وقصص المغامرات. بعضهم يخبروننا من مزارع أمريكا الجنوبية، مدّعين أنهم في غاية السعادة هناك، بأنهم يتفسخون من شدة الانبساط والجنون. ولم يعد من ضمن شهواتهم أي شيء. ولا يعطون عناوينهم، فلا يمكننا مراسلتهم. ولكنا كتبنا لهم وشرحنا لو عرفنا ما يعملون: مطرودون مساقون بالكرابيج...

ض.. ح.. ا.. ي.. ا.. لأنهم لم يعودوا موجودين على أية قائمة للأحياء. إنهم يصطادون الحيّات السامة، يركبون الكركدن، يتسكعون في مجاهل الغابات، يصطادون أخطر أنواع القرود، والوحوش اللعينة الأخرى... فكيف تعيدهم؟ كيف تستقبلهم؟ مستحيل!».

وكل من يسمع الباقين، ويفهم هذه الأحداث، سيقول إن الحياة شئيمة وتعيسة ولا يمكن لبشر أن يجد الهناءة في الغربة. لكن والحق يقال لن تكون الأمور أسهل في أماكن أخرى إذا نظرت إليها بموضوعية. فإذا ما أرسلت

ابنك أو أخاك الأصغر إلى المدرسة، ما دام أهلك لم يمكّنوك من التعلم، يجب أن تتعب وتشقى بقدر رجلين في كل.. م.. ك.. ا.. ن. ولا يمكن الحفاظ على الشرف، أو ماء الوجه، أو الاحترام، بالكلمات فقط. بل بـ.. ا.. لـ.. ع.. م.. ل. العمل الشاق! وإذا أمعنت التفكير يجب أن تكون محترماً من أجل ذاتك، ومن أجل ذلك الذي يسقط ويصعب عليك سقوطه - كلبك!. هكذا يقول.. ويردد اليوغسلاف الذين أعود معهم. ويستمرون بالتبجح «أن ليس بقربهم أحد من القرى المجاورة أو البلدات» أولئك الذين، الآن، قبل رأس السنة، يصطادون لحساب الآخرين العناكب البرية الضخمة والحيوانات.

الناس يغنون، والقطار يكاد يتفجر. رجال الثلج يذوبون، الصباح يشرق منبثقاً، الجليد يغطي كل شيء. ها هي الحدود.

لا أحد يذكر الرجال بأربع أصابع ثانية.

أوستبرغ - ليوبليانا - بلغراد - ١٩٧٧.

الإصبع الخامس السلوفيني

ديلا إيست، المغرية الساحرة واللعينة

كان الازدحام على أشده، والتدافع والانضغاط، في محطة قطارات باريس، التي يسمونها المحطة الجهنمية، الشرقية، التاريخية: ديلا إيست. ازدحام لا يمكن مصادفته إلا في المحطات.. المحطات الجهنمية، الشرقية، التاريخية في ميونخ أيضاً، وسالونيك، وميلانو. في ذلك اليوم لم يكن واضحاً لي أكانت محطة ديلا إيست الملعونة الكريهة مجرد مكان انطلاق وعودة أم منزل دعارة عمومياً. كانت جنة اللصوص، والمناسبة الجيدة لشراء العمالة، أو بشكل أدقّ البضاعة البشرية الحية. كانت مسرح العرابين من كل أنحاء العالم. المكان الأفضل للمشترين، للسماسرة، ومروجي المخدرات، وليس لصنف واحد منها، بل من الحشيش والماريجوانا، وصمغ الأفيون «دموع القنب» وغيرها من السموم الخطيرة التي تصل إلى هذه المحطة الشرقية اللعينة عن طريق نهر الدانوب من الشرق، داخل البهارات، والمشاريب التي لا يفهم بها أحد سوى الملونين السمر من سكان الكرة الأرضية... ثمة ليال كثيرة يكون فيها الفرنسيون على ديلا إيست، المحطة الدموية، الشرقية، مجرد ديكور، سواء أكانوا من رجال الحكومة أو الخدم.. وغيرهم.. مجرد خدم. فالمسافرون من بلاد فارس، لبنان، تركيا، الباكستان، والهند، يصرحون أنهم في طريقهم إلى بريطانيا يمكثون في فرنسا عشرات السنين. ومن حقيبة المسافر ذي الشعر المفروق الدهني، واضح أنه من بومباي، تنهمر رائحة الكاري بشدة، ذلك النوع من التوابل، الذي يكون ذوو الخرق البيضاء، من خلفه، يدوسون حفاة. ويسير من خلف الهندي عائلة كاملة من بنغلادش:

ومن إمارات السرور على وجوههم يبدو أنهم وصلوا إلى الأرض الموعودة، وأنهم سيقيمون عليها، أين؟ لا أحد يعلم! أين سيقيمون، وكيف سيعيشون أمر يهمّ الجميع ولا يهمهم. وهو ما يجعلهم إضافة للحيوية البادية، مادة لريبورتاجات وأحداث ومشاهدات سفرية غنية.

تختنق محطة كاري ديلا إيست من الأبخرة. ويبرز ريش آسيا الصغرى من وسائدهم. وأكاليل الثوم، والفليفلة الحمراء معلقة على الحقائب، والصرر الكبيرة. وأحياناً هلاهيل مسافر يتكلم اليونانية... إنها الهجرة والنزوح! ويسير من خلف الأتراك والأردنيين والقبارصة والفلسطينيين مجموعة من عديد الرجال، ذوي العيون السود، طوال القامة، ذوي الكبرياء. ولا تنقصهم إلا الرماح فقط. أمامهم عرابهم، شديد البأس، هادئ، لا يرى أولئك الذين يقودهم، ولا هم يشاهدون الناس يتنحون لهم عن الطريق. وتسري شائعات في هذه المحطة اللعينة الشرقية بأن هؤلاء من الأكراد، الواصلين لتوهم من ساحات الوغى.. من العراق.. أو من مكان آخر.

ولا ينقص تلك القبعات والأعناق الثخينة السوداء، والأحزمة الحريرية الحمراء، سوى السكاكين الحادة بمقابض من عظم الفيل، والصبيان المخصيين، والحراس. ولا بد أن يكون سلاح هذه الأمة النازحة، هؤلاء الملايين من الهاربين والقادمين، مخبأ في البالات الضخمة التي لا يمكن أن تتسع لها عربات المحطة الحديدية، لهذا يدفعها هؤلاء الملونون بمعاول المحطة، يجرّونها، يسحبونها، وينتعونها. هناك لا بد أن تتواجد البنادق، والسكاكين، وكل ما لم يستطع موظفو المحطة الذين كادوا أن يفقدوا

عقولهم، ولا رجال الجمارك ولا البوليس، أن يشاهدوه، ولا نجحوا بذلك. وكيف يشاهدون: كيف يحاول الرجل باللباس الرسمي أن يفتح الكيس أو الصرة الضخمة التي يسمونها «بقجة» ما دام يبرز منها رأس ديك حبش، أو طاووس أردني، أو سوري، أو عراقي، أو من أي مكان آخر، وينقر. فالفرنسي يحب الحيوانات من بعيد فقط، في حديقة الحيوانات وليس بين يديه. وترى أول فرنسي يبصق «ميرد.. د..و!» بينما يصرح الثاني أنه وجد كيساً مليئاً بالسلاحف الجنوبية الهندية، وعلى «قفة» مليئة بما يشبه صغار المنغوس، وعلى قفص ثقله خمسون كيلو غراماً مليء بالحيّات مختلفة الأنواع، وخصوصاً السامة منها سوداء اللون. ولن يكون الفرنسي أول القائلين، ولا الثاني ولا الثالث، بأن بعض الآسيويين قد وضعوا الغائط في بعض الأكياس، إضافة للتراب. ولا يدرك الفرنسي أبداً أن تحت هذه المحتويات الكريهة الحارة فظيعة الرائحة، خصوصاً تحت الحيوانات ومخلفاتها، التي لا يمكن دفع الجمارك عليها، ترقد القنابل، وينام الديناميت، والمتفجرات المرعبة. وتكون القنابل، على الأغلب، صناعة يدوية، ولا أحد يعرف محتواها، ولا مصدرها، ولا لمن هي مهيئة!.

وفي الأناضول، وضفاف الفرات، وتحت هضبة الجولان، لا يذهب الناس لكسب أرزاقهم من دون سيف، سيف تبرز قبضته، كما يرى كاتب هذه الأحداث، الآن من البالات...

هل ينتظرون الخلاص يا ترى.؟.
كلا إنهم ينتظرون لا أحد

من محطات قطارات عالم اليوم، العالم الهائج، المقلوب رأساً على عقب، من هذا العالم الذي استطاع النزوح وتغيير مكانه، من هذه الملتقيات الحديدية في المحطات المهيئة للانطلاق والعبور، لا يوجد مناجم أفضل ينهل منها الكاتب، وعالم الاجتماع، والصحفي، ويستطيع الشعراء صياغتها لؤلؤة إثر لؤلؤة.

وحقيقة. هل ترغب ببضاعة يونانية! تقدم واستمع. ستسمع لهجة أهل سالونيك ومكدونيا الهيلانية[1]!. هل ترغب ببضاعة تركية - كردية - عراقية - قف وتمعن بالمشغولات اليدوية على القبعات والحقائب والمعاطف التي يتدثر بها الأطفال الجائعون المرتبكون، ومروضو الحيات، مهربو أوروبا الجالبون لها ضفادع وطيوراً لم يشاهدها السكان من قبل. إنه البنجاب[2] مصغراً. المطربون والعازفون على آلات من القرميد والخشب والجلد، ومن يعلم من أية أشياء أخرى. اللاعبون والسحرة - كلّه أمامك!..

من أين كل هذا العدد الهائل من الإيطاليين على محطة قطار باريس الشرقية الجنوبية الحارة. واضح أنهم من سكان أبوليا، وصقلية، وسردينيا،

---

١ - مكدونيا الحالية جمهورية مستقلة، كانت ضمن يوغسلافيا الفدرالية سابقاً وسكانها من السلافيين. لكن اليونانيين ما زالوا يطالبون بها باعتبارها جزءاً من بلاد اليونان القديمة. ومكدونيا الهيلانية هي جزء من مكدونيا الحالية معظم سكانها من أصول يونانية كما يدعون. - المترجم -

٢ - إحدى مقاطعات الهند. - المترجم -

سابقاً. تعرفهم من شفاههم وأشيائهم التي يسحبونها خلفهم، من شرقهم! إلى قلب أوروبا.. إلى باريس!

وتستطيع التعرف على اليوغسلاف البلقانيين من مصطلحاتهم، من تعابيرهم الدونية، أي من شتائمهم، التي - ويجب أن نفخر - لا مثيل لها في العالم كله! لكن اليوغسلافيين واليوغوفيشيين بلدياتنا وأهلنا دائماً ينتظرهم مخلوق ما. ترى الدموع والعناق، مسح الشفاه، قبل وبعد التقبيل، بالراحات والأكمام. آه.. أي فيلم.. أية حقيقة! لا يهم أبداً هل النازح.. من بيتولا، السهل الأبيض، أومتليكا. المهم أنك تملك في مكان ما أحداً ما لا يهم من.. وها هو ينتظرك!.

بينما لا أحد ينتظر القادمين من البعيد، حاملي البالات الملونة، والحيّات، والقرود المخبأة في الصدور، والسلاحف والحرادين الغريبة تحت الإبط. ولاحظت أن لا أحد يقترب منهم. إنهم ينتظرون. من؟ هل يعرفون القارة، والوطن، والمدينة، المتواجدين فيها؟!. لا أستطيع القول إنهم مرتبكون، ولا خائفون. كأنهم يملكون الأمل. إنهم ينتظرون، لساعات، وليال، وأيام. هل ينتظرون الخلاص يا ترى؟ ليس الخلاص الذي يفهمونه وحدهم، بل الخلاص القادم من السماء الصافية، من تحت الأرض، من تحت الوطن الذي لا يوجد عليه أنهار كبيرة ومقدسة كما في بلادهم! لكنهم محترمون وعمالقة في عذابهم الهادئ. لا يتحركون ولا يتذمرون بينما ينتظرون.. لا أحد.. إنهم يؤمنون بطيبة هذه القارة التي لا تعرف أنها احتضنتهم... بصفتهم سكاناً من الدرجة الأخيرة.

من يشتري هندياً ما دام لديه تركيون؟!

في فناء المحطة الشرقية يتمشى المافيون. كل لديه مرافق غوريلا، أو اثنين، بأرجل معوّجة، وعضلات نافرة، وأعناق متعرقة. ستعرفهم فوراً من البذة، والشارب، وطريقة المشي، تميّزهم بسهولة من حراسهم بكل ما تعني الكلمة من معنى. ومن خلف هؤلاء المافيين، قليلي الكلام، إنما الذين يقيسون كل شيء بحذر، تسير وحوش بشرية باهتة الوجوه، حليقة الذقون، يغشاها الحذر الشديد والخوف والخشية مثل صدأ، متعهدون، وبناؤون ضخام الجثث، يشترون من المافيين المواد البشرية، يحشرونها في سيارات الصالون، ويقودونها إلى أمكنة ما. هذه البورصة تعمل كما كانت في بداية القرون الوسطى. وقد شبهها أحدهم بالبورصة أيام إميل زولا، كما في كل فترة انكماش أخلاقي واقتصادي عالمي...

ولا أحد يشتري القادمين من شبه القارة الهندية. إنهم باختصار لا يدركون ذلك فتراهم يتابعون الانتظار!.

كيف تذابح العرب

أقف في منتصف المحطة الشرقية. أحمل صحفاً يوغسلافية قديمة منذ أسبوع، وكتاباً فرنسياً مصوراً. أقف وأسمع وأشاهد العينين، عيني نازح مهاجر جديد قومي. قومي شديد الانتماء إنما نازح إلى هذا البلد. وكل ما أراه في تلك العينين أشبه بما يحصل في اليوم الأول، اليوم القدري، وما أقرؤه في الوجه على الصحيفة، بمعطيات الصحيفة ذاتها: من هو، من أين جاء، وأي موقف سأتخذ إذا حدث حوار بيننا.

حصل الحوار طبعاً. ولم أكن متواجداً لأصمت بالطبع، بل لأتكلم. أسأل، وأصغي. وكان الورق والقلم وجهاز التسجيل في رأسي. أبدأ الحوار مع رجل متوسط العمر، بجمجمة مربعة، وعنق طويل. من الواضح انه مهرب بهيئة من جنوب البلقان. وقد أخبرني بلغة شابها الاحترام والتقدير بأنه في هذا المكان بالذات، الذي أقف عليه، حصلت البارحة جريمة شنعاء. أحد المهاجرين، الشبيه بأولئك أصحاب الحقائب، الذين يدفعون بالامهم ويجرّونها، من آسيا الصغرى، قد أغمد سكينه في قلب مواطنه العربي أو الكردي أو لا أعلم ما هو. علماً بأنهما سافرا معاً من الحدود التركية السورية، مثل إخوة - قال المهرب - وإنهما افترقا في محطة غاري دلا إيست.

«ليس من العدل» قلت للمهرب، وأنا أوحي له بأن بضاعة أخرى لا تلزمني.

استوعب المهرب فوراً. وانطلق من دون وداع باتجاه البراكة المسماة «الصحافة الدولية»...

العراب الأكثر اكتمالاً تحت سماوات العالم وفي جميع الأوقات والأزمنة.

يتقدم مني رجل في منتصف العمر. قوي البنية. بلباس ملون مطبّع، يشابه ورقة نبات زينة. شعر شائب، مموج. شاربان مشذبان، مصبوغان، ورقيقان. ربطة عنق سكوتلندية. ذهب على الأصابع. ذهب في الفم. عضلات هجومية. نظارات شمسية. متعرق. معطّر، «مبودر»[1]. وجه بآثار جدري سابق. شعار حديدي على الياقة. ربطة العنق مثبتة على القميص الباريسي المخرم كالشبك بدبوس ألماسي. حقيبة دبلوماسية سامسونايت تشبه حقيبة سفر صغيرة. في يده اليسرى قفازات بيضاء. وكل ما عدا ذلك كان في يدي مرافقه الغوريلا الرئيس. وعلى يدي الغوريلا رقم اثنين، ذلك الذي يراقب كل خطوة من خطا سيده وكل حركة، رقد المعطف الكاب. وكان الغوريلا رقم ثلاثة متأخراً، في العمق، أمامه الغوريلا رقم أربعة...

«من تنتظر يا بلدياتي؟» سأل الرجل بلغة الصحيفة التي أمسكها بيدي، بلغة الصحيفة التي تبرز من جيبه: «من تنتظر؟» أعاد السؤال بلهجة جنوب كوسوفو، ويمكن مكدونيا.

«أنتظر أقداري» قلت «أقداري.. وماذا بعد؟..».

«إنك تبني للفرنسيين؟» يسأل الجنوبي ذو الأسنان الذهبية والياقة المبللة.

«أبني لنفسي» قلت، ليس كي أتخلص منه بل لأحثه على الحكاية.

---

١ - على وجنتيه بودرة. - المترجم -

«لا يعرف رجالي الراحة!» يبدأ هذا البلقاني الجنوبي، الواضح أنه عراب ألباني: «لا يجيدون أية لغة. ولا يلتقون أحداً مطلقاً. يعملون فقط ما أتفق عليه أنا! فيا بلدياتي إذا كنت راغباً بالعمل: وافق على الطعام. أن توزع الطعام. فرجالي لا يعرفون سوى الخبز والدهن والبندورة! لا يشربون، لا يدخنون، لا يلاحقون المومسات. يصمتون، ويقتصدون. وكي لا يعتب عليهم أحد لا يغنون! يجوز في دواخلهم فقط... ولا يعرفون أي شيء عن الخروج، أقصد للترفيه أو التمشي. أحياناً أقودهم إلى نهر السين ليشاهدوا الماء والجسور والأسطحة..».

«وكم هو تعداد مجموعتك يا بلدياتنا؟».

«هي كتيبة!» ابتدأ العراب، والزبد يطفح من فمه. ذلك القادم من سفوح جبال شار «أين تبني؟»

«لقد بنيت وانتهيت!» قلت له.

العراب لم يعجبه كلامي. عندئذ يظهر الغوريلا رقم خمسة. بدا كالمحارب المتوثب، ترتجف في عنقه تفاحة آدم. هذا المفتري الذي يتكلم مع من هم أدنى منه، له صفان من الأسنان في الفك الواحد وثلاث لوزات، وأسنان من الألمنيوم. ويمكنه ذبحك قبل أن تنبس. كان العراب يحبه أكثر من الباقين. وينظر إلى حامل الكاب شذراً، يناديه بإصبعه!. لقد بدا واضحاً أن الغوريلا رقم خمسة هو الأكثر شراهة للدم. يسير مرتجفاً من الهيجان. وقد تهيأ لي أنه يتكلم لغة مزيجاً من التركية والألبانية واليونانية.

كان العراب يتكلم ملوحاً بقفازيه الأبيضين. أقارنه مع العرابين الآخرين الذين صادفتهم. كان مكتملاً بصورة غير طبيعية بحقارته. منظماً

ودقيقاً. لا بد أنه كذلك. أصفه لأنه ليس كالآخرين. بدا أكثر ذكاء من قاسم بابا العراب التركي، ومن العرابوس اليوناني، خصوصاً من العرابين الآخرين من البلقان الجنوبي ورجالهم. الذين لم يعرفوا كيف يرسخوا النظام، ويفرضوا الطاعة بين رجالهم من العبيد المحدثين...

أحد السلافينيين خرج من الجحيم لحظة. وأعطى، شاء أم أبى، حواره الأول.

كل محطة قطار كريهة في الغرب، بما فيها هذه المحطة اللعينة الشرقية كاري ديلا إيست، فيها «ركن ثقافي»، ركنها الثقافي الخاص. إنها براكة تسمى ادعاءً «الصحافة الدولية» كما في محطة ميونخ. هناك يتعارف النازحون والمهاجرون الهاربون: بواسطة الصحف، كما أشرنا سابقاً، بالصحف التي يحملونها في أيديهم، بالصحف التي عزمت على شرائها. وكل من يشتري صحيفة غير مكتوبة بأحرف لغتك فهو، بعرف المهاجرين ورجال تحت الأرض، ليس صديقك، بل عدوك!. والعدو لديه مرافق غوريلا... يمكنه حينما تخرج من المحطة أن يلقي مخالبه، بهدوء، على كتفك...

أقف أمام براكة «الصحافة الدولية» في محطة كاري ديلا إيست. ويخيل إلي أن البراكة على عجلات، إنها تتحرك حتى خارج دائرة المحطة، بل وتذهب حتى القطارات، حتى ورشات البناء، هناك حيث يوجد «الغرباء الملعونون»، «السود الأوروبيون» يبنون البيوت، الدكاكين، ومعامل البيرة لسكان أوروبا الغربية، محدثي النعمة، والمبتزين، وغالباً المتلاعبين المدلسين. كانت البراكة تهتزّ على كل حال فتبدو أحياناً مثل وهم، كأرجوحة، مثل رؤى المهاجرين النازحين. هذه البراكة، براكة الرعب والخوف، مذكورة في رواية رجال بأربع أصابع. ولم يدخل في ذكر ذلك، فقط، الرجل بجانب البراكة، الرجل الواقف بجانبي... رجل غير عادي، سيكون، لساعات عدة، محدثي. وإليكم هذا الحوار الأدبي، السياسي، الباتالوجي[1]، لنازح مهاجر... كان متوسط الطول، علماً بأنه بدا

---

١ - المرضيّ. - المترجم -

وكأنه قد كان أطول وأكثر انتصاباً، كأنه تمّ اختصاره، وما يزال قوياً، بكتفين عريضين كانا لفلاح سابق، مشكولين مثل كتفي خياط، أو كاتب، أو منظّر. عنقه رفيعة، عنق مهاجر نازح، غزا الشيب شعره الطويل. ياقة قميصه عريضة ومستهلكة، مثلها مثل كل شيء على تلك الهيئة مستهلكاً. أسنانه هي الأخرى مستهلكة. بشفتين رقيقتين حادتين وشريرتين! أنفه كالقرصان يشبه كلّابة، بدا مكسوراً واصطناعياً. معطفه طويل، رث، بأكمام مرقعة، وجيوب كبيرة. حاجباه هادئان حذران، مثل وجهه كله هادئ ومرتاح، يعطيك انطباعاً لأول وهلة أنه غير مكترث ومنطو. عينان واسعتان تحيطهما شبكة تغضنات، مليئتان بالظلام، تشيان بانتماء صاحبهما إلى عالم تحت الأرض في الجريمة، إلى النازحين الهاربين، وخبرة طويلة في التسكع. وحينما استدار نحوي، ونظر إليّ، تخيلت أن نوراً ما، قدرياً، يجوز أنها لمعة ظلامية، شيء أشبه بالدخان، قد عمّ حفرتي عينيه. ولن أنسى في حياتي تلك الإثارة، الدموع، العينين الدخانيتين، كما لن أنسى صوته، والكلمات المحكية بلغة صحيفتي:

«هل يمكنكم يا سيدي أن تتكرموا عليّ بخمس دقائق؟».

«ولماذا خمس فقط؟» قلت مصححاً ناظراً في عينيه، في المكان الذي تبدلت فيه العواصف.

«لأنني يا سيدي المحترم لا أستحق أكثر.. لا أستحق.. كما أنا حقيقة.. انظروا إلي، تفهمونني، لدي ذلك الانطباع، أو أنكم تعرفتم عليّ ربما».

«أراك أول مرة، وآمل أن لا تكون الأخيرة» قلت مؤمناً أن الرجل بجانبي محدث أهم من جميع المحدثين، حزن متراكم. جنون.

«تعيس أنا، يا سيدي، وليس لتعاستي حدود» تابع محترساً أن لا يسمعه الباقون الذين يشترون الصحف العادية وصحف النازحين. «لقد طلبت خمس دقائق أليس كذلك؟»

«بل خمسين مرة أكثر يا محدثي!» همست: «بشرط أن تتلكم باللغة الأم السلوفينية!».

«كيف عرفتم أنني سلوفيني!» واغرورقت عيناه بالدموع والدخان: «هل هذا واضح؟».

«إنني أشعر بذلك يا محدثي. لا أراه. لا يمكن رؤية شيء بل هو الإحساس... فقط. هذا هو المهم أليس كذلك! أراك تتحدث بلغة الصحيفة بشكل ممتاز، هذه التي اشتريتها!».

«تريد القول: إنني أتكلم بلغة جميع الصحف التي اشتريتموها قبل ذلك؟ إذا كنتم تفكرون هكذا فأنتم واهمون...» «أين هو سوء التفاهم؟».

«أعرف فقط صحف اللاجئين يا سيدي! الصحيفة هي الصحيفة أليس كذلك. كما اللغة هي اللغة..»

«الصحف نوعان: تلك التي تذكر فيها الحقائق، وتلك التي تذكر فيها الأكاذيب يا سيدي!».

«وهذا معناه..؟».

«الحقيقة ماثلة فقط في صحف اللاجئين الهاربين!» كان واثقاً، عندئذ انقبضت أصابعه الطويلة وكتفاه وابتدأت ترتجف: «ما دام كل ذلك السوء، والشر، والعهر، في الصحافة العادية غير اللاجئة. ذلك الكذب الخالص، والعيب، والضياع.. فكيف تفهم السلوفينية؟».

«لقد أنهيت خدمة الجيش في سلوفينيا، يا محدثي. ثم نمت في سجن ماليبور منذ سنة فقط».

«هل تريد الشتابس أم البيرة؟ أم كأساً من النبيذ الأسود؟».

شاهد يهوه الكاذب. الموسوعة الحية للنازحين.

«يا سيدي أنا لا أشرب ولا أدخن» تابع حديثه «ولا ألعب الورق. أنا شاهد يهوه. تعرف ماذا يعني ذلك.. أنا شاهد دين غير مدنس، حقيقي، أصلي...».

«ومن أين لشاهد يهوه كل هذه الصحافة المخصصة للاجئين الهاربين؟» ابتدأت هجومي حينما كنا نشرب المياه المعدنية ونحن عند البار.

«ألا أملك الحق... في هذه الدنيا.. لامتلاك نسخة من حراس المعبد؟».

«لك الحق في كل شيء، يا محدثي، لكنك لا تملك تلك الجريدة. أنت تملك صحفاً أخرى مخصصة للنازحين اللاجئين، سلوفينية وغير سلوفينية. رأيتك وأنت تشتري تلك الوريقات... التي تطبع في شيكاغو، وبالأحرف الجرليتسا[1]... كم عدد الصحف المخصصة للنازحين اللاجئين التي تعرفها؟ كم عددها تلك المخزنة في حقيبتك، في جيوبك؟ أأكثر مني؟»

«لا بد أن أضحك يا سيدي» ابتدأ كاشفاً عن أسنانه الثرمة «هذا ممنوع علي.. أتعلم..».

«ومن الذي يمنعكم؟».

«القدر يا سيدي!. اللاجئ النازح لا يجرؤ على الغضب والإثارة. ولا أن يضحك، ولا أن يبكي. اللاجئ النازح يجب فقط أن يتحمل! أن يقرأ، أن يدرس، أن يتجه إلى كل ما يريد الآخرون تشويهه، إلى الحقيقة...».

---

١ - الأحرف السلافية القديمة قبل استعمال الأحرف اللاتينية. وما زال المتشددون يستعملونها.

«بدأنا حديثنا عن صحافة اللاجئين النازحين» أعدته إلى الأرض. «يا سيد يانز.. لقد أردتم الحوار شخصياً. وقبلت أنا. فلتتابع يا سيد يانز! ستصل الدورة الثانية من المياه المعدنية - سوف نسكر!».

«لا أُسمى يانز يا سيدي..».

«وما هو اسمك إذاً؟».

«لا اسم لي يا سيدي. أنا نازح مهاجر. لا تُسمني سلوفينياً. لم أعد كذلك منذ وقت طويل».

«منذ متى يا محدثي لم تعد سلوفينياً؟».

«منذ أن عرفت أنهم خانوني! منذ أن رأيت أنهم يطردونني، ينبذونني، أقول، منذ أن خانونا وتركونا لأقدارنا الشريرة، بصفتنا لاجئين نازحين. للشيطان!»

«إن هذه المياه المعدنية تضرب برأسي أنا أيضاً يا محدثي. وليس برأسك فقط. لقد حدثتكم بما يكفي عن نفسي يا محدثي، خصوصاً أنني نمت في السجن، وبأنني بعد ذلك صرت تاجراً، مسافراً. واليوم، بشكل استثنائي، أملك الوقت... وكنا قد بدأنا عنكم وعن صحف اللاجئين النازحين...».

لم أعد رجلاً منذ أن ابتعدت عن الفيلق الأبيض[1].

لا توجد أماكن شاغرة. لهذا وقفنا، نشرب «رونكس» الفرنسي. وقد خطفت الخمر محدثي.

حاولت استدراجه كي يحدثني عن الطفولة، التي لا بد أنه قضاها في دولينسكا. كان لسانه يتلعثم، ويتعرق. استدرجته إلى أيام الشباب التي أوحى لي أنه قضاها في الفيلق الأبيض. لكن محدثي كان يمعن في الهيجان والانكفاء إلى داخله. وهيئ إليّ أن الدم يتدفق غزيراً في عروق رقبته. كنت أرغب بذلك الحوار يدور حول أقدار اللاجئين الهاربين. تلك الأقدار المختلفة عن غيرها على كل حال.

«تحدثوا!» رجوته حين وصول الدورة الثالثة من مشروبه «رونكس»: «لأنكم بدأتم كل شيء».

«سيدي. أنا تعيس، أنا أكبر التعساء! ألا ترى... يا سيدي أنني بالكاد أتحدث؟! لا لغة لدي يا سيدي! لا قاموساً لدي. وأتذكر بصعوبة بالغة التعابير الشعبية! لا أفكار خاصة لدي... ألا ترون ذلك يا سيدي؟!».

«منذ متى؟».

«منذ لم أعد في الفيلق الأبيض. منذ أن جردوني من بزّتي، منذ أن طردونا من وطننا!. وها أنا أنسى يوماً بعد يوم اللغة، الكلمات، الأفكار، أنساها

---

١ - الفيلق السلوفيني المتطرف إبان الحرب ضد الثوار. - المترجم -

ببطء. هكذا لا يسعني اليوم، وأنا أشرب الماء المعدني، إلا أن أتذكر ما يكتب فقط في صحفنا. صحف اللاجئين والهاربين!».

«أليس هذا جنوناً على الأغلب؟».

«لا أعلم يا سيدي عن ماذا تسألني. أجنون في صحافتنا؟ يا لربكم الأعلى؟!.. وللعلم إن الحقيقة كلها على صفحات جرائدنا، بينما ينبع الكذب من صحفهم الصفراء!».

«أية صحف سلوفينية مخصصة للاجئين تعرفها بشكل أدق؟ «كليتس ثري كلافا» التي تصدر في لندن؟ أم «سلوفينيا ليبريه»، أم «سلوفينيا الحرة» الصادرة في بونس آيرس؟ هل «ألبا دي لا ليبرتاد سلوفينيا» أم «ابن الحرية السلوفينية» الصادرة في غيست لار الأرجنتين؟ أم «إلفورينا» التي تعني الرتل، الصادرة في بونس آيرس؟ الرتل التي تحمل في ذلك العنوان ثلاث كلمات رنانة: الإله - الشعب - الوطن! أم هي وريقات أوروبية من تريستا؟».

«يا سيدي أنت الذي نمت في سجن ماري بور، وذقت الظلام، أليس كذلك؟. فامتلك أنت على الأقل التفهم لمخلوق مهاجر نازح تعيس، الذي داخ رأسه من شرب «الزيدنكس»! أرجوكم لا تسكبوا لي المزيد.. يا سيدي. أعرف جميع صحف اللاجئين الهاربين السلوفينيين الجنوبيين. وليس فقط السلوفينية.. ك.. ل.. ه.. ا! التي أعرفها، وأمتلكها، وأحملها في جيوبي، وأقرؤها، وأحفظها... بل أحفظ غيباً كل ما يكتب فيها!. ويمكنني أن أقول لك كل ما جاء في صحف السلوفينيين اللاجئين شعراً. وليس الصحف فقط بل في جميع الموسوعات، والإعلانات، والمناشير، والخطابات، التي إما

طبعت أو نسخت باليد، ثم أرسلت إلى كل مناطق الأرجنتين، والنمسا، وأمريكا... هناك - أؤكد لكم - تكمن الحقيقة! والحقيقة يشكلها الإله - الشعب - الوطن...».

كنا نقارن الصحف بعضها ببعض. سحبت من معطفي جريدة «الدفاع الصربي» و«كرواتيا الجديدة»، وصحيفة «المأساة المكدونية». وسحب هو «جريدة الكفاح» الصربية، و«الصدر الكرواتي»، والجريدة الملكية، وقصاصات رومانية تؤلفها أربع صفحات صغيرة فقط. وكنا نحن الاثنان نملك «البا دي لا ليبرتاد سلوفينيا». ولكي يفاجئني سحب محدثي من حقيبته جريدة «الإخاء»، مجلة الجتنيك المسلمين، وصورة أحد الصحفيين الكتاب اليوغسلاف على الغلاف. لم أكن متفاجئاً.. كنت مصعوقاً.

«أليس من الصعب الاحتفاظ بكل هذه العواميد الصحفية في الرأس؟».

صمت محدثي فترة. كان يستجمع شتاته، وامتلأت محاجر عينيه، ثانية، بالدخان. كان ينظر إليّ، لكنني كنت على يقين بأنه لا يراني. ثم ابتدأ بهدوء، باحتفالية، لكنه - أعتقد - لم يكن يفهم الكلمات التي ينطقها. ولا أنا فهمتها. همس: «الذي يقف ويراقب من علٍ لابد أن يحترس كي لا يتعكر بصره أو يغشى! كي لا يفقد توازنه وثباته على الأرض. ولهذا لابد أن تكون جذورنا مغروسة عميقاً في الماضي. وبينما تكون أيدينا تنحت الحاضر، لابد أن تنطلق أحلامنا إلى المستقبل..».

«وهل المقتطف هذا من «تابور»؟ من «سلوفينيا ليبريه؟ من «كليتسا تري كلافا؟» من أين هو ما دام مقدساً هكذا، وثقيلاً جداً لكلينا؟ يا محدثي. من أين هذا النص؟».

«من «سلوفينيا ليبريه» يا سيدي. وبالرغم من أنني لا أفهمه كله، وبالرغم من أنني أتعرق وأنا أقوله، فإن هذا النص الآن.. نصّي.. أليس كذلك؟».

«لا مانع لدي» قلت لمحدثي «لقد بدأتم الحديث عن العدالة..».

«بل عن اللاعدالة، عن الظلم يا سيدي وليس عن العدالة التي لم يعد لها وجود... اللاعدالة هي التي تجتاحنا..».

«أية لاعدالة؟».

«اللاعدالة التاريخية يا سيدي. السياسية!».

يتألم الرجل الخاسر، يضرب على جبهته، يطلق كلمات لا يناسب لاحقها سابقها. هي مقولات تقال. ومن الصعب جداً أن تستمع للهارب النازح حينما يتكلم عن شيء صار بعيداً عنه، مثل محدثي، الذي يربط نفسه وما لديه بمفاهيم على شاكلة «NOB» في فترة ١٩٤١ - ١٩٤٥. إنه يدعو من دون اعتذار إلى حرب أهلية، متهرباً من فظائع تذابح الأخوة. لا بدَّ من فهم ذلك. ولكي نبقى نذكره، ونعطيه حقه، لا بد أن ندعه يلقي كلماته بشكل احتفالي وشعري. وهذا ما فعلناه مع العديد من الشخصيات من رواية رجال بأربع أصابع.

من قتل الدكتور مارك ناتلاجن، والدكتور إيرلينج، وإيفو برشوخ.. يا سيدي؟

بدا الرجل الحامل لكأس المياه المعدنية في يمناه كمن يصطاد أية جملة عابرة دون اكتراث هل أفهمه أم لا. قال:

«لقد توجب على الشيوعيين أولاً أن يكملوا العمل الذي بدأته القنابل الألمانية، أن يقتلوا الذين يمكنهم قيادة الشعب، بعد الوصول إلى كوراشتس، وكولوفاتس. ولقد وقع تحت رصاص المغتالين الشيوعيين: الدكتور مارك ناتلاجن، آخر دعامات الوطن السلوفيني. وإيفو برشوخ الذي نظّم سراً العمل ضد المحتل. والدكتور إيرليخ الذي قاد الشبيبة الطلابية السلوفينية. والأكاديمي إيمر كيكل، كاهن، ومئات الآخرين الذين كان لهم أكبر الأثر على الرأي العام، قبل أن تحتدم بشكل رهيب الحرب الأهلية. واختُطف من شعبنا الكثير من الرجالات المؤهلين والقادة المثاليين. وعمل الآخرون في خضم ذلك على تهيئة الشعب للوقت المناسب لبدء المقاومة المسلحة ضد المحتل وإمكانية نجاحها. وكانت الكتائب السلوفينية المضادة وكتائب سوكول منظمات تحت الأرض التابعة للشبيبة الكاثوليكية الليبرالية قد هُيأت في شهر أبريل ١٩٤١، ذات الشهر الذي كانت فيه يوغسلافيا الأولى[١] قد خسرت الحرب وتمّ تقسيمها..»

«إذا لم تخني الذاكرة فهذه هي.. ايسلوفينيا ليبريه؟».

---

١ - يوغسلافيا الملكية التي احتلها هتلر وقسمها. ثم استعادها الثوار بقيادة تيتو ووحدوها. - المترجم -

«حينما كان ممثلو الأحزاب الديمقراطية يحضّرون المقاومة ضد المحتل تحت الأرض - لكنهم في الوقت ذاته لم يرغبوا باستثارة نقمة المحتل غير الضرورية ضد الشعب... عندئذ وقف الحزب الشيوعي على طرف لا يشارك. وحينما هاجمت ألمانيا روسيا ابتدأ الحزب الشيوعي اليوغسلافي الحرب الأهلية بذريعة حرب التحرير الشعبية. لقد طلب الحزب الشيوعي من الشعب السلوفيني ضحايا الدم ليصل إلى أهدافه.. أقصد أهداف الحزب. وبهذا يكون الحزب الشيوعي المسؤول الأول عن تلك الجريمة للشعب السلوفيني، مخاطراً بإمكانية إبادته - فقط من أجل رغباتٍ وتطلعاتٍ شخصية سياسية...».

وللمرة الثانية يذكر محدثي الكتائب السلوفينية، ثم سوكولسكا، ثم كتائب ثالثة أو مجموعات صغيرة تفرقت وتلاشت قبل أن تتكون. ولم يعد بوسعي إلا أن أسأله: «إذا كان الشعب كل همكم، الشعب السلوفيني التعيس الأعزل الذي لا حماية له، وما دمتم تؤكدون على ذلك، فلماذا سمحتم للمحتل أن يسلبهم، وأن تقاتلوا مع المحتل جنباً إلى جنب ضد الثوار الذين لم يتفلسفوا كثيراً، لسبب بسيط هو إدراكهم أن المهاجم الشرير، الضيف غير المدعو، الفاشي، سوف يقاوم، مظهراً كل قوته ومقاومته، كل مقاومته، مقاومة بشرية شخصية، ومقاومة عامة للأمة، مقاومة بكل الوسائل وكل السبل، سواء بالقوة البدنية أو القوة الروحية، ضد كل ما لدى هذا الشعب من موهبة فطرية للحرية، من توق حقيقي للحرية، من الإحساس بالحرية...».

«الثوار الشيوعيون..»

كان محدثي يستمع حقيقة، إنما يسمع قلبه أكثر مما يسمعني. لم يكن صوته يرتجف وهو يرتجل المقتطفات، التي أعتقد أنها كانت من «تابور»!

«يُسمعنا الشيوعيون اليوم بكل صفاقة جملة.. أيها الخونة» عن السنوات الأربع في الحرب الدامية. لأننا، كما يدّعون، قد حاربنا ضدهم بسلاح المحتل. هي تهمة ساذجة جداً وطفلية: وكأنه في خضم الحرب يجب النظر إلى نوعية السلاح الذي تحارب به، وليس للسبب الذي أجبرك بالقوة على تقبل تلك الأسلحة، ولماذا تحارب أصلاً».

«ولماذا كنتم تحاربون؟»

«حينما بدأ الثوار الشيوعيون، خصوصاً في دولينسكا، وبشكل ممنهج، من ليلة إلى أخرى، تعذيب القساوسة، والرهبان، والرجالات الكاثوليكيين المثاليين والنساء وإهانتهم بقصد تحطيم كل إمكانية مقاومة للنظام القادم، منذ البداية، ابتدأ الشباب في القرى يحاربون بالأسلحة المخبأة منذ سقوط يوغسلافيا. بعضهم اختبأ في الغابة، وآخرون توسلوا حكومة مسلحة لحمايتهم - أقصد الجيش الإيطالي. وأسألك من كان يمكنهم توسله للحماية؟».

«من الصعب جداً على الأجيال الحالية، بل وعلينا نحن الأقدم قليلاً، أن يدخل في رؤوسنا أن الدفاع عن شعبنا وأرضنا ممكن ببنادق غريبة وقنابل. ولعلك تذكر أن غيرنا فعل ذلك، هناك في الجنوب: جماعة لويتتش! ودراجا ميخايلوفيتش! ودراجا بافيليتش، الذين كذبوا على حكومة لندن مدعين أنهم يحاربون ضد المحتل - أي ضدّ الألمان...».

«يبدو أنك لا تعرف حقيقة تاريخنا... إن أكبر أكذوبة هي الاعتقاد أن «of»[1] كانت السباقة لمحاربة المحتل. وحينما استسلمت يوغسلافيا فإن جزءاً من جيشها لم يفعل ذلك. ولا تصدق أن الجنرال دراجا ميخايلوفيتش قائد الجيش قد هُزم أبداً. لقد احتفظ بالسلاح واستمر يحارب به المحتل.

لكن الأوضاع كانت صعبة جداً ومخيفة مما جعله يقرر ممارسة نوع آخر من المقاومة. على طريقة الفدائيين. لهذا برز توجهان في الحرب ضدّ المحتل: طريقة تيتو[2] المزاجية التي دعت إلى الحرب دون أي تلكؤ، وما كانت في حقيقتها إلا الاستغلال السيئ للاحتلال، بصفته اللحظة المثالية، والوحيدة الممكنة، لقيام الثورة التي تقودهم إلى السلطة. والطريقة اللندنية التي أوصت بضبط النفس والهدوء كي لا يتعرض الشعب إلى المهالك. وكما فعلت شعوب أخرى محتلة أيضاً وأصدرت التعليمات بضرورة المقاومة السلبية، ألا يمكننا الاقتداء بذلك؟..»

«ما دمنا نبحث في التاريخ، أجبني: هل نجحت في التاريخ، وفي أي مكان على هذه الكرة الأرضية، كما تقولون، مقاومة من دون سلاح. أية مقاومة هذه؟».

«أعلم أنه لا يوجد شيء كهذا... ولم يتمكن المواطن السلوفيني الشريف أن ينتقي: هل يجب أن يقف مع الممانعة، السد المقاوم، وكيف ذلك؟ لقد منع المحتل حمل السلاح مهدداً بعقوبة الموت..».

---

١ - جبهة التحرير بقيادة تيتو. - المترجم -

٢ - الجنرال يوسيب بروز تيتو قائد الثورة وموحد دول يوغسلافيا في فيدرالية. انفصلت عن بعضها بعد موته. وقيام الربيع الأوروبي. - المترجم -

«إذا لم تخني الذاكرة فإن ما ذكرتموه الآن هو مقاطع من جريدة «ألبا دي لا ليبرتاد سلوفينيا».

«وهل المهم من أين هو؟ كل ذلك الآن هو لي، لنا، قدرنا!».

«هل تعلم أن جميع أطفال يوغسلافيا، خصوصاً أطفال سلوفينيا، ينعتونكم بالخونة الجبناء. ما هو تأثير ذلك عليكم، كيف يبدو؟..».

ما زال الرجل الذي نعت نفسه بالمخلوق النازح المهاجر يقف على قدميه. عنقه ملتو، غير واثق. محاجر عينيه مليئة بالرطوبة، دموع أم عرق؟. لا أعلم وليس مهماً، المهم أن يتحمل ويجيب على السؤال الذي، أعترف، أنني لم أسأله لأي من المغامرين السياسيين الآخرين. كان الرجل يقلّب ما جاء في أعمدة الصحف في رأسه، بطريقة تدعو للغرابة، كي يجد نصاً غير مناسب، لا أعرفه أنا!.

«هل يمكنك أيها الرجل الشاب الباحث عن الحقيقة أن تخبرني ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكاننا آنذاك؟ هل كنت ستدافع عن أرواح عائلتك وأنت تقاوم الشيوعية؟ من هو الخائن؟ أهي الضحية البريئة أم القاتل؟ لقد أسسنا في تلك الظروف أول حراسة قروية في ١٧ يونيو ١٩٤٢. بصفة دفاعية محضة عند قبر المبجل يوشتا. ولم تكن مقاومتنا للصلف الشيوعي مجرد مقاومة أخلاقية مسموحة، بل وأكثر من ذلك: لقد كان ذلك بأمر الوصية الإلهية الخامسة...».

«أية وصية هذه يا محدثي؟».

«الخامسة، قلت لك!».

«وما الذي تقوله الوصية الخامسة أيها السلوفيني؟».

وكأن كل محطة كاري ديلا إيست اللعينة الشرقية قد انهارت في محاجر عيني ذلك النازح المهاجر الذي كنت أستنطقه. وأخذت تلك الحفر الهادئة على وجهه تتجعد في اللحظة ذاتها وارتجف كتفاه، وتقلصت راحتاه على تلك الوريقات بتشنج. كان يبكي. لم يكن ذلك بكاء، بل سيل من الدموع النازحة المهاجرة.

واختفى في الزحام، في مجموعة الأرمن الذين كانوا يدفعون بالات السجاد الشرقي على العربات والأطفال ذوي الرموش الطويلة...

كيف تقول للخائن إنه ليس خائناً؟ طردوه دون أن يعلموا مدى اهتمامه «بأشياء مقدسة» الحقيقة الموازية...

أقف أمام براكة «الصحافة الدولية» في ميونخ. وأشاهد من فوق كتفي محدثي المشرعين طريقاً عريضاً وعميقاً. الذي - إذا اعتمدنا الصحافة اليوغسلافية النظامية - تباع فيه عشرون صحيفة ومجلة ووريقات مخصصة للعالم الموازي، عالم المهاجرين النازحين. يكاد الإنسان أن لا يصدق!.

ولا تعلم المحطة اللعينة الشرقية أنني ألاحق محدثي من باريس. ولم يكن هو يفترض أصلاً أنني أراقبه منذ أكثر من ساعة كيف يتقدم من بعض الرجال، واضح أنهم يوغسلافيون، وكيف حاول بدء الحوار معهم. لم يرغب أحد بذلك. ظنوا أنه يستوقفهم من أجل المال، لهذا أشاحوا بأيديهم قائلين إنهم لا يملكون قرشاً واحداً. أية مفارقة!! ويبدأ محدثي البحث عن ضحايا جدد بعينين ملتهبتين مجنونتين، يراقب صحف النازحين اللاجئين، مقترباً من الرفوف يقرأ المقدمات. طردوه. لم تعرف البائعات أن هذا اليوغسلافي السابق يحفظ غيباً. مفارقة أخرى، تاريخية هذه المرة.

كان وجه محدثي ملتهباً، أخضر. شفتاه شريرتان حادتان. وعيناه أوسع مما كانتاه سابقاً. كان - مثل المرة الماضية - يحمل حقيبة ثقيلة ملوثة بالدهن والدبق، وفي الحقيبة - كنت واثقاً - موسوعة متكاملة عن المهاجرين النازحين. حقيقة موازية. كما قال أحد المنظرين الخونة المنشقين..

أنظر إليه دون أدنى كراهية، بل بعطف الكاتب، الذي منذ أن ابتدأ يؤلف، وهو يكتب عن البشر السلبيين. عن الناس الضائعين والتعساء، مخلوقات جديرة بالأدب والتحليل. وأتساءل وأنا أشاهد السلوفيني يقترب بكل احترام من بعض اليوغسلاف، بل وبطريقة رجل يخاف الإله، الذين يمكن الحكم عليهم من خلال صحفهم أنهم مكدونيون، عارضاً عليهم من خلال الحديث، وتكرار المقاطع المحفوظة شعراً، شيئاً من حقيقته، بصفته رجل الفيلق الأبيض سابقاً. وأتساءل: كم من هؤلاء التعساء يتسكعون في عالمنا الكافر فاقد الروح هذا؟ فاقد الروح - أكرر - فاقد الروح والمتوحش، فعالم اليوم حقيقة ظالم قاس وأناني، دون أدنى تفهم للكثيرين المتهالكين الضائعين، المساقين عنوة، مثل محدثي، الذين يتفسخون ويتعذبون.. ولم يبد أي واحد من أولئك الذين يتدحرج السلوفيني تجاههم أية رغبة «بالحقيقة الوحيدة. الحقيقة الإلهية» الماثلة في الجنرال روبنيك، في العالم روجمان، في بان ناتا لجن...

رجل من شكرينيا السوداء، كتائبي مرتزق.

كيف أقول له إنني أنا الآخر أعرف بعض الأمور عن الماضي القريب لسلوفينيا، خصوصاً عن الفترة ١٩٤١ - ١٩٤٥. تلك الفترة الوحيدة التي تهمّ نازحي أوروبا ومهاجريها. كيف أقول لمحدثي إنني كنت أمسك بيدي هاتين كتاب «فرانك سيتا» «الفيلقة البيضاء»، الكتاب الذهبي، الجامع، الأشرف. السفر الذي لا يمكن من دونه أي فعل، أية كتابة، أي تأريخ، أو أفكار، أو حركات، على أرض سلوفينيا. كيف أقول لمحدثي بأنني أصدق الوقائع أكثر، والوثائق الواردة في هذا السفر العظيم «الفيلقة البيضاء» أكثر من جميع تلك الخزعبلات والندب والتباكي من النازحين اللاجئين، والأفعال الفاسدة. وليس ما أريده تحقير محدثي أو طرده بالطبع. كان الحوار معه ضرورياً بالنسبة لي، من أجل الكتاب بالطبع، الكتاب المستقبلي عن فقراء يوغسلافيا، أولئك الذين فقدوا بيوتهم، وفقدوا أرضهم، المساكين، المعدمين.. الذين حرفتهم وجندتهم الدعاية والمجرمين الإيديولوجيين، شذاذ الآفاق، ممثلي ما يسمى «الأفكار العالمية»، الفاشست، وذوي المعاطف السوداء من جميع الأشكال الماثلة!. كيف أقول لمحدثي إن «فرانجك ساي» هو الأفضل. هناك حيث يمكن استعمال المصطلح «الفاشية الكيلرية»[1] الكتاب الذي أكتب عنه، والذي وجدت في طياته أفضل تعريف واستعمال للفاشية الكيلرية» المطبوع في الخمسينيات. هذا المصطلح كما تهيأ لي صار

---

١ - فاشية رجال الدين. - المترجم -

مفقوداً من تاريخنا. ويعود للتداول اليوم مع بزوغ مصطلح الفاشية الجديدة على المسرح، وعلى الطاولات، وفي المخادع، في كل مكان، ما داموا يفردون له كل هذه المساحات في الأحاديث والكتابات، وكل هذا الاهتمام. إن مصطلح «الفيلقة البيضاء» والفاشية الكيلرية، والفاشيين الكيلريين يبرزون اليوم من جديد بشكل دام وواسع صاخب.

إن أكبر جزء من الإرهاب ضد يوغسلافيا هو هذا الشكل الفاشي الكيلري. لكن هل استوعب محدثي كل ذلك.

وآخرون يملكون المقاطع... وأية مقاطع!

ما الذي يعرفه محدثي عن الشبكات، وكيف؟. عن الأقنية السرية، عن المنظمات، عن كتائب المرتزقة، التي كان توجهها ضد حياة الفقراء السلوفينيين الشرفاء المحترمين، التي كان محدثي نفسه، المهاجر النازح، حامل الحقيبة السوداء، قد انبثق منها؟.

المشروع الكاثوليكي - منظمة ونصف المنظمة -! الكتائب الزرقاء - هم الجتنيك السلوفينيون. الملكيون، الذين أجد في كتاب «الفيلقة البيضاء» أن ضابطهم قتل الجاسوس الإيطالي! والفرقة البيضاء كتائب تعود جذورها وشكلها إلى الفاشية الأكيلرية، التي يخصص لها «إف ساي» ألف صفحة!. ومنظمة MVAC أي الشرطة المخصصة ضد الشيوعية - كتائب نوعية!. واليد السوداء - آ..ه أية كتائب هي، وأي مسمى سخيفاً هو! وسأعرض بعض التفاصيل التي وجدتها في «الفيلقة البيضاء» من «إف ساي»:

«قال الضابط نوفاك إن مجلس القيادة الرئيس في ١٩ سبتمبر ١٩٤٢ أخبره أن مدينة ليوبليانا ما تزال تحلم أحلام الرجل العادل... ريس «عمله قس. ملاحظة F-S» الذي يبدي رغبة جيدة، ويبذل جهداً كبيراً، كي يقنع جماعته في طابور سكول... بأنه من الضروري أن يزرع الخوف في ليوبليانا. وبدون ذلك لن تتعافى تلك المدينة. ولن يكون السلاح متاحاً إلا لأفراد الفرع التنفيذي. وبناء على الاتفاق والمحادثات سيكون لهم هويات عليها صورة، ولصاحبها حقوق... أن يسجن الناس ليل نهار، وحق القبض، والمحاكمة، وتنفيذ الأحكام، وتفتيش البيوت، ولهم سجونهم الخاصة. وقد

نقل الضابط طوني خفيف الدم فوراً الرسالة إلى قيادة ميخايلوفيتش في سلوفينيا. وقد وافق الضابط نوفاك على أعمال بترين وأوصى أن يكون في ليوبليانا كتائب نظامية وليس سرية فقط. هكذا جاء الضابطان نوفاك وطوني خفيف الدم إلى تصور مشترك بوجوب إيجاد منظمة اليد السوداء للقتل.. وسوف يمارس الشباب القتل والذبح عشوائياً، ولهم الحق بذلك أكثر من الشرطة وأكثر من المجموعات الثلاثية».

هل يعرف محدثي الحقيقة التاريخة لـ«MVAC» كتائب الموت الفظيعة هذه؟ ماذا يعرف عن فصائل الهجوم الإيطالية، خصوصاً أولئك التابعين لذوي القمصان السوداء، الذين أعدموا من ٢١ أبريل؟.. وحتى هذا اليوم في ناحية بلوك رمياً بالرصاص

٢٥ رجلاً كانوا قد اتهموا بأنهم مجرمون شيوعيون.. وحينما زرت في ١٩ من هذا الشهر قرية كرامبلي تأكدت أن رجال السلطة العسكر قد أحرقوا ثلاثة بيوت.. بالخطأ.. ووجدت هناك الكثير من الفقر والجوع.. الجوع يخور في كل مكان، خصوصاً بين أولئك الذين لا يحصلون على بطاقات التموين.. لقد أحرقوا حتى الآن ١٠٥ بيوت، وزجوا ٧٠ إنساناً في بيوت الإحسان، وطردوا ٣٨٠ حيواناً «١٨٠ خنزيراً و ٢٠٠ ثور» «سأبدأ غداً دورة تعلم الإيطالية... سأبدأ التسجيل في RR. MM، في جيل..» يكتب المسؤول الفاشي كارلو باينكي في ٢٢ أغسطس ١٩٤٢ في تقريره الأسبوعي واصفاً الشرور التي كان الكاهن أنطون هرن عرابها.

يحب محدثي المقاطع المنتقاة وإلقاءها. يعرف كل شيء غيباً. وبينما أكتب أنا هذه المشاهدات السياسية، هذه الأحداث عن اليمينيين السلوفينيين الجنوبيين أمسك بيدي كتاب «الفيلقة البيضاء» من «إف. ساي» الذي يردد

مقاطع من يوميات السلوفينيين من ١٠ أبريل ١٩٤٣. وتنشر الصحيفة حوار مدير تحريرها «كلافجا» مع الدكتور «روجمان» المنظّر اللوبلياني. وعن أي شيء سيتحدثان إن لم يكن عن جبهة الانتقام.

أورد ما يلي بدقة:

يسأل كلافجا كابلان: «أي موقف، بصفتك راعي الكنيسة وحارس الدين والأخلاق، ستتخذه مع OF؟».

«بالنسبة لي لن يكون مهماً أي شيء للسلام سوى ما قاله البابا «بينا» الحادي عشر لحاشيته المقربة عن الكفار الشيوعيين. وما فحواه أن الكاثوليكي لا يمكنه التعامل بتاتاً ونهائياً مع الشيوعية المشركة. وفي جبهة الإنقاذ ثمة شيوعيون لهم كلمة سلام! وليس لهم الفعل والتأثير. والاستنتاج واضح وصريح لكل كاثوليكي...».

كان محدثي واقفاً بقربي. من هو؟ من هذا الذي أشاهده بعين عقلي؟. لقد بعثه الفاشيون الأكليريون بواسطة الشيطان. هذا مؤكد وواضح، إنما كيف نثبت مكانته ومن كان بصحبته من الرجال؟ في أية كتائب مرتزقة؟ أفي كتائب الموت؟ مع أصحاب الأكمام السود؟ في الفرقة الزرقاء أم البيضاء، أم في كلتيهما؟. هل كان مجرد جلاد، أم أنه كان مثل كثيرين غيره مرتزقاً في الكتيبة السلوفينية؟. إذا كان عضواً فيها فقد توجب عليه، مثل غيره، أن يقسم اليمين سراً. الذي ينصّ:

«أنا. فلان الفلاني.. أقسم بالإله القادر على كل شيء أن أكون عضواً مخلصاً للكتيبة السلوفينية من هذا اليوم.. وإلى الأبد، وأهدافها المعروفة بالنسبة لي، أن أحارب باذلاً كل قوتي للخدمة في أطرها، وبناءً على برنامجها

الهادف للحرية والاستقلال للشعب السلوفيني. وأن أنفذ بكل أمانة جميع أوامرها، وتعاليمها، ورسائلها. وأن لا أخون أبداً أسرارها، أو أفشيها، ولا مكان تواجدها، أو عملها، أو أعضائها. وأعلم أن العقاب الإلهي سيكون بانتظاري، والثأر الشعبي، إذا حنثت بهذا القسم. وليكن الإله في عوني!».

كانت الكتيبة السلوفينية الفاشية قليلة العدد، لكنها من أخطر المنظمات المتآمرة بفضل ثأرية أفرادها - يكتب ف. ساي - ويتابع، بينما أشاهد أنا بأفكاري الدفينة محدثي: لقد كونها بالدرجة الأولى أعضاء جمعية العمل الكاثوليكي، وقادة ما يسمى الفصيل الشبابي، وأعضاء الكلير الدينيون في الجمعيات الثقافية، والمنظمات الدينية بإشراف القساوسة وتوجيهاتهم..» ينهي «ف. ساي» بينما أكون أطرح السؤال على نفسي هل محدثي، الرجل الذي يعرف كل شيء غيباً كان هناك؟!.

«قتلتم، قتلتم أخوتكم بالدم، قتلتم الإنسان بالخزعبلات!»

شاءت المصادفات أن ينظر أحدنا في عيني الآخر باللحظة ذاتها. والإنسان الذي لم يقم طويلاً في الغربة، الذي لم يكن على حافة السقوط، لا يعرف الخوف.

ترامقنا وأنا أرتجف، فكيف كان هو؟ احمرّ وجهي، وأحسست بتدفق الدم في عروق رقبتي.

احمرّ هو أيضاً، محدثي، إنما من الداخل، ملء أحشائه النازحة المهاجرة كلها، ومن الخارج كان أخضر. وقد التمع في عينيه شعاع ممزوج بالخوف، أو ما شابه الدخان... ولكي أذكّره بتعارفنا في باريس، سابقاً، وكي لا يرجوني لتلك الدقائق الخمس اللعينة، وكي لا يضطر إلى عرض صحف النازحين اللاجئين أمامي المكتوبة بالأحرف الجرليتسا، ابتدأت بالسؤال الباريسي:

«أي الوصايا هي الوصية الإلهية الخامسة؟ أهي أحبَّ أقرب الناس إليك؟ أم هي لا تسرق..؟»

«لا تقتل. لا تقتل.. يا سيدي!».

لحظتئذ تذكرت كتاب «إف. ساي» «الفيلقة البيضاء». تذكرت بعض جيراني الذين دمرت «الكتائب البيضاء» أغلى ما عندهم. وتذكرت الحكاية حول إحراق بيوت الفقراء في دولينسكا. وتذكرت كتاب «الأورخ المبجل»

ذلك السفر الخيالي، الذي ما تزال وثائقه وصوره ماثلة أمام عيني. وتذكرت كل ما أعرفه عن «OF» أغرب منظمة دفاعية في البلقان وأكثرها جاذبية بالنسبة لي...

«قتلتم، قتلتم إخوتكم بالدم!» قلت وأنا أكتم غضبي وانفعالي عن محدثي. «قتلتم الإنسان القريب! قتلتم ببندقية ثلاثية الطلقات فرنسية بشعة حائزة على جوائز. قتلتم بأسلحة من القمامة! لماذا لم يزودوكم بأسلحة مناسبة محترمة ما دمتم أعضاء هذا الفصيل؟ ذبحتم الأبرياء بسكاكين مثلمة، بالقامات، والفؤوس! قتلتم بالبلطات وجلدتم الناس بالكرابيج، واقتصدتم بالذخيرة! ستذكركم دولينسكا... فكيف يتفق ذلك مع أفضل الوصايا الإلهية؟».

«قتلنا الكفار أعداء المسيح، الشيوعيين!» قال المقطع من كتاب لا يعرفه أحد: «لقد قتلنا أولئك الذين حاولوا حرمان شعبنا السلوفيني من أغلى ما يملك: الإيمان بالإله. حكم الإله الروحي المبجل، الذي لم يكن منذ بدء الخليقة ذنباً حراماً. كان جهاداً، جهاداً عادلاً للوصايا الإلهية، وللقيم العظيمة للشعب المؤمن!».

انتهى المقطع. وتعرق جبين النازح وتجعّد، منتفخ الوجه، أخضر اللون، شفتاه حادتان رقيقتان كما في الرسوم. في يديه الوريقات المكتوبة بأحرف الجرليتسا. وأؤكد أنه كان يعرف غيباً كل ما جاء في الصحيفتين. هل قتلوا هناك أعداء المسيح فقط أم الشعب؟ وكنت قد قرأت مرة، ولم أعد أذكر أين: إن أعداد الذين اقتادوهم إلى الجبل كبيرة، إلى القمة. كانوا ضحايا، طلبوا الوصية الأخيرة. ألم يكونوا أناساً عاديين مؤمنين أبرياء، وليسوا

كفاراً أعداء المسيح.؟ قرأت. صدقوني: لم تكن التعاليم المسيحية الأساسية الرحيمة ماثلة أبداً!».

يتعرق حاجبا محدثي ورموشه.. ولم تكن المقاطع القادمة من البعيد الرهيب، من دفتر أحد النازحين اللاجئين تتوافق أبداً مع هذا الوجه الذي ينقبض في تشنج.

«لقد ذهب الكاهن فرانس فرتس وشماسه غاندي، في جميع الأوقات، حتى ليلاً، إلى مزار «الأورخ المبجل» كي يسمعوا اعترافات الضحايا ويسامحوهم..».

«يا محدثي الكتيبة البيضاء كان لها قناعة في مقولة: جراح المسيحيين الخمسة - سببها الثائر الشيوعي. هذه المقولة أفضل من يتذكرها أولئك المساجين الذين ظلوا على قيد الحياة في دير «الأورخ المبجل»، هل تذكر أنت هذه المقولة؟ ويمكن أنك تعرف من قائلها؟.» «إذا نشبت الحروب لأهداف إلهية، لأهداف مبجلة، فإن الوسائل جميعها مباحة!» يقول المقطع «ولم نصل إلى كل إنسان كي نهديه إلى السبيل القويم...».

«نترك للحظة هذا المسلخ «دير الأورخ المبجل».. ألا تذكر كيف كنتم تدافعون عن الإله في دولينسكا[1]!؟»

---

١ - حيث ذبحوا الناس. - المترجم -

«ألبا دي لابيرتا سلوفينيا»: الظلام والخفافيش الأرجنتينية...

«لن أثير زوابع الماضي. لم أعد أتذكر بشكل صحيح. لكن الدفاع عن الحقيقة ضد أكاذيب الشيوعيين، مهم جداً. ولا يمكن الإجابة ببساطة وسهولة على كل تلك الأكاذيب وطمس الحقائق التي شاعت وبصق عليها العالم وأنكرها. وسوف تلزم آلاف الصفحات للرد على مئات صفحات الأكاذيب والكتب، على شاكلة «الأورخ المبجل» أو «الفيلقة البيضاء» أو «السادة».. وغيرها.».

«إذا لم تخني الذاكرة فإن المقطع من «إل فورتينا» أي من «تابور» بونس آيرس - الأرجنتين. وإذا لم يكن منها، من «إل فورتينا» فهو حتماً من صحيفة «ألبا دي لا بيرتا سلوفينيا»...

«ومنذ لحظة، أليس كذلك، ذكرتم فكرة، لا أعلم لمن هي، تقول «الحرية هدف كل سلوفيني شريف».. فأي السلوفينيين كانوا برأيكم شرفاء وأيهم لم يكونوا؟ وعن أية حرية يتمّ الحديث، ولمن؟ أهي الحرية لأولئك الذين احتلّهم قرف عضوي من المحتل أم الحرية «للكو لا بيراستي»[1] من جميع الأصناف والألوان؟».

ولا يرفّ جفن محدثي حينما يتكلم. كان يشبه ممثلاً قروياً، ذلك الذي يقف منتصباً ويردد النص. النص الغريب الذي لا يفهمه بشكل جيد، لهذا تراه يلفظه كأنه خارج من بندقية، دون فواصل واستراحات، يفهمه بطريقته فقط، مثل إبرة واخزة، ومثل هذا المونولوج موجود في «كليتسا تري كلاف» وفي «سلوفينيا ليبريه».

---

١ - الذين تعاونوا إبان الحرب مع المحتل المستعمر. - المترجم -

«تقبيل المسيح» إنما كيف؟ هل بالقتل؟!

«لقد أثبت قساوستنا أنهم مؤمنون، مطيعون للآباء المبجلين، ما عدا حفنة منهم ليسوا، بالمصادفة، هكذا. لقد اتبع قساوستنا بوعي تعاليم الآباء. لهذا اعتبرهم الشيوعيون فاشيين. لقد قاوم معظم شعبنا الكاثوليكي الدعاية المغرضة للشيوعيين. وذلك بفضل الصحافة الكاثوليكية والارتباط الوثيق بالكنيسة.

فالشيوعية بالنسبة لنا ليست مجرد حزب سياسي، بل الشر المجسد. المسألة مسألة ضمير. وبما أننا قررنا أن نتبع ما تمليه علينا ضمائرنا، أن نقبّل المسيح، وكنيسته، ونؤمن بأوطاننا، فقد أشاروا إلينا بصفتنا أعداء الشعب، ووشمونا بخاتم الفاشية والخيانة. لهذا وقفنا في خانة الذين يجب أن يتعرضوا للعذاب والسحق... وعلى الصفحات الأولى للصحف الشيوعية، صحف الموت، عرضت صور عائلات كاثوليكية محترمة. لم يذبحوا سوى قلة - عدة مئات من الناس، وأضحى المئات صيداً دامياً للقتلة الشيوعيين... كنا أعداء الشيوعية وضد قياداتها وجيشها منذ البداية. ولم نرَ في الشيوعية سوى الشر. ولم نجرؤ، بصفتنا كاثوليكيين، أن نتعامل مع هذا الطاعون الأحمر...» يتبع ذلك فترة صمت، بعد أن ردد محدثي تلك الأهزوجة. يستنشق الهواء، ويقدم لي وريقات اللاجئين النازحين المكتوبة بحروف جرليتسا. آخذها، عندئذ يمسح العرق عن جبينه المجنون، عن شفتيه الفاقدتين للدم، عن عنقه. أنتظر كي يهدأ، أن يستقيم، ثم أسأله:

«نبدو كلانا وكأننا لا نستطيع الخروج من هذه الحرب العالمية الثانية المشؤومة. أرجوكم أن تنهوا النص الذي بدأتموه، ذلك النص الذي فسرتم به دوركم في «الحرب المقدسة، المصيرية، الهامة»... ولا أعلم بماذا أصفها أيضاً.. لقد توقفتم عند «كنت مقذوفاً...»

«صحيح! كنت ملفوظاً في منتصف الثورة. شاهدت فظائع شيطانية. عذاباً وموتاً. لهذا أجدني مضطراً للقول: لقد ذقت جحيم الشيوعية..! ومن الناحية المبدئية لا أقرأ وريقات الشيوعيين وصحفهم المشؤومة. لكن الكثيرين لفتوا انتباهي لأكاذيب المدعو فيدو. لهذا قرأت بعض الفصول من باب الفضول حول «آثار الأيادي السوداء». وكانت تنقص هذا «الرفيق» فيليتش، في عمله النقدي، إثباتات واضحة ملموسة. ولم ينقصه أبداً، ولم يكن مفتقراً أبداً للشهود. ولهذا يقرأ ما يقرأ مثل حكاية أطفال تتجلى فيها أراضي الأبطال، والقتلة أصحاب الأكمام السوداء. ومن الواضح جداً والجلي الكراهية الجهنمية للديانة والكهنوت الديني. لهذا من الطبيعي والعقلاني عرض الكهنة، «الملوثين بالشر» بصفتهم سالبي الإيمان من الجماهير. هكذا يلغمون الدين والكنيسة. وهذا حتماً أحد الأسباب الرئيسة لتلك الكتابات...».

كو - كلوكس - كلان[1] منظمة رائعة

تمشينا في صالات محطة قطار ميونخ. رغبت إتعاب محدثي. سألته هل كان في الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، الأرجنتين. قال شيئاً، وكأنه لم يقل نعم. ولم يقل لا. سألته هل يجمع التبرعات أسوة بغيره من النازحين اللاجئين على شاكلته. قال شيئاً كأنه يشبه النفي. سألته هل يعرف أن بعض النازحين اللاجئين اليوغسلاف، الصربيين حصراً هم أعضاء في منظمة التمييز العنصري الأمريكية «كو - كلوكس - كلان». قال بأنه لا يعرف. لكن جميع النازحين اللاجئين من يوغسلافيا، والبلقان، وكل أوروبا الشرقية، سيتبعون الصرب إن كان ذلك حقيقة. وتقع على عاتق اللاجئين النازحين الأوروبيين وشرفهم مهمة صعبة: أن يُفهموا الغرب، خصوصاً الأمريكيين، حقيقة الشيوعية وتحطيم الأخلاق والمثل الذي يسايرهم أينما حلوا أو ارتحلوا. وبهذا فقد كان محدثي من أشد المعجبين بالمنظمة السرية كو - كلوكس - كلان!. واستعمل تعابير غريبة في تفسير ذلك الإعجاب بمثل تلك المنظمات، لم تكن من تعابيره. لكنني كنت أقفز من موضوع إلى موضوع آخر كي أخفف عنه وأشعره بالفرح، وأهيئه للقسم الثاني من المقابلة الصحفية. وكنا نشرب ما قد بدأنا نشربه في باريس، شرابهم الألماني «ردنكس»...

«أنا على يقين من أنكم ما زلتم تذكرون «توريك» والأوكار الأخرى يوم الأول من سبتمبر ١٩٤٣. هل كنتم في «توريك؟».

---

١ - منظمة أمريكية سرية من البيض تقتل السود وتحرق منازلهم. - المترجم -

«أجل. كنت... وما أزال هناك حتى الآن! توريك اللعين.. لقد حاربنا لمدة أسبوع في القلعة. وقد انسحب الثوار، بفضل الخيانة، إلى القلعة الخربة المحروقة، وقتلوا ٣٥ جريحاً من أعداء الشيوعية، وأوثقوا بالأسلاك الشائكة ٦٥٠ أمام القلعة، واقتادوهم إلى لاتسو الكبير. واقتادوا مئتي شاب ورجل إلى كتيبة العمل قرب كوجوفو. ولقد ثبت موت ٣٢٩ من أصل ٧٥٨ ضحية المقتادين إلى ريبنيتسا وكوجوفو.. ولقد ادعى الشيوعيون قيام عمليات سيئة السمعة، وحكموا على قادة الإضراب ضدهم بالموت..».

«لن يكون الأمر هكذا بالضبط. لقد حكموا، وأنا مطلع على ذلك بشكل جيد، بالدرجة الأولى على مجرمي الحرب في أوروبا حينئذ. على الأشد قسوة وصلفاً من صفوف الكتيبة الزرقاء والكتيبة البيضاء. وعلى بعض أفراد منظمات عملت ضد الشعب، الذين كانوا جميعاً في خدمة المحتل وتسلحوا عن طريقه. وأطلقوا سراح كل من وقّع إخطاراً بأنه لن يحارب ضد شعبه أو يقتله، من كوجوفو».

«كان هذا تكتيكاً شيوعياً! فالكفار لم يجرؤوا على الرحمة. لهذا حاربناهم في توريك. باسم الملك المسيح عيسى، والدين، والوطن. ولهذا كان المؤمنون شجعاناً جداً، أفضل من رجال الدين، هذا مثبت.».

«الحرب من أجل الحرية. سلوفينيا المسيحية...»

«يمنع الدين المسيحي الكذب؟. لقد اعترف العديد من القساوسة ورجال الدين الآخرين، وأثبتوا، أنهم حاربوا ضد شعبهم، ومن ثم خانوه. هذا ما تثبته الوثائق: الوثائق الموجودة عند «مدافعي الوطن» السلوفينيين!».

«هذه حقيقة. لقد تسلح الثوار الشيوعيون بأسلحة وذخائر حربية إيطالية. وابتدأت قوات الحلفاء الغربيين تساعدهم. لهذا لم يكن عجباً أبداً أن يضع قادتنا الروحيون المبجلون، المؤمنين الكاثوليكيين السلوفاكيين في صفوف المدافعين. في ذلك الوقت وبعد سقوط إيطاليا ظهرت ما سميت حينئذٍ «اليد السوداء». ظهرت خارج أطر وحدات الحماية الذاتية.. وكان دير «الأورخ المبجّل» مكان إقامتهم. ولا بد من ذكر ثلاثة أشياء: إن دير الأورخ المبجل، واليد السوداء، ليسا جزءاً من معسكر الكاثوليك أو طابورهم، وليسوا أبداً من الكنيسة السلوفينية..»

«إذاً كيف تواجد في الأورخ المبجل رجل الدين بيتر كريجاي؟ لقد اعترف بذلك صوتاً وصورة، وبوضوح وكبرياء شديد أمام المحكمة بعد انتهاء حرب التحرير.».

«في كل حنطة يوجد زيوان».

«أحقيقة أنكم تفكرون هكذا؟».

«بالتأكيد!» لقد حاربنا ولا نزال نحارب فقط من أجل الحرية. من أجل سلوفينيا المسيحية. ضد الشيوعية. ضد الكفار أعداء المسيح، الذين أرادوا، ونجحوا بفضل الخيانة، أن يحطموا بيوتنا وملاذنا..».

«ومن الذي خانكم؟».

كيف يوجد تفسير للهزيمة. كلّ خطّاء ذاته.
بالنسبة للبعض
المذنب الرئيس هو أدولف هتلر «دولفي» لأنه خسر...

لا يوجد سؤال أصعب من الذي طرحته على محدثي!. هو السؤال الذي طرحته على آخرين أيضاً، حينما كانت تتاح لي فرصة حوار، أو تصوير تلفزيوني، أو مناقشة. سؤال أطرحه على المهزومين، أولئك الذين بخسارة الحرب العالمية الثانية أضاعوا كل ما كانوا يملكون...

سمعت أجوبة غريبة. إذ يعيد الإيطاليون المهزومون، أصحاب القمصان السود، واليوم هم الفاشيست، سبب الهزيمة في ١٩٤٣، وما زالوا مصرّين حتى اليوم، إلى الوحدات النظامية، التي لم تدرك حجم العبقرية وعمق الالتماع الموسوليني، والأفكار الفاشية بشكل عام. أفكار الحركة الجديدة. «نوفو أورديني». وما زالت البحرية الإيطالية والطيران، آنذاك، حتى اليوم، تضع أسباب الهزيمة في عنق المشاة، «فانتريا»، والغباريين، ويسوقون الأدلة والشواهد. بينما يعيد المشاة والغباريون أسباب الهزيمة إلى أولئك الذين استمروا بحرب عبثية: أولئك الذين استسلموا ووقعوا صكوك الهزيمة في ٩/ ١١/ ١٩٤٣، وليس قبل ذلك بعدة أيام!.

وما أزال أذكر، بكل حيوية، الحوار مع شخص اسمه فرانكو، ألماني شعبي، أصله من بانات[1]، واليوم متقاعد في شتوتغارت. كان عضواً في كتيبة «الأمير أوجين» سيئة السمعة، كتيبة الانتقام والعقاب، لمدة أربعة أعوام

---

١ - قرية يوغسلافية. - المترجم -

كاملة، الذي تسلل حتى وصل إلى رتبة «مساعد آمر»، وهو يفتخر بجراحه التي أصابته في البوسنا. وما زال فرانس هذا يتباكى حتى يومنا هذا على كتيبته، ولا يعيد أسباب انهيارها على قيادة الرايخ الثالث، بل على «الأمير أوجين» والكتائب المشابهة لها مثل «الخنجر»، كتيبة المسلمين التطوعية مع «SS»، التي تصور وهو يعتمر طربوشها، مرتين وليس مرة واحدة، صوراً مخصصة للرأي العام، ورئيس دولة كرواتيا المستقلة أنته د. بافليتش.

بينما يضع كتبة العجالات، والتصريحات، والخطابات المنشورة في الصحف بالأحرف الجرليتسا، الفاشيست الصرب قبل الحرب، رجال لويتتش، أسباب الهزيمة في عنق الجتنيك الذين لم يكونوا يعون مدى عظمة الأفكارا لهتلرية ونظرتها المستقبلية، حول الولادة الجديدة، ليس لأوروبا وحدها، بل للكرة الأرضية برمّتها. ويؤكدون أن جيش الجتنيك لم يستطع أن يحارب جيش الثوار، وأن الحرب المقدسة خلال أربع سنوات قادها رجال لوجيتش، ولينو فيتش، والدمويون.. لهذا كان طبيعياً أن ينحرف هذا الشعب الصربي «المعذب المسكين، بصفته ضحية إنجيلية، إلى الجهة الخطأ، جهة اليسار»... والتي لا يمكن أن يعيده عنها إلا الإله المسيحي الأرثوذوكسي، والدين القويم، ويسوقه إلى العائلة، إلى الحرية، تلك العائلة التي اجتثتها وقتلتها الاشتراكية - كما يكتبون - «ولهذا لا يجرؤ أحد في البلقان على غناء الأغاني الشعبية الصربية..». إن اتهامات الجتنيك مشابهة جداً لاتهامات محدثي، أقصد مقاطعه الحرفية، محدثي الذي لا أفهم لماذا لا يدسّ تلك الوريقات المكتوبة بأحرف الجرليتسا في الحقيبة من الجلد الصناعي الرخيص.. إن كتبة العواميد في الصحف الأوستاشية، الصحف ذات التوجهات الجائرة الفاشية التي لا مثيل لها في العالم يعيدون سقوط الرايخ الثالث وهزيمته إلى الإيطاليين الذين استسلموا ١٩٤٣، بل وعلى الأمريكيين والروس الذين كانوا يهاجمون برلين المقدسة مثل المصابين بمرض الصرع. بل

ويلصقون أسباب الهزيمة على رأس مثالهم الأعلى أدولف هتلر، الذي انتحر.. هل صحيح ذلك؟! ويؤكد الأوستاشي أنهم كانوا إلى جانبه دائماً، وأنهم صلّوا متوسلين إلى أم المسيح داخل المخبأ تحت الأرض، تلك الوحيدة، كما يؤكدون ويكتبون دائماً وأبداً، الشفيعة، المساعدة على الخلاص من القتل والانتحار بصورة عامة. وبعونهم فإن حبيبنا «دولفي»، رجلنا المكرم النمساوي[1] الذي لا ينسى، ولا يمكن تجاوز اسمه، «قد قرر مسح برلين وألمانيا المهدمة ونقلهما إلى أمريكا الجنوبية، في الأرجنتين، والبيرو، والأورغواي، والباراغواي، وأن يتحد هناك مع مارتين بورمان، مع ما تبقى من «رجال النخبة» العائشة هناك حرة وبعيدة عن مخاطر الشيوعية... وإبطال الادعاءات حول تلك الحرب الخاسرة، المقدسة، المسماة زوراً وبهتاناً العالمية الثانية، حول الأخطار، حول الخيانات... حول التسوية المشينة في نهاية الأمر!» ولو أن هتلر كان محاطاً بالأوستاشي، وليس بالخونة الألمان، الذين حاولوا اغتياله هو وغاليته ومخلصته المستقبلية.. من الشيوعيين طبعاً. لو أن الأوستاشي كانوا حماته ومرافقيه وغوريلياته لكان نجا مثل أنته د. بافليتش، وروما العظيمة، والقس المبجل دراكانيتش، ولكان بدأ من دول الموز، والأندي العليا، حربه المقدسة الساطعة ضد اللون الأحمر، الذي ينتشر من لندن، وموسكو، وواشنطن، ليعبر متفوقاً يغطي اللون الأسود ويمحي أنواره الخالدة.. «ويلوم الأوستاشيون اليابانيين، آه... لو أنهم لم يستسلموا، لو لم يهن عودهم بسرعة، لكانوا وصلوا لمساعدته، ومساعدة رجال بافيليتش وغيرهم من الأحرار «لكنهم كما شاهدتم ركعوا على ركبهم، وازداد اصفرار بشرتهم، وكل هذا من أجل هيروشيما النكرة المُبال عليها... ولكانوا أخذوا رأينا على كل حال...».

---

١ - أدولف هتلر. - المترجم -

من اشترى من؟ من هم ضحايا السياسة الدولية؟ «ومن هم الذين خانوكم؟»

لا يوجد أصعب من هذا السؤال. فالنازح المهاجر الذي لا أعرف عنه شيئاً، وأعرف عنه كل شيء. الإنسان الذي تشابكت عليه السبل والمواجد، البائس، الراغب، بخطاه المتعثرة وتقلب الأزمنة، أن يشاهد نفسه في التاريخ. وبدل أن يجيب أن العقل هو الذي خانهم، والحسابات الخاطئة، تراه يقبض أصابعه في تشنج على الوريقات من العالم الموازي، ويهمر فجأة متمتماً الحرف إثر الحرف، والكلمة إثر الكلمة.. «لقد تمت خيانتنا...».

«ومن تتهمون أكثر؟» أسأله منتظراً ترديد موجات من المقاطع المعروفة، حقن تخدير النازحين المهاجرين، خزعبلات التاريخ.

«نحن شباب سلوفينيا الكاثوليكيون، نحن الجنود الطوعيون ضد الشيوعية، خضنا تحت إمرة الجنرال ليون روبنيك المعركة الدموية ضد جبهة التحرير.. في منتصف فبراير ١٩٤٥. وسمعنا الأحاديث حول الاتفاق المبرم في يالطا[1]. ولكم بدا هذا عظيماً حتى أننا لم نصدق. ظننا أنه فخ شيوعي جديد.. قالوا إن روزفلت وتشرشل هجرا ستالين. وإذا كان اتفاق يالطا حقيقة مؤكدة، فأي ثمن كان لوثيقة الأطلسي التي أعلنها تشرشل وروزفلت في ١٤ أغسطس ١٩٤٥، للشعوب؟ لقد.. خ.. ا.. ن.. و.. ن.. ا.. وفي أول سبت من شهر «مايو»، ٥ مايو ١٩٤٥ أصبحنا واعين للحقيقة

---

١ - اجتماع قادة الحلفاء: أمريكا، بريطانيا، وروسيا: روزفلت. تشرشل. ستالين. - المترجم -

الفظيعة الماحقة: لقد أغمد حلفاؤنا الغربيون السكين في ظهورنا! هذه هي الحقيقة الباردة.

كانت صفقة التجارة الأشد عيباً في تاريخ الجنس البشري... ولم يتبق أمامنا سوى إمكانيتين: إما أن نبقى في بيوتنا وننتظر رواتب «المطرقة والمنجل»[1]. أو نهجر كل شيء، بما في ذلك سلوفينيا الحبيبة، ونذهب إلى المهاجر الغريبة غير الموثوقة.. إذاً نحن الشباب السلوفيني الكاثوليكي أصبحنا الشياطين بالنسبة لحلفائنا الغربيين الملعونين».

«لم أفهم كل شيء. أعترف. ولدي انطباع أن عدد الذين خانوكم يكبر ويتسع أثناء حديثنا أليس كذلك؟».

«هكذا أصبحنا ضحايا السياسة الدولية، نحن الذين ضد الشيوعية، ومع الحلفاء الغربيين، الذين حملنا السلاح من أجل الدفاع عن أنفسنا ضد المحتل وكنا مخلصين لحلفائنا الغربيين جداً طيلة الوقت وانتظرنا بفارغ الصبر أن ننصهر بهم».

«مهما يكن.. هذا ما تتحفنا به صحفكم الصادرة أيام الحرب، وبعد الحرب، واليوم: لقد سارعتم إلى تلقف السلاح الألماني، وحاربتم ضد شعبكم».

«الشعب؟! شعبنا؟!. ليس صحيحاً، ولن يكون أبداً. لقد حاربنا ضد المشركين فقط، أعداء المسيح، الشيوعيين! كنا حماة الوطن السلوفينيين فقط ولا غير! ولقد احتجّ «حماة الوطن» السلوفينيون مرات لا تعد ولا تحصى

---

١ - شعار الشيوعيين. - المترجم -

ضد تهجير الناس من قراها.. لقد حمينا كل ما حاول الشيوعيون تحطيمه: الوطن والدين! هل كان بين حماة الوطن من ملأ جيوبه بالمال؟ لن يستطيع أحد أبداً إثبات ذلك. فماذا فعل الشيوعيون؟!».

كانت جميع الدلائل تشير إلى انتهاء حوارنا. أسأل هل يمكن أن يتحمل قلب النازح المهاجر أكثر من ذلك؟ كان محدثي يرتجف بصمت. ولكم وددت لو أسأله من أين يستقي تلك المقاطع ليرددها بكل انضباط، وكيف وصل إلى مسألة «تعبئة الجيوب؟»، ما دام الحديث كان يدور حول الخيانة على أصعدة عدة، عن الفعل الشنيع الذي لا يمكن تبريره أبداً، الفعل الذي لن يغفره التاريخ. وفجأة يبدأ محدثي الحديث عن العمى، عمى شعوب أوروبا، ويوغسلافيا بل وسلوفينيا، كي لا ينتهي حوارنا قبل وقته. كي لا نصل إلى النهاية، أوافق أن التاريخ البشري هو تاريخ العمى، وأكثر العميان تواجدوا في الفترة من ١٩٤١ - ١٩٤٥..»[1].

١ - فترة الحرب العالمية الثانية. - المترجم -

«لا يمكننا أبداً الاستهانة بقوة الشر!»
هذا ما قاله الأب بيا الحادي عشر في الصفحة ٧٩ من كتابه، الذي يتبناه محدثي.. «النار والماء!».

لم استطع مجرد الافتراض أنني سوف أستعرض تاريخ البابوية وأنا أسير في ردهات محطة ميونخ مع محدثي اليوغسلافي السابق من سلوفينيا. وأن اضطر إلى سماع من وكيف كان معلّم الأخلاق الحقيقي لهذه البشرية، ما دام هناك غباء وعمى وخصام، حتى لم تتمكن اليد الرومانية البابوية من الحفاظ على عالم روحانيّ. ولو أن البشرية اتبعت المعلمين العظماء النابهين الذين لا يخطئون من روما، لم يكن ليوجد على ظهر الكرة الأرضية كل هذه الأعداد من المحتجين البروتستانت، والأرثوذوكسيين، واليهود، وما يسمونهم شهود يهوه، والمحمديين المسلمين، والسود!. وحينما ذكر السود ارتسم القرف على وجهه، فتذكرت وبكل حيوية، العنصريين الصرب من شيكاغو، الذين يعيبون على البيض جميعاً، الأمريكيين خصوصاً عدم انتسابهم إلى منظمة كو - كلوكس - كلان. كي يحلّوا هذه المشكلة العويصة المقبضّة. لكننا ابتدأنا حول البابوية...

لقد أحب محدثي، واحترم، حكم جيل البابا بيا، أكثر من جميع الأجيال التي حكمت البابوية. وسحب من تحت معطف النازح المهترئ كتيباً صغيراً دون أن يرفّ جفنه، وفتح على الصفحة ٣٠ وابتدأ من الأعلى: «لقد أصدر البابا بيا التاسع حكمه الصارم منذ عام ١٨٤٦ «ويتكرر المقطع من المقطع..» ضد العلوم المعيبة المسماة الشيوعية، التي هي ضد كل قانون

إنساني. التي إذا أخذنا بها، لحطمت كل الممتلكات الخاصة والأراضي والأملاك، لجميع الناس، بل ولحطمت المجتمع ذاته..». لقد أكد البابا بيا التاسع أن الشيوعية بطبيعتها مشركة، ضد الإله!. فالشيوعية والإله هما مثل النار والماء..» ولم يكن في كتيّب النازحين المهاجرين هذا أية كلمة عن الأجيال البابوية من الواحد إلى التسعة. وكم كنت راغباً بمعرفة ذلك! وفتح محدثي الكتيب على الصفحة ٧٩. وقرأ أفكار بيا التاسع «لا يمكننا أبداً الاستهانة بقوة الشر! الشيوعية شر! ولم تكن البشرية شاهداً على شر أبشع من هذا الشر! الشيوعية بطبيعتها شيء سيئ.. ولا يمكن لأي إنسان تائق للحضارة المسيحية أن يتعاون معها تحت أي ظرف..» سألت محدثي عن كتاب خطه واحد اسمه فريلاندر، مؤرخ بيا التاسع والرايخ الثالث، بمجموعات من الوثائق والمعلومات بأعداد غير منظورة حتى الآن، تثبت أن بيا التاسع شاهد بينيتو موسوليني[1] من خلال أصابعه، وأنه احترم أدولف هتلر، واتفق مع طروحاته السياسية العنصرية، التي لم تعتبر حتى السلوفينيين من العرق الآري النظيف[2]. واعتبر بيا التاسع من المهاجرين السلوفينيين المطرودين من مخيمات التعذيب الفظيعة إلى أفران الإعدام بالغاز. لقد ذكرت هذا الكتاب الذي نشر في جميع اللغات الحضارية، بما فيها السلوفينية. وكان الناشر المكتبة الوطنية السلوفينية.. وبالكاد حصلت

---

١ - قائد إيطاليا الفاشية. وأحد زعماء دول المحور: ألمانيا. إيطاليا. اليابان. أثناء الحرب العالمية الثانية مع هتلر. انتصرت عليهم دول الحلفاء. - المترجم -

٢ - صنف هتلر الشعوب إلى فئات. أنقاها وأولها العرق الآري الألماني النظيف. وآخرها السود.

على نسخة من هذا الكتاب المنتشر في العالم كله رغم المقاومة الشرسة من قبل شركة النشر الفرنسية الكاثوليكية الشهيرة «سويل».

أشاح محدثي بيده، وتمتم بصخب كلماته وشتائمه الحارة. وبصعوبة بالغة فهمت: بأن اليهود، والمتهودين! الأمريكيين! الماسونيين! الانكلوساكسونيين! واليهود الأسقريوط! واستعجل الكلام متمتماً ما يشبه: الملعونون... ولم أفهم الكلمة الأخيرة.

وبدأ محدثي النازح يستعرض أفعال الثوار الشيوعيين البشعة، الذين كما بدا لي، قد لاحقوه، فسقط على ذكر جيل بيا، الذي يحبه ويبجله، وهو يريني على الصفحة ٣٧، إنجيله السياسي.. هكذا أمكنني سماعه وهو مغمض العينين وكأنني أقرأ ذلك قراءة «لقد كانت الفصول السابقة البحث النظري، بشكل أكثر أو أقل، للسرطان الأحمر... ولقد كتب البابا بيا التاسع في العام ١٩٣٧ في مقر الناحية عن الشيوعية الكافرة عدوة الإله. لقد حاول الشيوعيون أن يحرفوا الناس، وبطرق مختلفة، إلى أهدافهم الشريرة، وهم يخفون أهدافهم الحقيقية خلف أفكار بدت في كينونتها جيدة وجذابة».

ولم أتوقع أن ينتقل محدثي من بيا التاسع وبيا الحادي عشر، وبسرعة، إلى منظّرنا المطران اللويلياني جورج روجمان، ويردد مقاطع من كتاباته، بينما كانت عيناه مليئتين بالدخان والدموع.

«لقد كان المطران روجمان قائدنا الروحي. كان الشرارة المضيئة في ظلام مأساة شعبنا. كان أول مطران في يوغسلافيا يقف ضد الشيوعيين بكل عنفوان الكنسيين والتلاميذ اليسوعيين، المتعجل إلى إنقاذ رعيته، وبكل شجاعة، من الشيوعيين الذين أخفوا وجوههم الحقيقية الحمراء خلف

OF!. لقد كشف روجمان بموهبة المتنبئ شديد الكشف حقيقة جبهة الإنقاذ، حصان طروادة الشيوعيين، حينما حاولوا التأثير والغش. ولقد أظهر قساوستنا ورجال ديننا، «ما عدا حفنة ضئيلة منهم» الموافقة، وساروا بكل انتباه خلف تعاليمه الأبوية.. «ولم يكن لترديد المقاطع نهاية»، فأقاطعه عند الجملة «لقد لونت الدماء شوارع لوبلياناً، دماء المعذبين المسيحيين.. ولن أنسى ما حييت ذلك الصباح يوم الثلاثاء ٢٦ مايو ١٩٤٢...».

وكم وددت لو أسأله عن «الأورخ المبجل»، لكنني لم أتمكن بسبب شهود يهوه الواصلين من جميع الجهات لحضور اجتماعهم العالمي. ولقد أفسحنا لهم الطريق، وأذكر أن الأغلبية كانت من الهولنديين، واليونانيين، واليوغسلاف...

الشعب يغتصب السلطة
من رجال السلطة الروحية المقدسة!
أية خسارة؟

لكن شهود يهوه هجموا، تزاحموا حول منافذ البيع، رغبوا، كما بدا لي، تأمين بطاقات العودة. كان من بينهم هنود، يابانيون، وعرب. كان المنظمون بافاريين على الأغلب واسكندنافيين. ولم يستطيعوا ضبط الأمور. كان الضيوف بالمئات! لم يكن ينقصهم سوى علم، ورمح، ورايات مختلفة. لم يكن بحوزتهم سوى صحيفتهم «كولوم» التي تصدر بأربعين لغة. وعلى الياقات زهور اصطناعية، كي يلتئم اجتماعهم الأخير الجامع قبل يوم الحشر!.

ولقد هجم شهود يهوه هؤلاء علينا أيضاً نحن الاثنان. ولم يكن توقعهم للمصيبة الكبرى يسيئني. كانت تلك الفكرة قريبة مني تلك الليلة، حتى إنني أخذت النشرة التي عرضوها. وهذا ما حدا بمحدثي إلى الجنون، لأنه لم يعد يستطيع التعبير علناً. كان شهود يهوه يجتمعون في كتل حول المخرج الغاصّ بالحقائب المليئة بقوارب صغيرة، شبيهة بقارب نوح.

في منتصف المحطة وقف أضخم شاهد يهوه رأيته. عملاق، بعينين دمويتين، وجبين ينضح بالعرق، وعنق أحمر. كان يتكلم من ميغافون[1] بيده صائحاً بإحدى اللغات الألمانية، يفور الزبد من فمه، ذاكراً الاجتماع العالمي، الأخير، قبل الطوفان الكبير الماحق، مما يجعل ذلك الكونغرس تاريخياً!.

---

١ - مضخم صوت دون سلك. - المترجم -

كان شهود يهوه يسمعونه. يبكون، ينتحبون وينشجون. بعضهم كان يصرخ بصوت ذليل ومشتاق أن الفجر يلد بعد الطوفان الكبير، بأن الفجر سيصل من الأعالي، وإن المنقذ يهوه. وكان العملاق يتكلم من الميغافون مردداً أسماء الفنادق والشوارع والأرقام.

لم يستطع محدثي سماعهم. قال إنه يكرههم كما يكره اللابوريستي. وقارنهم مع اليساريين، الذين كرر للمرة الألف، أنهم سبب الهزيمة في الحرب العالمية الثانية. ورجاني أن نخرج كي نستطيع متابعة الحوار في مكان هادئ حول المشاكل التي بدأنا نثيرها...

واستطعنا بصعوبة شق طريقنا إلى مقهى شيلر، ملتقى كل شيء وأي شيء. كانت تلك الحفرة، ذلك الملتقى مكتظاً بالمجرمين اليوغسلاف، بالنشالين، والمختطفين، والغشاشين، قبيلة جنوبية كبيرة كاملة من ذوي الأربع أصابع، تواجدت في ذلك الليل الماطر هناك. لاعبو الورق، وأعواد الكبريت، والهجامون، وبائعو المسروقات، وجوه ضاحكة، عيون ذكية، أياد مليئة بالساعات، والبلاكات، والخواتم. ولكل منهم معلم رئيس، لكنه يعمل لصالح نفسه أيضاً. والجميع يعمل لمصلحة صاحب مقهى شيلر، اليهودي - الأكراني - البولوني، الذي يتفهم طبائع ضيوفه الكثيرين، ولأسباب ذات طبيعة عملية، يسمح أن تتم التوصية على الطلبات من الطعام والشراب بكل اللغات اليوغسلافية...

وسرعان ما نتطرق أنا ومحدثي مع ذوي الأربع أصابع الضالعين في الإجرام، إلى التاريخ. يطلب محدثي الشاي، وبيد مرتجفة يتلقى كيس السكر الصغير، ويقول بصوت يشوبه الخوف: «هل تصدقونني؟».

«أصدق أنكم حاربتم لصالح المسيح الملك، لصالح الدين بمفهوم الكتيبة البيضاء وطريقتها، ومفهوم الوطن والإنسانية لديها. وأصدق أنه قد تمّت خيانتكم من الجميع. وكنتم أثناء انسحابكم تفكرون بمصير الناس الأغلى على قلوبكم في مسقط الرأس. وأصدق أنه لم يكن من السهل أبداً رؤية كيف يختطف الشعب السلطة من السادة الروحانيين المبجلين. وأصدق أنكم عانيتم الأمرين في الغربة، وأنكم تمرون الآن بظروف أصعب ما دمتم تعرفون أن شعباً طبيعياً سريع التأقلم يعيش في يوغسلافيا وفي سلوفينيا. ويؤكد كبار السن، ويجب أن نصدقهم، أنه في الوطن الذي هربتم منه تسير الحياة والمعيشة بشكل أفضل من أي وقت مضى. والآن قل لي: كم من الناس، كم من الأرواح تصدق ما جاء في المقاطع التي زودتموني بها بنجاح؟».

لم يعد هناك شهود يهوه، والمقطع الذي لا أحد يعلم مصدره: «من المؤكد أنه اليوم يشكل النقطة الأضعف في مسيرة هجرتنا ونزوحنا، ما دامت تتم القضية بالوسائل والوقت اللازمين جداً لتمكين تأثيرنا الثقافي، المستقبلي، الاجتماعي، والديني، قبل النظر إلى المنظمات السياسية والدعاية للمعتقدات السياسية في صفوف الشعب والعالم. نتساءل كيف يمكننا إلزام الشبيبة بنشاطنا السياسي؟، كيف يرثون تركة الآباء والأجداد؟. وبقدر ما يتعثر اكتساب أفكار ورؤى المسيحية السلوفينية الأبوية من الشباب، وتتبدل بالاستسلام للدعة والراحة، للمادية العملية، بقدر ما سوف تصادف الأبناء والبنات المصاعب اليوم في الانصهار بالنشاط لتحقيق الأهداف الشعبية السلوفينية... خسارة.. كم هي خسارة! تتناقص أعدادنا نحن الأصليين... أية خسارة؟».

«للإله، للاتحاد وحرية سلوفينيا!» يعود شهود يهوه إلى المرور. ويحسب الناظر أنهم وصلوا من البعيد، من أوطان الشمس. ويتم ترديد الأساطير حول

نهاية العالم والطوفان الكبير بعشر لفات، ويمكن أكثر، بما فيها تلك التي لا يوجد من يسمعها أو يفهمها في ردهات محطة ميونخ. وقد بدت المقاطع التي رددها محدثي، الذي نعت شهود يهوه بالشيوعيين، ممتعة بالنسبة لي:

«نحن السلوفينيون العائشون في ربوع العالم، نهيب بأبناء جلدتنا، متوجهين إليهم، المقيمين في الوطن الأم كي نفكر معاً بمستقبل الشعب السلوفيني وسلوفينيا، التي تربطنا بها الأصول والجذور. وما تزال الأقدار المحتمة مزروعة في قلوبنا. نرغب أن تتحقق استقلالية الشعب، كي يمتلك شعبنا، وجميع شعوب يوغسلافيا، الحرية والتحرر من الدكتاتورية الشيوعية، واستعادة كل حقوقنا في تقرير المصير على الأصعدة السياسية والتنموية والثقافية. نحن السلوفينيون في بلاد الغربة ندافع بكل إصرار عن مبدأ حق الشعب السلوفيني، وجميع شعوب يوغسلافيا، في امتلاك دولتهم، لكننا نرفض بشدة تحطيم يوغسلافيا بالقوة... هذه سلوفينيا، هذه يوغسلافيا التي نريدها...

إن هذه الخطوة في تاريخ الشعب السلوفيني لا بد أن تتخذها الأجيال التي تمتلك الحق في تقرير مصير الشعب. وسوف تتمكن من التنفيذ فقط حينما تلفظ الارتهان للماضي، وتقيم جسور التعاون العملي مع جميع القوى الشعبية السلوفينية...».

«أعتقد أن الشرور لا تتقادم» قلت بهدوء خشية أن أخزه في قلبه. وأتابع بشكل لم يسمعني به: «ومازال بعض من شعبكم في إنجلترا يفكرون بعبثية إشعال الحرب لاستلام السلطة في البلاد؟».

هذا الرجل من الأرجنتين؟...
من الأرجنتين يا سيدي!
المجلس الحركي الانقلابي يشجع الثأر؟ الشروط الأخرى للمصالحة...

«ما زال البعض يردد أن القيمة السياسية لهجرتنا ونزوحنا تبهت يوماً بعد يوم. مهما دعا بعضهم إلى مساندة الشعب بنسبة تسعة وتسعين بالمئة، الشعب الذي خاض قبل ٦٠ أو فقط ٣٠ عاماً حرباً أهلية، استطاعت الثورة طمسها نهائياً - يمكن القول - بوجود الشك الكبير ترى مع أية جهة كانت أغلبية الشعب السلوفيني - ليس فقط في مساحة العاصمة ليوبليانا - بل في هذه الأخوية كلها... ونصرح، نحن المهاجرون النازحون الأصليون أننا لا نتفق مع ذلك...».

«وماذا تريدون عملياً إذاً؟».

«أول شرط للمصالحة السلوفينية أن تعود السيرة العطرة لجميع شهداء الحرب، وشهداء العنف بعد الحرب. أن تعاد للموتى قبورهم التي طمست وسويت بالأرض، والحق أن يرقدوا بشرف الذكرى وصفائها بين أقربائهم وأصدقائهم. وثاني شرط للمصالحة أن يُعرض جميع المسؤولين عن الثورة، وعن ضحاياها، سواء أكانوا من هذه الجهة أو تلك، وعن النظام الأحادي الجائر في الوطن والمسؤولين عنه، أمام محاكم عادلة. كي يحاكموا على ما جنته أياديهم. والشرط الثالث للمصالحة أن يسمح للشعب السلوفيني

اختيار حاكم البلاد، بكل حرية، وبانتخابات سرية. وقبل كل ذلك انتقاء نوعية الأجهزة الحاكمة الاجتماعية والحكومية».

«وهل هذه التعليمات قادمة من الأرجنتين؟».

«أجل من الأرجنتين!».

«ما دمنا عند بونس آيرس، أخبرني ماذا يفكر المجلس الحركي الانقلابي هناك بالنسبة لنظريات النازحين اللاجئين هنا وبرامجهم؟». ولشدة تعجبي كان الجواب هنا أيضاً بترديد المقاطع المحفوظة من جريدة «إل فورتينا».

«الجيش الأرجنتيني، والرئيس بينوشه[1] في التشيلي، والعديد من جيوش أمريكا اللاتينية، الذين يفخرون. بكاثوليكيتهم هم إلى جانبنا دائماً وأبداً. إننا نحارب من أجل الأهداف ذاتها التي سنّها الإله للشعب: الحرب ضد الشيوعية حتى الرمق الأخير. نحن «حماة الوطن» السلوفينيون الذين خانهم الحلفاء الغربيون بكل صفاقة، ننتظر لحظتنا المناسبة، سواء شاء القابضون على السلطة في يوغسلافيا أم لم يشاؤوا، وتلك الفئة من النازحين المهاجرين، الجالسين في المقاهي، المغرر بهم، الذين يفكرون كيف يمكنهم حشر عبّاد السلطة في يوغسلافيا، الشيوعيين في شروجهم!. ولا يمكننا الموافقة على صلح كهذا. أبداً. لقد ضحينا كثيراً من أجل الوطن والدين والشعب لهذا ندعو ضحايا الحرب لأخذ الثأر!».

---

١ - الجنرال الفاشي المنقلب على الليندي الرئيس المنتخب من الشعب في التشيلي. - المترجم -

شهود يهوه هذه المرة من السود.
«عزيزي السيد جورج..»

«ومع ذلك فقد عاب عليكم العالم بعد هزيمة ألمانيا الهتلرية، تعاونكم مع محتلي سلوفينيا. وفي الوطن ينعتونكم - بكل بساطة - بالخونة...».

شعر، كما شعرت أنا، بأن حوارنا يوشك على الانتهاء. فاستجمع قوته، تعرّق، واستقام. لم يعد شهود يهوه يزعجونه، هذه المرة كانوا من السود. تكلم مستشهداً وشارحاً كأنه يدافع عن أطروحة:

«الخيانة أمر نسبي. لقد هبت رياح القدر ضدنا. هذا لا يعني بأن الريح لن تدفع بنا يوماً ما باتجاه الشرق. ماذا فعلنا، ومن أجل أي شيء حاربنا، وماذا كنا وقت الحرب؟. وماذا كانت العصابة الحمراء[1]، التي كانت دائماً تتلقى الأسرار والأخبار من الحكومة البريطانية، ومثلها؟.. لقد أخبرها المرحوم الدكتور ميخا كرك في يونيو ١٩٤٣ بما يلي: «عزيزي السيد جورج! «المبعوث البريطاني لحكومة الملك في يوغسلافيا. B .M» لقد نعتت مذيعة راديو لندن جميع السلوفينيين المحاربين ضد الثوار الشيوعيين بالخونة، وخدم المحتل، العاملين ضد مصالح شعبهم. والحقيقة أن لا أحد من أفراد شعبنا خائن أو خادم للمحتل. ولا يوجد كولا بوراستي بيننا. لقد تّم تنظيم حركة سرية تحت الأرض في جميع ربوع الوطن. وكل من كانت لهم أية علاقة مع الحكومة الإيطالية احتفظوا بتلك العلاقات فقط كي يتمكنوا من

---

١ - الحزب الشيوعي والثوار. - المترجم -

إعانة تلك الحركة السرية تحت الأرض. بينما أدخل الثوار الشيوعيون الطرق الجهنمية لاختراق أعدائهم السياسيين، أو حثّ بعض مواطنينا للقيام بأعمال عبثية ومتعجلة. هكذا كان الإيطاليون والشيوعيون كلاهما يحطمون شعبنا ومواطنينا..»

«هذا ما كان يقوله دراجا ميخايلوفيتش، الذي تعامل مع الألمان أحياناً ومع الإيطاليين أحياناً أخرى. ولقد تمتّ مكافأة أحد ضباطه وأمرائه: بافل جوريتش بالصليب الحديدي. أكبر ميدالية في الرايخ الثالث. ولقد عتّموا على ذلك، بل ولم يتمّ، ولن يتمّ، ذكر ذلك بين المهاجرين النازحين. إنهم يخجلون من ذلك. هل تعلمون شيئاً عن هذا الصليب الحديدي الذي زيّن صدر رجل سلوفيني؟» أسأل، رغم أنني أُشاهد محدثي لا يتابع سوى درسه، ومحفوظاته، وقوائم الغرباء. القوائم التي لا يستطيع هو مطلقاً الوصول إلى مستوى أفرادها. «ومنذ بداية حوارنا قلت لكم بأننا لم نكن نملك طريقاً آخر. ما دمنا قد اخترنا درب حماية الدين والوطن والشعب بكل قوانا، بدل أن نتسول المساعدات من المحتل. وإلى أين يمكننا الوصول ما دام الشيوعيون يذبحوننا؟.. أين؟ ونحن تحت جناح الجيش الألماني وعلى أرضه؟ هناك حيث امتلك «حامي الوطن» منّا جرعة وحيدة مخصصة لمستقبل جديد مؤسس على الدين، والعمل، ونكران الذات. حينما أصبحنا، بعد سقوط إيطاليا، فارغي اليدين. فهرعنا إلى هناك، إلى الجهة الوحيدة التي يمكننا الحصول على الأسلحة منها والعون. هذه كانت سياستنا الوحيدة. وكل من لم يؤيدها، كنا نبصقه فوراً».

«وحينما ابتدأت المعونات الألمانية تجف لمن اتجهتم في طلب العون؟».

«اتجهنا إلى البابا بيا الحادي عشر، الذي كان لديه دائماً كل التفهم للمحاربين ضد الشيوعية، ولهتلر وموسوليني. وقد أرسل المطران جورج روجمان مطران ليوبليانا تعاليمه المقدسة بطرق سرية في نهاية ١٩٤٤ برسالة: في هذه اللحظات الخطيرة للغاية، ونظراً للحاجة القصوى، نتوجه لكم، إلى غبطتكم، ونرجوكم بتوسل وصَغَار كي تتدخلوا بعملية حربية. ولكي تكون غبطتكم واسطة بيننا وبين الشخصيات الأنجلو أمريكية المتقدمة، وتقدموا لهم هذا الالتماس المطعم بالصغار والذل كي تحتل القوى الأنجلو أمريكية أراضي سلوفينيا وشواطئ البحر. وأن تفرضوا في جميع أنحاء الوطن نظامكم المؤقت المتعلق بالسلام والعدالة، دون أي تدخل من الشيوعيين الإرهابيين الثوار في جبهة التحرير..».

«أهذه معلومة جديدة من تاريخكم؟»

لكن مع الأسف لم تنجح وساطة المرحوم مطران ليوبليانا الدكتور جورج روجمان، بالرغم من أن الدكتور ميخا كرك قد أثار نشاطاً سياسياً، بعد تلك الرسالة فوراً، لتبني توسل المطران كي يحتل الأنجلو أمريكيون سلوفينيا... ماذا سيعني ذلك للسلوفينيين؟

لقد توسل سكان سلوفينيا إلى الرئاسة الأنجلو أمريكية كي تحتل، ليس فقط الجزء الإيطالي من سلوفينيا، بل الجزء النمساوي منها «كورشوكا»، بل وكل الأجزاء السلوفينية من جموع يوغسلافيا كلها. أي كل بانوفينا اليوغسلافية الدرافية... كما كان كل من المطران روجمان وميخا كرك حينئذ على حق. أليس كذلك؟».

السلوفينيون - أفضل مربي الخراف الأرجنتينية!
الدمامل القيحية.
كارديناالان يعدان بفجر جديد.

«هل يوجد في العالم كلّه من يفكر بكم، أنتم النازحون المهاجرون السلوفينيون؟ هل ما زال أحد يتذكركم، أو يساعدكم، أو يرعى أفكاراً مثل أفكاركم؟ لمن تكتبون الرسائل، والتظلمات؟ هل يجيبكم عليها أحد؟».

«الأرجنتين! معنا. وكلما كانت لدينا اجتماعات، نتوسل فيها عبادة ديننا وإيماننا بالإله والشعب والوطن نقصدها. دائماً لدينا ضيوف كثر مميزون. ويكون الكاردينال الأرجنتيني أنطونيو كاكيانو ضيفنا النظامي والصديق المرحب به. العارف دائماً كيف يدقّ أبواب قلوبنا. وفي ١٤ يونيو ١٩٧٠ حينما اجتمعنا على البعثة المبجلة قال لنا:

«أنضم إليكم بكل سرور وإخلاص، في الاحتفال الذي يجمعنا معاً هنا في هذا المكان. إنكم تحتفلون منذ خمس وعشرين سنة، منذ أن هجرتم أوطانكم. وتذكرون الأعداد الكبيرة من ضحاياكم المقتولين من دون سبب معقول ومقبول. في كل شعب يوجد أشياء مشتركة، أشياء أخوية وليس من المسموح التضحية بحياة الأخوة من أجل أسباب سياسية، أو حياة الأقارب. أنضم إليكم. وأنا معكم من كل قلبي...».

وبمجرد ذكر الأرجنتين وبونس آيرس، الكنائس والكاردينالات، الاحتفالات الكنسية والصلوات، الاعترافات والقسم، ترى محدثي يتهيج ويقشعرّ بدنه، حتى يخيل إليّ أنه سوف ينجلط. ومنذ أن ابتدأنا نتناقش لم أسأله أين يسكن، بالرغم من امتلاكي الأسباب الداعية لذلك والمناسبة. أية

صحيفة سفر يحمل. وأخيراً مم يعتاش؟. من المؤكد ليس من ترديد المقاطع ووثائق النازحين المهاجرين، من خطاباتهم وعواميدهم الصحفية، من نقاشاتهم ومفارقاتهم، من الحفظ غيباً للتعاليم الإجرامية السياسية من تحت الأرض والأحداث المتعلقة بها.. حتماً ليس من ذلك!. ولقد قرأت مرة أن الأرجنتين هي مصب وجنة النازحين الأوروبيين أو المهاجرين، أو الرحّل المتنقلين منهم - للخونة والمجرمين، لكل من يخفون ماضيهم وتاريخهم، لأولئك الذين يستبدلون أسماءهم الأصلية الوطنية بأسماء إسبانية. الأرجنتين بلد مزارع الخراف والدمامل القيحية، بلد ينظر كله على الأطلسي، بلد الذهب والفضة، بلد اللآلئ السوداء الأوروبية...

«ولأي سبب قتلتم السلوفينيين في سلوفينيا أثناء الحرب إذا لم يكن سبباً سياسياً؟».

«أبداً. مطلقاً لم نقتل أبناء شعبنا السلوفينيين المؤمنين التابعين للمطران د. جورج روجمان. لقد أبدنا المشركين ضد المسيح فقط. وهؤلاء لم يكونوا سلوفينيين، أخوتنا بالدم. كانوا عالميين، مشركين. لقد كانت هذه الأشكال البشرية تعتبر نفسها بشكل خاص فوق مستوى البشر، فوق الشعب وخارج نطاقه ودينه. فلأي شيء لا نزال نحارب، ولأي شيء حاربنا أصلاً؟».

«أهناك. في الأرجنتين، عندكم؟».

«في كل مكان يا سيدي! في كل مكان... تشتعل الحرب من أجل الصليب!».

«ضد من أنتم؟».

«ذلك معلوم يا سيدي، ضد من نحن. من الأفضل أن لا ألفظ ذلك. تذكرون أدياناً أخرى؟! أية فظاعة!! أصحاب القمصان السوداء، القمصان

الصفراء، فاقدو الحياء؟. أرجوكم.. أرجوكم.. أرجوكم... إنهم أبشع من أولئك الواصلين إلى الكونغرس العالمي، أقصد شهود يهوه. الذين يمولهم اليهود الأمريكيون والإنجليز والشيوعيون. هل تذكرون باقي الأشكال المسيحية؟ هؤلاء ليسوا مؤمنين أبداً. هؤلاء، إذا سمحتم لي أن أقول، هؤلاء لا دين لهم! روما[1] هي البيت يا سيدي! وكل من لا يفهم ذلك - سيكون موشوماً! وكل من يقف ضد ذلك - فآخرته معروفة!».

ولا أعلم لماذا لم أسأله أبداً عما يفكر به حيال الإرهاب السياسي ضد يوغسلافيا. مع أنه امتلك وأظهر علناً صحفاً كتبت صراحة، وأعلنت، وغالت في إعلانها، عن هجومات المجاهدين الصليبيين، حراس الحركة الكرواتية التحررية «HOP» على أرض يوغسلافيا. وكان يجب عليه معرفة ذلك بقدر إلمام محدثه على الأقل. لا بد أنه كان يعرف الكثير لأنه قرأ تلك الصحف المهتمة بالأوستاشي، والتسعة عشر رجلاً حاملي الصلبان ورافعي أشد الأسلحة الأوتوماتيكية فعالية ودماراً، مع السكاكين، مع القبضات الحديدية المدببة، مع السموم لوضعها في شبكات المياه اليوغسلافية. وانطلاقاً من مدينة سيدني الأسترالية، ومن خلال كل تلك البحار والجبال، ومن خلال فرانكفورت على الماين، وسالسبورغ «الشهيرة بالأدعية، والصلوات، والقسم، ودعم ذوي المعاطف السوداء، والمجاهدين جماعة بافيليتش على الأرض الأوستاشية، والروحانيين جماعة سيسيل!»، ومن خلال غراتس وماليبور، وصلوا إلى المركز الجغرافي يوغسلافيا، حتى بوكوينا في البوسنا، كي يقيموا المذبحة هناك، ويسمموا بالسيانيد الرصاصات المستعملة ويقتلوا بها ثلاثة عشر رجلاً! ولا أعلم ما الذي

---

١ - روما الكاثوليكية. - المترجم -

يمكن أن يقصّه محدثي منَ الأرجنتين عنهم، وعن ذلك الأمر برمته، رغم إيماني الشديد بمعرفته أن «HOP» تنافس منذ أمد بعيد «SOP» أي «الحركة الصربية التحريرية»، ما دام يقرأ كل تلك الصحف والمجلات بصفتها وثائق. وإنه إذا لزم الأمر مستعد للانطلاق إلى الوطن حاملاً الصلبان والتيجان الملكية، والرايات والديناميت مع كل ذلك بالطبع!

كيف فاتني ولم أسأله ماذا يفكر السلوفينيون السابقون المسفوحون سفحاً في نصف الكرة الأرضي، حول النشاط الإرهابي ضد بني جلدتهم اليوغسلاف الجنوبيين ومواطنيهم وأهلهم؟ هل يرغب هؤلاء السلوفينيون المجهولون بامتلاك منظمة أو منظمتين إرهابيتين، إنما قويتين، على غرار «HOP» «SOP» و«HRB» -أصدقاء الدانوب-، وهل هؤلاء السلوفينيون المجهولون يمتلكون الشجاعة مثلما كانوا في سلوفينيا. «في مرعاهم» حينما ذبحوا دون أية رحمة الأطفال الذين لم ينتسب أهلهم إلى الكتائب البيضاء، وقذفوهم في النار؟ هل يملك السلوفينيون المجهولون هناك في خططهم الكبيرة قدرة إشعال حرب، إضافة للحرب المعنوية «لتطهير الدين المسيحي»، حرباً مستقبلية محددة «لتطهير الأرض السلوفينية؟». وأين سيقيمون تمثال الجنرال روبنيك والمطران روجمان آخر المبجلين، والدكاترة الباقين وأساتذة الجامعات الذين ساروا من خلفهم كالدواب طائعين وعمياناً؟.

ولم أجد في المناشير، والمجلات، والإعلانات في الصحف، والوثائق، والخطابات، شيئاً ما عدا تفخيم جرائمهم وشرعنتها، والعمى، عمى الألوان السياسي، ومحدودية التفكير، وبهرجة الماضي لتحسين صورته، وصورة الكولا بوراستي، لإشهار الزعامات وقوننة أفكارها، التي نأمل أنها اندحرت نهائياً، ولكل الأوقات مع الفاشية الأكليرية وتوجهاتها...

الكتائبي الأبيض من الأرجنتين ليس بوضع يؤهله لمشاهدة ذوي الأربع أصابع الراغبين بإهدائه مشروب الشنابس الألماني.

اقترب انتصاف الليل. وهرع الرجال الأربعون من ذوي الأربع أصابع إلى المحطة: سوف يصل ما يسمونه القطار الشمالي خلال دقائق عدة، من هامبورغ، مليئاً بالشماليين البدينين يغالبهم النعاس. الذين كان يجب «تقليب جيوبهم منذ ميونخ وإفراغها». بعدئذ ينطلق ذوو الأربع أصابع إلى الجنوب بالقطار، كي ينهبوا المسافرين الباقين. وهذا ما يجب إخبار محدثي به قبل الحدود الألمانية النمساوية. إذ يتمّ من هناك القفز إلى أول قطار صباحي مثل قطار البلقان اكسبريس، ويتمّ العبث والنهب والتدليس! وسوف تصل هذه القبيلة من اللصوص التي لم تنم بعد، وما تزال صاحية ومبتهجة، من ذوي الأربع أصابع، التي لا يمكن أن أنساها أبداً، إلى ميونخ في الوقت المحدد، وتتخذ أماكنها في مقهى شيلر، حيث نحن الآن، وحيث كان كاتب هذه الأحداث مرات كثيرة جداً. وهنا سوف يحكى، ويعاد الكلام، عن تلك المعايشات الليلية، المثيرة حتماً، والمغامرات مع المسافرين الذين استيقظوا وحاولوا المقاومة. وهنا تنشأ تجربة أدبية كاملة، شفهية، حتى وصول كاتب ما. وسوف تولّد «حكايات صيد ذوي الأربع أصابع» قصصاً تليق بهؤلاء المجرمين السلوفينيين الجنوبيين واللصوص، هنا مع موسيقى سفدلينكا[1]، وليترات من القهوة، وشتم النادلة والتحرش بها،

---

١ - موسيقا وأغنية روسية شهيرة. - المترجم -

والنادل أيضاً، بكل اللغات السلافية الجنوبية وأشكال لهجاتها، بما فيها السلوفينية أيضاً. وتنسج خطط الكمائن واللطاء لسرقة «بعض المولات الصغيرة» خطط الهجومات على القطارات المحلية السائرة بين المدن، الغاصّة بالعمال الأجانب. هنا سوف ترسم الخطط وتُغنى تفاصيلها للهجوم الليلي على القطارات الحاملة للمسافرين المتعبين جداً. مثلاً أولئك المسافرين إلى فيينا وباريس من نيرنبرغ «خلال ميونخ. لأن ميونخ المدينة المركزية، قلب الإجرام»، لفرانكفورت، ديسلدورف، وأمستردام.. حتى الشواطئ.. ونادراً ما يذهب ذوو الأربع أصابع إلى الأطلسي «من خلال بار» كما يقولون ويصرخون «ميونخ واحدة، وواحد هو شيلر».

لكنني لم أرغب في إتعاب محدثي بهذا الفلكلور البلقاني - الأوروبي الغربي. ولا أعلم كيف ستكون ردة فعله لو قلت له إنه يوجد بين هؤلاء ذوي الأربع أصابع أكثر من خمسة سلوفينيين. وكان سيقول «كفار... لا يرغبون حتى بسماع قصص آبائهم وأعمامهم وبطولاتهم..» لم أذّكره بما حصل في الحرب الأخيرة الخاسرة، ولم أحكِ له عن بطولات أولئك الشباب الذين انتهت مصائرهم في السجون، في المزابل وأقنية الصرف الصحي. خشيت فيما خشيت أن أبقى من دون المقاطع، التي من أجلها بدأت هذا الحديث المستفيض.

ومع وداع ذوي الأربع أصابع بنظراتي، والتمني لهم «أن يبقوا جميعاً أحياء وأصحاء وأن يعودوا إلى قواعدهم»، إلى نقطة الإنطلاق، أي إلى مقهى شيلر، استكملت حكايتي مع محدثي، حول الماضي، فالماضي بالنسبة له الحاضر والمستقبل.

في نهاية شهر مايو تنتهي ست وثلاثون سنة منذ أن جاءَ القتلة المأجورون....

«يا محدثي، لا بدّ ونحن في نهاية استعراضنا هذا أن أصارحكم بأنكم تفكرون بطريقة غريبة في مقتل الناس، في الموت عموماً، في الشر الرهيب، في الخيانات السياسية، إذا حق لنا قول ذلك. تفكرون كأنكم تعيشون قبل ثلاثين سنة وأكثر!. كأنكم قضيتم كل ذلك الوقت الفاصل بينكم وبين الهزيمة والهروب، في منفى ما، في الظلام. ألا تعرفون أن بعض الشخصيات التي تتكلمون عنها بكل انفعال هم أشرار مجرمون حقيقيون عملوا ضد الشعب الذي انبثقتم منه، والذي - كما نرى - هربتم منه بنجاح؟ هل من المعقول أنكم لم تسمعوا، خلال كل ذلك الوقت المقضي في النزوح والهروب أي شيء جيد، أو صحيح، عن وطنكم الذي تشتمونه، وتكيلون له اللوم، وتتمنون له الخراب؟ كيف لم يحدث أن أمسكتم بين يديكم صحيفة سلوفينية؟. تقول إنكم تقرفون من الورق الشيوعي، من الرصاص، من اللغة! ولا بد من التذكير باللا معقول وبما لا يليق بالأدب!. هل من المعقول العيش في عالم الاتصالات الهائلة وزمنها ولم تمسكوا بين أيديكم كتاباً تاريخياً ما، مجلداً ما، يحتوي بين درفتيه وثائق عن الزمن الذي لا تستطيعون الخروج منه؟!! ألم تسمعوا بما كتب، وبما تمّ الحديث عنه، وتمّ الحكم عليه، ذلك المسمى العميل العسكري للأورخ المبجل بيتر كريجاي، والجنرال روبنيك، والعقيد أنطون شنكلاري، وفرانس مالوفرخ ويعقوب مافس؟».

«كيف تجرؤون على الكلام بهذه الطريقة عن الرجال المبجلين للشعب السلوفيني؟ لقد كانوا قادة الشعب، وما زالوا حتى يومنا هذا! ولا نقصد

الذين هناك في الجنوب، في سلوفينيا، بل هؤلاء فقط الذين هنا، الذين استبدلوا العيش المريح الهانئ في الوطن بطريق الهجرة والنزوح المزروع بالشوك. لقد قتل أعداء المسيح الكثيرين منهم! وسوف تحلّ في نهاية شهر مايو هذا العام ست وثلاثون سنة منذ أن اغتال القتلة المأجورون من حزب «VOS» أمام بيت تسيلوروف في ليوبليانا، وبطريقة لئيمة، لامبرت إيرليش - ابن العائلة السلوفينية العريقة، من وادي كالانسكا، الدكتور في جامعتين: أكسفورد وانسبروغ. وكل ما تكتبه الصحافة الشيوعية محض أكاذيب تافهة! نحن فقط من يعرف الحقيقة! إن رجال الدين المبجلين لم ينشطوا في السياسة أبداً، كانوا قادة الشعب فقط، الشعب الذي يخاف الإله ويؤمن به...».

«هل كان بين أيديكم، أو أنكم شاهدتم صحيفة مجرمي الحرب اليوغسلافيين السلوفينيين؟. هناك يمكنكم إيجاد الأسماء التي تذكرونها بكل تبجيل واحترام!، أو إن العديد من الذين تصلّون لأرواحهم، مذكورون على القوائم الدولية لمجرمي الحرب؟ هل تعلمون ما جرى في نيرنبرغ[1] وكم استغرق أطول بحث في الإجرام في التاريخ؟».

ترديد مقطع بغضب مكبوت جداً:

«نيرنبرغ؟ تقصدون تلك القضية المفتعلة «للمنتصرين» التي حضّرها ونفذها الشيوعيون: السوفيتيون والإنجليز، بل والأمريكيون أيضاً وهذا ما يفاجئنا جداً!. لقد عملنا طيلة الوقت مع الحلفاء الغربيين. وكانوا دائماً وابداً على اطلاع تام بكل شيء، لكن ذلك العمل، مع مزيد الأسف، لم ينجح، بالرغم من أن المرحوم الدكتور ميخا كرك قد وضع كل قوته، وكل اهتمامه في ٧ يونيو ١٩٤٥. لقد خاننا الإنجليز أنفسهم دون أدنى شعور

---

١ - مدينة ألمانية جرت فيها محاكمات النازيين من قبل الحلفاء. - المترجم -

بالعيب. وأعادونا يسلموننا للقتلة الشيوعيين «الجيش الشعبي السلوفيني»، وكان آخر نشاط للدكتور ميخا كرك تدخله واتصاله مع رئيس جيش الحلفاء في الشرق السير هارولد الكساندر. يشرح له في رسالة طريقة عملنا، وأماكن تواجدنا بدقة. هكذا كتب، لقد كان هؤلاء الرجال، بالرغم من مظهرهم الخارجي المتغير، ومنظماتهم الحربية، أبطالاً مخلصين يوغسلافيين وسلوفينيين، حاربوا حصراً ضد عصابات الثوار الشيوعية، ودافعوا عن وطن السلوفينيين وحياتهم، وعملوا في الوقت ذاته لمصالح الأمم المتحدة وتحقيق أهدافها!. وهربوا من أوطانهم كي يجدوا الملاذ والحماية عند القوى الإنجليزية... وأنتم تعلمون يا حضرة السير أن جيش «حماة الوطن» كان جيشاً وطنياً بأهدافه ونواياه، شعبياً، ومنحازاً للحلفاء، ومخلصاً للإنجليز جداً! هكذا كتب الدكتور ميخا كرك في رسالته إلى الحكومة البريطانية... فهل مثل هؤلاء الرجال خونة وأشرار؟!».

«إذا لم تخني الذاكرة يا محدثي هذا مستخلص من موسوعة سلوفينيا الحرة».

«بالضبط! هذا هو الشيء الوحيد الصحيح لديكم يا سيدي!. في تلك الموسوعات كل الحقيقة، حقيقتنا! واعتماداً على تلك السجلات سوف يكتب التاريخ يوماً ما يا سيدي...».

«أتفق معك يا محدثي أن الإنسان أحياناً أفضل من يرسم نفسه. أن يعرض نفسه في المكان والزمان المسمى «التاريخ». إن مقاطعكم التي ترددونها أفضل بورتريه لكم أيها التائهون في بقاع الدنيا، تبكون الماضي، وتستدعون أرواح المشوهين السياسيين الذين تسمونهم وطنيين..».

«... وننتظر لحظة هبوب الريح، التي اقتلعتنا في ١٩٤٥ وقذفتنا خارج يوغسلافيا إلى العالم، أن تهب الآن وتعيدنا نحو الشرق...»

الحوار مع النازح اللاجئ السلوفيني الذي من الواضح أنه كان كتائبياً أبيض، والآن متسكع وجامع تبرعات لا يعلم أحد أين تذهب ولأي هدف، الذي لم يكن ليكون حقيقياً إذا لم نصل إلى السؤال المفتاحي والأخير، الذي لا بد أن يجيب عليه، السؤال الأكثر إحراجاً: كيف يمكن الانتقام من الوطن، «الأسوأ من الخالة زوجة الأب»؟. لكن ما كان يسرّ محدثي العودة إلى الماضي أكثر مما يسرّه ارتجال المقاطع التي تتحدث عن المستقبل - بطريقتهم الموشومة بالخيانة والتآمر!. أساعد محدثي، وأذّكره ببعض المجلات، ببعض المناشير، والخطابات، والوثائق، وتصريحات الدكتور جيبوت...

ترديد مقطع آمل أن يكون الأخير:

«نختلف نحن البشر بعضنا عن بعض، أليس كذلك؟ ولقد تغيرنا نحن النازحون اللاجئون السياسيون كثيراً خلال العقود الثلاثة الأخيرة وعدة سنوات أخرى، التي عشناها في بلاد الغربة دون ذنب ولا جريرة. ولقد تخلت الحمية والجهادية عن الجيل الأقدم المتعلم، ولم يعودوا يمدون يد العون لأي إنسان هناك في الجنوب. واسمعوا فقط ما يترنحون به: لقد كان المهاجرون اللاجئون السياسيون السلوفينيون، الذين مثلوا مجتمعاً على كل حال، منذ البداية، مشهورين بالتشابك، والضياع، والمراهقة، وعدم

النضوج والجهالة الصبيانية، التي تجاوزت في أحيان كثيرة الغباء، والتي لم يسمح لها أن تنضج، وتنفض غبار الماضي، وتبدأ الحياة، إما بصفتها مجتمعاً نازحاً مهاجراً منظماً، أو بصفتها جزءاً نشيطاً مكملاً لا يتجزأ من الوسط الذي تعيش فيه. وما زال البعض منا يفكرون وينتظرون تلك الساعة التي تهب فيها الرياح، التي اقتلعتنا عام ١٩٤٥ من يوغسلافيا إلى دول العالم، وتعيدنا إلى الشرق. نفكر في تلك الساعة التي نعود فيها أخيراً بصفتنا محررين لشعبنا السلوفيني البسيط من نير الضبع الشيوعي والحتف المبين، بقوافل متكاملة..».

«لطيف!» أقول، وتحتلني رعشة مزلزلة. «كان هذا من كتاب كليستا تري كلافا. أليس كذلك؟».

«أجل من كتاب كليستا تري كلافا يا سيدي، ومني أيضاً!».

«كيف قلتم ذلك.. العودة بقوافل متكاملة..؟..».

«أجل يا سيدي قوافل متكاملة!».

«مع الصلبان؟ مع السكاكين القديمة والقامات؟ مع البنادق الفرنسية القديمة المعدة للاستعراض ذات الطلقات الثلاث؟ ببزات عسكرية مخاطة من أقمشة غريبة؟ مع الأغاني التي سيسخر منها الأطفال!؟».

«قلتُ مع القوافل المتكاملة!».

«قلتم إنكم قبيلة منعزلة! ماذا عن الشباب، أولادكم، المولودين في النزوح واللجوء؟».

«أحياناً أبكي حينما أشاهدهم. وإذا كنا نحدد النزوح واللجوء السياسي اعتماداً على الهدف السياسي، عندئذ يبقى الشباب محصوراً في قطاع صغير

يحمل في ذاته وداخله دودة التفسخ والانهيار. هي حالة لا يمكن الهروب منها ولا بد من أجلها أن نمحو من النزوح واللجوء السياسي كل الشباب المولودين في الأرجنتين «أو في أي مكان خارج أرض الوطن». لأنه لا يمكننا لا بالضمير ولا بالعقل انتظار أن يجعل هؤلاء الشباب، أولادنا، مهمتهم الأولى والأهم حلّ المشاكل السياسية التي ليس لهم بها أية علاقة، والتي في الحقيقة لا يملكون حلّها أية إمكانية عملية...».

«وبماذا إذاً ستحطمون كل شيء في الجنوب؟».

«سوف نتحد مع كل من يساعدنا للوصول إلى أهدافنا، كائناً من كان، ومن أين أتى لا فرق. حتى مع الشيطان إذا لزم الأمر. ولا نزال نؤمن بالإله والشعب والوطن!».

شهود يهوه يجرّون السفن
للكونغرس العالمي في ميونخ!
ذوو الأربع أصابع يصلون في ورديات.
الفراق مع محدثي، في الفجر!

لحظة الافتراق، تبادلنا أنا ومحدثي، كل ما كان متاحاً بين أيدينا، من صحف للاجئين النازحين، مجلات، موسوعات، ومناشير. كان لديه أكثر، وكان أكثر كرماً، ولم يطلب أي تعويض. وكانت صحفه، والحق يقال، مدعوكة، مشققة وملصقة ومرقعة. دهنية، درس منها!

أكرر أنني لم أكن أعرف من هو، ولا من يكون، ولا من أين جاء. وأذكره دائماً. أعتقد أنه لم يكن يصدق ما يقول، ولا المقاطع التي كان يرددها. وأنه كان يؤمن بشعار الشعب والوطن (هاتان الكلمتان مثل كلمة الإله تكتب بأحرف كبيرة...).

ولو أنه آمن بالإله، مثل كثيرين غيره، فما كان ليكون حيث كان. لكنه كان هناك، لأنه صدّق «الناس المتعلمين» «القادة» الحائزين على الدكتوراة من جامعتين شهيرتين: أكسفورد وانسبورغ. ولم يصدق البشر المحترمين السلوفينيين العادلين الجادين، الذين كلما انطلقت شرارة المصائب كانوا يظهرون حدساً صحيحاً معافى تجاه الأمور الصحيحة...

رافقت محدثي حتى نهاية شارع شيلر. حتى محطة القطار الرئيسة. وحينما لم يعد بحاجة إلا لمئة خطوة، ظهرت ثلة متعددة الألوان من شهود يهوه، مثل

كومة. وكانت السماء تمطر بصورة جهنمية أمطاراً بافارية. كان شهود يهوه يسحبون حقيبة نوح، مثل سفينة قاصدين الكونغرس العالمي. وكانوا يتشاجرون مع المسافرين الخائفين، ومع رجال الإطفاء، ومع البوليس.

تسلل النور، وتفجر الصباح، أو أنه هيء إليَّ ذلك، بسبب الرجال بأربع أصابع الواصلين على ورديات ليلية.

أوستربرغ - بلغراد ١٩٧٨

ملاحظة:

كل المقاطع ترجمها عن اللغة السلوفينية بافل راك.

من كتب المؤلف

- الشياطين قادمون	رواية قصيرة
- الذئب والجرس	قصص قصيرة متسلسلة
- الديك الأحمر يطير باتجاه السماء	رواية
- بطل على حمار	رواية
- مجيء كودو	دراما
- رجال بأربع أصابع	رواية
- الأصبع الخامس	رواية
- الحرب كانت أفضل	رواية
- جولو.. جولو	رواية

... وغيرها.

ميودراك بولاتوفيتش

الإصبع الخامس

كما تنبأ المؤلف في روايته الرائعة «رجال بأربع أصابع» بحتمية اقتتال الأخوة في يوغسلافيا الفدرالية، وتقسيمها إلى دويلات، بعدما بدت من أفضل الدول هدوءاً واستقراراً، حتى دخل إليها الربيع الأوربي، أو ربيع براغ كما يسمونه، وبثّ نار الفرقة بين تلك الشعوب، التي صوروها كشعوب متناحرة تعيش قسراً في وطن واحد. الرواية التي ألفها عام ١٩٧٥، أي قبل الاقتتال والانفصال بخمسة عشر سنة أو عشرين. وصدقت تلك النبوءة بعمق ذلك التعليل ونفاذ الرؤية.

يعود في الإصبع الخامس ليفضح الحقيقة العارية: الإرهاب لم يولد هنا... بل نشأ هناك أولاً.. هناك.. هناك.. إنها نبوءة ورؤية صادقة جداً لما حصل في يوغسلافيا، تشيكوسلوفاكيا، دول الاتحاد السوفييتي سابقاً، رومانيا، جورجيا، أوكرانيا وغيرها.. وسمي بالثورات الملونة. علماً بأنها كتبت في ١٩٧٨م أي قبل سنوات وسنوات من حصول تلك الأحداث. إنها عمق الرؤية وصدقها. قوة التحليل. المقدمات والنتائج، التي تشرح بقوة وحرفية حقيقة الشر الفظيع في أطر عالمية تجعله رمزاً عالمياً ومؤكداً.

وكما يوجد فاشيون تكفيريون إرهابيون في صفوف مدّعي الإسلام، يوجد فاشيون تكفيريون إرهابيون في صفوف مدّعي المسيحية. وقد أضحى الموضوع الأكثر إشكالية وإثارة وحضوراً. المكتوبة بطريقة ما بعد الحداثة وتقنياتها في السرد والتحليل والتوثيق.

المترجم

ISBN 978-9933-580-96-4
9 789933 580964

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

nwf.com نيل وفرات.كوم
متوفر أيضا في eKtab
جملون

تصميم الغلاف: ناي دزاين - (ستار نعمة)